منشورات وزارة الإعلام والثقافة
الجمهورية العربية اليمنية

حياة الأدب اليمني
في
عصر بني رسول

عبد الله محمد الحبشي

منشورات وزارة الإعلام والثقافة
الجمهورية العربية اليمنية

حياة الأدب اليمني
في
عصر بني رسول

عبد الله محمد الحبشي

الطبعة الاولى سنة ١٩٧٧ م

الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ م

الإهداء

إلى صديقي العلامة علي أحمد أبو الحجاج

عرفته باحثاً ومشجعاً للبحث العلمي

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حظي تاريخ الادب العربي في البلاد العربية بالعناية الكبيرة ، فكتبت فيه عشرات المؤلفات وقامت عليه أسماء كبيرة من أدبائنا الكبار كالاديب طه حسين والعقاد وشوقي ضيف وغيرهم . وكان جل اهتمامهم بتاريخ البلاد المعروفة لهم كمصر والشام والعراق ، وقليل منهم من أولى عنايته لما عدا هذه البلدان ،وعلى الاخص اليمن التي كادت تختفي من كل تلك الكتب وغيرها .

وقد رأيت من واجبي أن أسد هذا النقص في تلك الدراسات وقمت بكتابة هذه الدراسة الادبية التي تتناول فترة من أهم فتراتنا الثقافية في اليمن . وقد تبين لي أهمية عصر بني رسول في تاريخنا الأدبي منذ فراغي مباشرة من كتابي (الصوفية والفقهاء في اليمن) سنة ١٣٩٥ هـ .

فقمت بوضع هذا الكتاب : (حياة الادب في عصر بني رسول) منذ سنة ١٣٩٧ هـ ، وقدر له أن يطبع في تلك المدة إلا أنه ويا لسوء الحظ أتت طباعته من أسوأ ما يطبع به كتاب في العصر الحديث . ويكفي لتبيّن مساوىء تلك الطبعة ما كتبه الاستاذ عبد العزيز المقالح في صحيفة (١٣ يونيو) ونشره بعد ذلك في كتاب له غاب عني اسمه الآن .

فما كان من وزارة الإعلام إلا أن تحمست لاعادة طبعه ، وكان على رأسها الأديب النابه الأستاذ يحيى بن علي الارياني الذي شجعني في مواصلة مراجعته

وتنقيحه ، فشمرت الهمة في ذلك على الرغم من مشقة الرجوع الى كتاب سبق لي أن جهدت القريحة فيه .

وفي الختـام لايسعني إلا أن أحيي أولئك الذيـن كرموني باقتراحاتهم وإرشاداتهم وعلى الاخص أولئك الذين كرموني بتقاريظهم وثنـائهم الذي لا أستحقه لا في قليل ولا كثير ، فقد أبت سجاياهم الكريمة وأعراقهم الطيبة إلا ّ أن تجود بنفثات من الشعر والنثر ..

فإليهم أقدم تحيتي وثنائي وعلى رأسهم أستاذنا الشاعر الاديب يحيى بن علي البساري والاديب الشاعر عبد الرحمن بن محمد قاضي والاديب الشاعرأحمد يحيى بلبل والاستاذ عبد الوهاب المؤيد وشيخنا العلامة بقيـة السلف الصالح القاضي أحمد بن محمد الواسعي والاستاذ المحقق أحمد عبد الرزاق الرقيحي ... فهؤلاء هم أصحاب الفضل الاكبر في ظهور هذه الدراسة المتواضعة وإليهم أقدم جزيل شكري وتقديري .

عبد الله الحبشي

* * *

مجد الرسوليين

للشاعر أحمد يحيى بَبَل

أرياض جادها غيثُ السما   أم ضياء الصبح شق الظلما
لا ولكني أرى سِفراً به   أفرغ الفن البيان الملهما
فاض عذباً وجرى سلسله   ينضح الافكار خصباً ونما
ـرك الأرواح تشدو طرباً   ومضى ينفث فيها الهمما
أيهذا « الرائد » الفذّ الذي   ما حوى في المسك إلاّ القلما
أنت شمس أشرقت ساطعة   ترسل الضوء وتسدي أنعما
لك فكر صاغ في تاريخنا   كتباً غرّاء تحيي القيَما
نشرت مجد « الرسوليين » أبـ   ـناء « غسّان » الملوك العظما
من بهم يفتخر الدهر ومن   خدموا العلم وسنوا الشيَما
ينتمي المجد الى دولتهم   ويبـغي في ذراها القمما
فهي في « مأرب » رمز المجد قد   خلدت سداً يفوق الهرما
وبأرض « الشام » سادت دولة   لم تزل للباحثين العلما
وأقاموا في « تعز » دولة   تحفظ العهد وترعى الذمما
فإذا هم حيث صاروا قوة   تثبت العز وتحمي الحرما

* * *

هذه جائزتي

قصيدة
للشاعر يحيى علي البشاري

بكت الكأس بدمع العنب ... فاهتفوا يا سلوة المكتئب
هاجها الرمّان مزجا فنشت ... نفح ورد ألسق ملتهب
ذكرتني وهي ترمي شرراً ... بسيوف حدها من لهب
بشموس من بني غسان لم ... يكتحل مشرقها بالمغرب
هذه الكأس شعاع النصر في ... جبهة الفارس بعد الغلب
انها بنت العناقيد التي ... عرشت عنها « حياة الادب »
روضة يمتحنا ريّانها ... سكراً يجلو هموم المتعب
ولقد تنبعث « كأس » حملت ... دم عنقود شجون الحقب
كم حبيب نكهت عن نخوة ... منه كانت مطر المستوهب
حجبت عنا النوى عرفاته ... وأرانا عنه خلف الحجب
إنّ ذا البستان في طياته ... عجب ينبئنا عن عجب
بسمة أو دمعة من ضاحك ... جذل أو نائح مكتئب
رب روض حدرت أجفانه ... غيمة من دمعها المنسكب
غرنا نعوك فارتاح جوى ... سك أو عدت بدمع سرب
تلك أجفان حكت أمّاً بكت ... ولداً فارق أو ضحك أب
لك « عبد الله » شكري ما سرى ... لامع البرق برعد السحب
هذه جائزتي ضمنها ... لسق الدر قريض الذهب
فاجتل الخود عروسا برزت ... في سفور القمر المرتقب
حره بكراً اذا استطقتها ... نطقت بالسائغ المستعذب
واعف عن بالك شكت عبرته ... بين أهل عصبة المغترب
كم أراني أرقب الشمس كما ... يرقب العذراء شوق الاعزب
كيف غبت من دمي مشتعل ... بعدها لا ... انها لم تغب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للاستاذ القاضي العلامة
احمد عبد الواسع الواسعي لكتاب
(حياة الادب اليمني في عصر بني
رسول) كان نقله من خطه حرفيا.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

وانه لما اطلعت على ما ألفه الاديب العبقري العلامة البحاثه مفخرة العلماء قاطبة عبد الله بن محمد الحبشي[1] أبقاه الله ذخراً للادب وأهله وسرحت ناظري في حدائق ما سماه (حياة الادب اليمني في حياة بني رسول) علمت صحة مايقال إن في الزوايا لخبايا وإن في رجال أهل الكمال لبقايا . ولقد كان الحظ ساعدني قبل ذلك بالاطلاع على موسوعته الادبية الضخمة التي سماها بـ (مصادر الفكر الاسلامي في اليمن) وهي الموسوعة التي أبان فيها عن ذكاء نادر وألمعية فذة . لا ، بل أسفر عن ثروة ثقافية ضخمة . لا ، بل عن طاقة هائلة مخزونة في قلبه النابض وعقله الكبير . ولقد أراد أن يجعله متمما لتلك الموسوعة المذكورة آنفا أو ملحقا به . ومن يدري فان ما أودعه في هذا الملحق بالنسبة الى الملحق به ليس الا قطرة من وابل أو ومضة من نور باهر وتيقنت أن ذلك على حداثة سنه من فضل الله عليه الذي يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فاني كثيرا ما ألقاه صدفة إما في الطريق الى محل عمله أو الى المسجد أو في الدورة على عرفنا فأنتهز الفرصة بأن أفاتحه كمذاكرة علمية وأتعرض لذكر علامة أو أديب أو مؤلف قديما أو حديثا أو مؤرخ أو حادثة تاريخية أو دولة منقرضة فاذا به يتدفق من

---

(١) بكسر الحاء وسكون الباء نسبه الى حبش بوزن حبر .

معين لسانه بما يبهر السامع اذ يذكر عن ظهر قلب اسمه ومولـده وتاريخ وفاته ثم حياته كاملة ومؤلفاته ومراسلاته وما قاله وما قيل فيه من الاوصاف ثم يستطرد ذكر زملائه في عصره فأرى والله فيه العجب العجاب حتى يحيل الي أن عقله الكبير يحمل دائرة معارف أو مكتبة ضخمة الامر الذي جعلني أتمثل فيحقه بقول صاحب المقصورة المشهورة . (والناس ألف منهمو كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى) وأذكر أني زرته مرة في منزل له بالأجرة أو بعبارة أصح في كوخه المتواضع فوجدته منغمسا بين عشرات المجلدات المخطوطة وغيرها واقفا على ما فيها (وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه) لا تشذ عنه شاردة ولا تفوته شاذة إلا كتبها في كناشة[1] ووعاها هناك وفي اعتقادي انه ينطبق عليه تماما ما قاله ذلك الاعرابي للاصمعي بكلمته المشهورة وقد رآه يتنقل في أحياء العرب الخلص وبين خيامهم وقت التدوين الأول فما إن نطق أي أعرابي أو أعرابية بكلمة (إلا كتبها للتدوين فعجب منه الأعرابي وقال للاصمعي مخاطبا إياه (أنت شبيه الحفظة ، تكتب لفظ اللفظة) فقال الأصمعي وهذا أيضا منما يكتب فكتبه ، ولقد قال لي قائل من المعجبين به لو كان هذا الرجل في قطر آخر لحمل على الاكتاف ، ومن كريم طباعه مذكر له أحد المتوجعين له بسبب تجاهل أهل زمانه له فأجابه قائلا : حسبي خدمة وطني وخدمة أبناء جنسي ، ولقد جرى قلمي عند تحريري هذه السطور بديهة مسلئاً له ومنزلا له منزلة المخاطب وان كان غائبا بهذين البيتين :

(يا أديباً من فاق[2] كل أديـب	وسـما قـدره على الأقـران)
(غيظ من رام جحد فضلك عمداً	انك اليـوم لا يُرى لك ثاني)

وشكرا للاخ الأديب علي بن أحمد أبي الرجال على اهتمامه بالادب اليمني حيث اصبح مشجعا لأبنائه كما هو المعروف عنه ، أضف الى هذا أيها القارىء

(١) كناش جمع كناشة على وزن رمانة دفتر او ملف يدرج فيه الشوارد والفوائد عربي فصيح ، انظر كتب اللغة .

(٢) يقال فاق الشيء ولا يقال فاق على الشيء فهو فعل متعد فجعله لازما كما يكتبه بعض الكتاب غلط .

الكريم ما يمتاز به أديبنا النابعه بالصراحة الطاهرة والعمل بأمانة النقل كنموذج من العمل بقوله تعالى (إنّا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال) الى آخر الآيه[1] ..

وفي كتابه هذا خير شاهد على ما نقول ، ولقد أبان فيـــه عن علم واسع ومعرفة تامة بشواهد التواريخ العلميه والادبيه .

ولا قطيل عليك ، أيها القارىء الكريم ، فإليك هذا المنهل الصافي والموضوع الذي لم تسبقه فيه الأقلام شأنه فيه شأن كل أبحاثه ومؤلفاته . فكم أبان عن جديد واكتشف من مجهول حتى أصبحت كل الأبحاث التي أتت بعده ما هي إلا ترديد لصداه أو متممه لما ابتداه .. فتحية لهذا الأديب النابه وشـــكراً له على جهوده وأعماله .

أحمد بن عبد الواسع الواسعي

* * *

(١) بآخر سوره الاحزاب .

حياة الأدب اليمني

في

عصر بني رسول

عبد الله محمد الحبشي

تمهيد

يكثر في التاريخ اليمني انهيار الدول الكبيرة على أيدي دول ناشئة يكون أفرادها في الغالب من رجال تلك الدولة المنهارة . وهذا ماحدث فعلا في القرن الثالث الهجري عندما انتهى حكم العباسيين في اليمن على أيدي عمالهم من بني زياد وعندما انتهت هذه الدولة على أيدي خدمهم من بني نجاح في القرن الخامس الهجري •

ونفس الامر وقع عندما استأثر بالحكم بنو رسول وتأسيس دولة صنعه في اليمن على انقاض دولة الايوبيين وقد كانوا في بداية ولايتهم عمالا لهم في بعض المناطق اليمنيه ، على أن سقوط الدولة الايوبية قد مهد له عدة عوامل داخليه وخارجيه بل إن هذا السقوط كان أول العلامات لموت هذه الدولة الكبيرة واندثارها من مسرح الاحداث نهائيا وذلك بعد خروجهم من اليمن بنحو عشرين سنة فقط •

ومن أكثر الاسباب التي دعت الى خروجهم من اليمن تنافس أفراد البيت المالك من بني أيوب على مركز الزعامة في مصر وعدم انسجامهم مع طبيعة البلاد وهي اليمن التي يحكمونها • وقد صاحبهم نفور عام من أول حاكم لهم وهو توران شاه حتى آخر ملك منهم وهو السلطان المسعود • هذا مع بعد المسافة بين الدولة المركزيه الحاكمه في مصر وبلاد اليمن التي تختلف عن أرض مصر من حيث السكان والمناخ • ويرى الباحث المعاصر الدكتور محمد زغلول سلام أن من أسباب سقوط الدولة الايوبية بصفة عامة « تكالب الاعداء من الخارج في صورة الصليبيين وعناصر داخلية أسرعت في القضاء عليها ، منها . تورط

الأيوبيين أنفسهم في نزاع فيما بينهم وإهمالهم لشؤون الرعية وسوء معاملة مسالكهم الناس » الى غير ذلك[1] .

وكل ذلك أتاح الفرصة للامير الشاب عمر بن علي الرسولي بالاستئثار بالحكم واعلان مملكته في اليمن ودولة الايوبيين لاتزال قائمة في مصر والحجاز والشام . وكان الامير عمر بن علي الرسولي قبل اعلان تأسيس دولته قد تولى اليمن للملك المسعود واستخلفه هذا على سائر بلاد اليمن بعد رحلته الى الحجاز ثم صادف أن توفي الملك المسعود سنة ٦٢٦ هـ ، ولم يكن هناك من يخلفه من أفراد بيت آل أيوب في اليمن فاعلن الامير عمر بن علي الرسولي الحكم لنفسه فكان هذا التاريخ بداية ظهور الدولة الرسولية في اليمن ومكث بزبيد مدة من الوقت وطد فيها دعائم ملكه ، ثم رحل الى صنعاء وغيرها من البلاد اليمنيـــة ودانت له سائر البلاد .

أما الدولة الايوبيه المحصورة في مصر فإنها لم تقم بأي عمل مضاد ضد هذا الثائر عليها وكل ماقامت به هو ارسال جيش هزيل الى اليمن بقيادة أسد الدين بن جبريل ، سرعان ما انهزم في وجـه الجيش اليمني ، وتحول أكثر أفراده الى القائد الرسولي .

وبالملك المنصور عمر بن علي الرسولي تبتدي أشهر دوله عرفها تاريخ اليمن في عصوره القديمة والحديثه ، وقد اكتسبت شهرتهامن حيث الفترةالطويلة التي حكمت فيها وبتشجيعها للعلم والعلماء والاستقرار النسبي الذي شهدته البلاد في عهدها . أما نهاية الملك المنصور فقد كانت محزنة ، حيث كان قتله بأيدي جماعة من غلمانه وخدامه الموالين لمنافسه على الحكم الامير أسد الدين حسن بن رسـول وذلك سنة ٦٤٧ وعندما وصل الخبر الى ولده المظفر يوسف بن عمر الرسولي وكان بالمهجم ، تأهب لقتال ابن عمه واستطاع أن يستميل المماليك الى جانبه

---

(١) محمد زغلول سلام الادب العربي في العصر الايوبي ص ٤٧ .

والقبض على ابن عمه وزجه في سجن زبيد . وهذا أول انقلاب عسكري تشهده الدولة الرسولية . وسيتكرر في تاريخها بعد ذلك وقوع السرداب الطارئة من قبل الطامعين في الحكم من أفراد بيت آل رسول . وسيكون هذا سبب فتن كثيرة وقلاقل للامن كما سنذكره فيما بعد . الا أن حكم المظفر قد استمر فترة لم تعرف عن حاكم رسولي قبله ولابعده . فقد مكث في الحكم نحو نصف قرن من سنة ٦٤٧ الى سنة ٦٩٤ وازدهر عهده بالعمران الطاقي والمدني . وتوحدت البلاد اليمنية قاطبة تحت لوائه حتى وصلت أطراف مملكته الى عمان ودخل تحت حكمه قطر الحجاز ومكه . والملك المظفر هو أول من سن من ملوك الدولة الرسولية نظام ولاية العهد . وقد أعلن ذلك في حفل بهيج قال فيه : « أما بعد فقد ملكنا عليكم من لا تؤثر فيه دواعي التقرب على باعث التجريب ولا عاجل التخصيص على آجل التمحيص ولا ملازمة الهوى والإيثار على مداومة البلوى والاختبار .. » الخ[1] .

وقد توسع الخزرجي في أخبار دولة الملك المظفر وماحدث فيها من حوادث عسكرية واجتماعية .

وتوفي الملك المظفر سنه ٦٩٤ فخلفه في الحكم ابنه الملك الاشرف عمر بن يوسف وكان هادىء البال سليم النية ، وعندما علم أن أخاه المؤيد قد عارضه في الحكم جهز له ابنه الناصر فقضى على ثورته وهي في المهد . ويقال انه لما بلغه القبض على أخيه بكى بكاء شديداً ثم أمر به الى حصن تعز وأجرى عليه نفقة جيدة . ولم يستمر حكم الاشرف سوى سنتين ، وسرعان ما باغته الحمام سنة ٦٩٦ فتولى الحكم بعده أخوه الملك المؤيد داود بن يوسف عمر بطلب من ابن الاشرف الناصر والعادل ، وكان المؤيد مودعا في السجن في ذلك الوقت فأخرج وبويع له بالحكم بمحضر كبير من أعيان الدولة والعلماء ، وقد شهدت سنوات حكمه الاولى قيام أخيه الامير المظفر بن يوسف بالخلاف عليه ومنازعته فأودعه

---

(١) العقود اللؤلؤيه ج ١ ص ٢٧٤ .

السجن ثم أخرج عنه • ولا يخلو حكم المؤيد من بعض الاصلاح العمراني والزهي حيث إنه قام ببناء القصور الفخمة والمتنزهات الكبيرة[١] •• وساد حكمه فترة هدوء شامل •

وبعد وفاته سنة ٧٢٠ كان قيام ابنه المجاهد علي بن داود ليجد النفوس من أقاربه طامحة في الحكم مشرئبة اليه ولم تمض سوى سنة واحدة حتى يقوم أحد الثوار وهو ابن عمه المنصور أيوب بن يوسف بن عمر بالاستيلاء على الحكم وايداع المجاهد السجن لمدة ثلاثة أشهر ثم قام أحد مماليكه الموالين له باعادة الملك المجاهد الى كرسيه وطرد منافسه المنصور •

ومن المؤسف له حقا أن يكثر التنافس بين الامراء على الملك ويكون هذا سبب في إزهاق أرواح العديد من الناس بل إن الملك المجاهد قد قام بعد ذلك بعمل أهوج في سبيل الحفاظ على حكمه فاتصل بجماعة من العسكر المصريين من بقايا المماليك وطلب حضورهم الى اليمن سنة ٧٢٥ فدخلوا بعد أن عاثوا في البلاد فسادا وأشاعوا الخوف والنهب والسلب وكانوا يستولون على حاجاتهم بالنهب والاغتصاب حتى اضطر التجار الى اغلاق متاجرهم واخفاء بضائعهم • وفي عهد المجاهد كثرت ثورات القبائل التهامية على الدولة فقامت قبيلة المعازبة بانتفاضتها سنة ٧٣٠ • وفي سنة ٧٥١ خرج المجاهد الى مكة للمرة الثالثة وصادف في مكة العسكر المصري التابع لسلطان المماليك فحدث أن أشاعوا بينهم أن الملك المجاهد ينوي التمرد على صاحب مصر فأخذه العسكر المصري مقيدا الى مصر ومكث فيها عشرة أشهر ثم أفرج عنه وعاد الى اليمن وذلك سنة ٧٥٤ وحدثت بعد ذلك ثورة الامير محمد بن ميكائيل سنة ٧٦٣ قبل وفاة المجاهد بسنة واحدة ثم توفي المجاهد سنة ٧٦٤ بعدن فخلفه في الحكم ابنه الملك الافضل عباس بن علي ابن داود فكان أول ماقام به هو مطاردة فلول الثائر ابن ميكائيل حتى اضطره الى أن يتحصن بمدينة ذمار ، ثم تجددت ثورات القبائل ووقعت معارك بين الدولة

(١) العمري مسالك الابصار (ص ٥٧) •

وقبلتي المرشي والمعاربه وغيرهم . وقام الامام بمحاصرة زبيد مده أيام ثم انفصل عنها . وفي عهد المجاهد سادت فوضى القبائل وتوفي المجاهد بقصره بمدينه زبيد سنة ٧٧٨ فخلفه ولده الملك الاشرف الثاني اسماعيل ، وقد تجددت بينه وبين الامام معارك حدثت تحت صنعاء ، ثم قامت فيئة المعارب بتمرداتهـا المتمادة حتى كادت أن تأسر الملك الاشرف نفسه عند مدخل زبيد وتوجه الامام سنه ٧٩١ لغزو زبيد فحط في (رمع) وحاصر زبيد مده من الزمن ولم يدخلهـا وكانت وفاة الاشرف بذي عدينه سنة ٨٠٣ فتولى بعده الناصر أحمد بن اسماعيل وقد عرف عهده بالاضطراب وكثرة الفتن . وفي عهده حدث النزاع الشهير بين الفقهاء والصوفية كما فصلناه في كتابنا (الصوفية والفقهاء في اليمن) . وقام الناصر بعدة حملات عسكرية لتوطيد الامن . فغزا المعاطره سنه ٨٠٨ وغيرهمـا وقام حسين بن اسماعيل أحد اخوته بالتمرد عليه سنة ٨٢٢ فأودع السجن وكذلك أودع أخاه الآخر يحيى بن اسماعيل . وكانت وفاة الناصر سنة ٨٢٧ في حصن قوارير فحمل الى تعز . ومنذ وفاة الناصر يبتدي نجم الدولة الرسولية بالافول فخلفه في الحكم جماعة من الخلفاء الذين لاتستقر لهم الاوضاع . فبعد وفاة الناصر خلف في الحكم ولده عبد الله بن أحمد وتلقب بالمنصور . فلم يبت في الحكم سوى سنة واحدة .

ثم مات فتولى بعده أخوه اسماعيل بن أحمد وتلقب بالاشرف وكان صغير السن فلم يثبت لزعزعات السياسة وأزيح عن كرسيه بعد أشهر قلائل وتولى الحكم بعده يحيى بن اسماعيل وتلقب بالظاهر . وقد قام بالامر أتم قيام وساس الناس بحكمه الا أن شأن العبيد قد قوي في الدولة فقام بحملة تطهيرية ضدهم ونكل بجماعة من أعيانهم . وحدث في عهد الظاهر تمرد من قبل أخ له هـو عباس بن اسماعيل انتهى بالقتل وفي سنة ٨٣٩ اجتاح اليمن طاعون رهيب مات فيه خلق كثير وأبيدت قرى بأكملها ، ثم مات الظاهر في سنة ٨٤٢ فقام بعده ولده اسماعيل بن يحيى وتلقب بالاشرف ، وقد تكالب عليه رؤساء القبائل وخاصة

عرب تهامة فوقعت بينه وبينهم عدة معارك حتى دبر الملك الاشرف حيلة للتخلص منهم أشبه ماتكون بتلك التي دبرها محمد علي للتخلص من المماليك ، فقد استدعى رؤساء القبائل سنة ٨٤٤ الى وليمة كبيرة فلما أخذوا مجالسهم ليأكلوا انهال عليهم جنده بالسيوف فضرب في السماط من رؤسائهم نحو أربعين شيخا ثم توفي الاشرف سنه ٨٤٥ فخلفه أخوه المظفر يوسف بن المنصور ، وقد استفحل شأن العبيد وأصبحوا يحكمون في الدولة وولّوا الحكم شخصا يدعى محمد بن اسماعيل بن عثمان من آل رسول وقوي شأنه بهم حتى استدعى الملك المظفر عامله الامير علي بن طاهر للتخلص من منافسه فاستطاع القبض عليه وأودعه سجن تعز ٠ وما زال العبيد في تمرداتهم ومالوا الى نهب أموال زبيد وغلاتها ثم انحدروا الى (حيس) وكان فيها أحد أمراء آل رسول مسجونا وهو أحمد بن العباس فأفرجوا عنه وولوه الملك فعاد الى زبيد وأمر العبيد بنهب المدينة وازداد الهرج والفوضى حتى لقب بعد ذلك بالامير الجائر ، ثم مال عنه الجند الى شخص آخر من آل رسول هو المسعود الذي ختمت به الدولة الرسولية وولوه الحكم سنة ٨٤٧ والدولة الرسولية تحتضر فلم يمكث في الملك سوى سنوات قليله حتى قام عمال الدوله الرسوليه بنو طاهر بالانتفاضة على سادتهم وتمكنوا من القضاء على الدولة الرسولية سنة ٨٥٨ ٠

وكما كان انقضاء الدولة الايوبية على أيدي عمالهم بني رسول كذلك ماتت هذه الدوله على أيدي عمالهم بني طاهر ومن المصادفات العجيبه أن آخر ملك في الدولة الرسولية يسمى المسعود وكذلك آخر ملك من ملوك الدولة الأيوبيه يسمى المسعود أيضا ٠٠ فلست أدري اذا كان هذا السعد هو نحس عليهم وسعد لخصومهم أم الأمر بالعكس ٠

* * *

الدولة الرسولية بين يدي التاريخ

أسس ملوك بني رسول دولة وراثية تعتمد على ولاية العهد ، فكان هذا أحد العوامل التي ساعدت على انتحارها حيث ورطت الناس في معارك طاحنة أتت من قبل المتنافسين على الحكم في حين كان الاستكثار من المماليك واستقدامهم من خارج البلاد عاملا آخر في الفت في عضد الدولة واضفاء الصبغة الاجنبية لدولة بني رسول .

وقد كان على الدولة الرسولية أن تستفيد من الدرس الذي تركته الدولة الايوبية في اليمن . حيث تلاشى شأنهم بسبب الاعتماد على قوى أجنبية . الا أن مؤسس الدولة الرسولية عمر بن علي الرسولي كان لايزال مشبعا بالفكرة الايوبية اذ كان هو نفسه أحد القادمين الى اليمن ، وقد كان على منهج أسلافه في الاعتماد على غير القوى الوطنية . وعلى هذا السنن سار كل من أتى من بعده من الملوك حتى أصبح استقدام الغرباء الى اليمن علامة خاصة بالدولة الرسولية . وفي هذا الصدد يقول العمري إذ : « صاحب اليمن أبدا يرغب في الغرباء ويحسن تلقيهم غاية الاحسان ويستخدمهم فيما يناسب كلا منهم»[1] . وأفرطت الدولة في ذلك حتى أصبح أعداؤها يطلقون عليهم دولة التركمان ولم يغن عنهم قولهم في الانتساب الى الغساسنة اليمنيين . ولو أنهم ركنوا الى الشعب في تأييد حكمهم لمكثت دولتهم أكبر قدر ممكن من الزمن .

وقد حملت أخلاق ملوك بني رسول جانبا آخر من العادات والتقاليد المستوردة كان لها أثرها الفعال في تطعيم الدولة الرسولية بعادات وأخلاق جديدة لم يكن للبلاد عهد بها من قبل فقد تشبه أولا ملوك الدولة الرسولية بملوك مصر من

(١) العمري مسالك الابصار ص ٤٧ .

المدمنات المعاصرين لهم وحرصوا ـ كما هي العادة عند أولئك الملوك ـ على شهواتهم وملاذهم حتى أصبحت « أوقاتهم مقصورة على لذاتهم والخلوة مع حظاياهم وخاصتهم من الندماء والمطربين ولا يكاد السلطان يرى بل ولا يسمع أحدا من أهل اليمن له على الحقيقة خبرا »(١) . في حين ولع أكثر ملوكهم بشرب الخمر وتجاهروا به منذ ملكهم الاول المنصور بن علي الذي « جاهر بشرب الخمر والسكر في ديوانه حتى كان يعقد لمجلس الشراب يوما معلوما »(٢) وهذا أمر كبير في اليمن لم يكن لأهله عهد به من قبل .

أما خلفاؤهم فهم نسيج مختلف من خدمهم في حين أصبح شأن الدولة متوقفا على أهوائهم فيعزلون من أرادوا ، ويولون من أرادوا ، وقد كثرت الوشايات والمصادرات بسبب ذلك وعمت الدسيسة بين الوزراء والرؤساء حتى حمل الهوى بعض ملوكهم الى أن يصادر أحد وزرائه ليحظى بزوجته(٣) .

على أن الفرص كانت مواتية للدولة الرسولية في تأسيس دولة نظامية صحيحة ترفع من شأن اليمن بين الاقطار المجاورة وتطل برأسها على العالم الخارجي بعد أن كانت مغلقة على نفسها ردحا من الزمن ؛ وقد نشطت السياسة الخارجية في ذلك الوقت وتوالت الوفود من قبل الحكومات القريبة والبعيدة تطلب ود المملكة اليمنية فجاءت رسل ملك الحجاز ومصر وبغداد والهند حتى انتهى الامر إلى أن يبعث ملك الصين سفرائه إلى ملك اليمن يوصيه بالرفق في رعيته(٤) .

وكانت مصر من أكثر الدول صلة باليمن ومنذ انفصال اليمن عن الدولة المركزية في مصر في عهد بني أيوب توترت العلاقات بينهما في أول الامر الا أنها سرعان ما عادت الامور الى مجاريها بعد ذلك ويزعم العمري أن ملك اليمن يتقرب الى

---

(١) المصدر السابق ص ٥٦ .
(٢) يحيى بن الحسين انباء الزمن (مخطوط) .
(٣) ابن الديبع قرة العيون ج ٢ ص ١٢٩ .
(٤) يحيى بن الحسين غاية الاماني ص ٥٦٥ .

صاحب مصر بالمهاداة حتى لا يتسلط عليه من جهة البر والبحر [1] وهذا يبعد عن الواقع لأن في مصر في ذلك الوقت ما يجعلها تحجم عن التفكير في غزو اليمن. وغالبا ما التجأت اليمن الى مصر للاستعانة بها في بعض الشؤون الادارية والعسكرية وكتب ملك اليمن المظفر الى السلطان بيبرس يطلب منه أن يمده بجماعة من الاطباء وربما بعث الملك المؤيد الى مصر من يجلب له عن المخطوطات النفيسة فيكافيء عليها بمئات الدنانير [2] . وكانت أغلب هدايا ملك اليمن الى صاحب مصر من التحف الثمينة من المصنوعات على اختلاف أنواعها كالطشوت والاباريق والمجامر وسواري العود والصندل والقطع الكبار من العنبر والمسك والفخار الصيني والزبادي الى غير ذلك [3] وقد احتفلت مدينة زبيد احتفالا كبيرا عندما علمت بانتصار المصريين سنة ٧٠٣ على التتار شرح ذلك « ودقت الطبول وأعلن السرور والبشائر وخرج أعيان الدولة الرسولية بأسرهم من الوزراء المتقدمين يلقون البشير المصري » [4] . وقال الاديب اليمني ادريس ابن علي مشيرا الى هذه المناسبة :

لم تأتك الرسل من مصر وساكنها الا مؤديه حقا لكم يجب

اما الهند فتأتي في الدرجة الثانية بعد مصر في علاقتها مع اليمن . وكان ملك الهند يجل اليمن ويعبر عن ذلك الاجلال بالعديد من الرسل والهدايا . ففي سنة ٧٧٠ هـ بعث صاحب « كالكوت » بهدية فخمة عبارة عن طيور غريبة وأشجار لم تكن توجد في اليمن وفي سنة ٧٩٥ بعث برسالة الى ملك اليمن يشرح فيها تقديره واحترامه ويعلمه بذكر اسمه على منابر الهند في خطبة الجمعة .

وهكذا كانت العلاقات حسنة للغاية بين اليمن وجاراتها ، وقد زادها توثقا التجارة الجارية بين الهند ومصر واليمن وانفتاح موانيء اليمن لاستقبال التجار

---

(١) العمري مسالك الابصار ص ٤٧ .
(٢) ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٠٠ .
(٣) العقود اللؤلؤية ج ١ ص
(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٨ .

على مختلف أجناسهم حتى أصبحت البلاد مقصدا لكل مرتاد ورحالة.

وعلى المستوى الداخلي فقد شهدت البلاد نهضة عمرانية ضخمة لم تعرفها اليمن في عصر من عصورها السابقة حيث أسست المرافق العامه والمدارس الكبيرة والقصور الفخمه التي يقف عند عظمتها ملوك مصر وغيرهم من الملوك المعاصرين للدوله الرسوليه ومن أهم هذه القصور التي أنشأتها الدولة الرسولية قصر « المعقلي » الذي يقول في وصفه أحد من شاهده « أجمع أرباب الاسفار في الآفاق انه لا مثيل له في شام ولا عراق وانهم لم يشاهدوا مثله أبدا وهو مجلس طوله خمسة وعشرون ذراعا بسقفين مذهبين بغير أعمدة وله أربعة مناظر بأربعة رواشن ليس فيه الا رخام وذهب وأمامه بركة طولها مائة ذراع في عرض خمسين ذراعا على حافتها تماثيل طيور ووحوش من نحاس ترمى الماء من أفواهها .. الخ .» وصف الخزرجي[1] .

وهذا القصر واحد من عدة قصور كبيره اعتنت الدولة الرسولية باشادتها حتى بلغ مجموع ما أنشأته من العمائر نحو مائتين وثلاثين موضعا[2] .

أما السبل الخيريه والصدقات فهي كثيرة جدا وقد أفردت الدولة لضيافة الغرباء وغيرهم بيوتا خاصة تعنى باستقبال الضيوف كالدار الذي أنشأها المظفر لاطعام الواردين ، وكان مجموع مايطبخ فيه كل يوم قدر حمل جمل من الطعام هذا عدا اللحم والتمر[3] .

* * *

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٧٧ .
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٤ .
(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٦ .

الادارة الحكومية

كانت حكومة بني رسول تقتفي في أسلوبها النمط المملوكي في مصر ، ولا يزال ملك اليمن يحذو في أموره حذو صاحب مصر يسمع أخباره ويحذو اقتفاء آثاره في أحواله وأوضاع دولته[1] » وتلك عبارة العمري نستشف منها مغزى تاريخيا كبيرا حيث يظهر لنا جليا أن ملوك بني رسول قد حملوا معهم أنماطا جديدة جلبوها معهم من مجتمعاتهم الاولى مصر والشام والعراق فهم دائما يحنون الى تلك العادات ويستظهرون ماجد منها في مناطقها الرئيسية ، وقد اعتمدوا في أول أمرهم على الخبرات العربية القادمة من خارج اليمن وقد وصل اليهم جمع كبير من كتاب الدواوين والخبراء في الشؤون الاداريه والعسكريه ومن هؤلاء الذين كان لقدومهم أثر فعال الخبير العسكري علاء الدين كشتغدي القادم الى اليمن سنة ٧٢٨ ذكر عنه ابن عبد المجيد انه « رتب الجيش اليمني على قاعدة الجيوش المصرية »[2] . وهذا نموذج واحد من عدة نماذج .

وقد أدخلت طرق جديدة على الادارة الحكومية وخصصت لها الوظائف والمكاتب العديدة التي لم تكن معروفة من قبل ، وقد قارن المؤرخ العمري في القرن الثامن الهجري بين الاداره المملوكية في مصر والادارة الرسولية في اليمن فلم يجد هناك اختلافا كبيرا .

ومن الوظائف التي عرفتها الحكومه الرسولية وظيفة كاتب الانشاء وهي وظيفه هامه تقلدها جماعة من كبار الأدباء والكتاب كالأديب تاج الدين عبد

(١) العمري مسالك الابصار ص ٤٧ .

(٢) ابن عبد المجيد اليماني بهجة الزمن ص ١٣٦ .

الباقي بن عبد المجيد اليمني وابن قمينه وعيرهما وكان الملك الرسولي اذا عناه أمر لمكتبة طلب الكتاب وأملى عليهم مضامين مايحتاجه ثم يقوم الكاتب بصبغه انشائيا وليس بأيدينا نموذج مما كان يدونه كتاب الانشاء في ذلك الوقت سوى نص واحد ذكره صاحب صبح الأعشى وسنشير اليه فيما بعد •

وقد احتفظت لنا كتب تاريخ بتراجم العديد من أولئك الكتاب فكان أعلبهم من القادمين الى اليمن كالكاتب الادب أبو مظفر موسى بن الحسين المصري المتوفى في سنة ٦٩٩ يصفه الجندي[1] بأنه « من كرام الناس بحيث لم يكن فيمن وصل من مصر يشابهه في الغالب علما وأدبا• وجاء معه من مصر كاتب الانشاء الاديب ناصح الدين المنتجي وهو كسابقه من حيث الخبرة في حسن الانشاء وقد ترك مصنفا حافلا ضمنه •• قواعد الدواوين السمنة ونظام الضرائب والرسوم ومن الكتاب في ذلك العصر الادب تاج الدين بن عبد الباقي السابق الآتي ذكره ان شاء الله ، ومعاصره أبو محمد الحسن بن نصر بن مختار الدوله القادم الى اليمن في عهد المجاهد وعيره كثيرون تركناهم لأجل الاختصار وأغلبهم من مصر وقد رسخوا في اليمن قواعد كتابة الانشاء وقواعدها حتى أصبح يتعاطاها جماعه من أساطين الادب في اليمن ومن طريف مايروى عن كتابة الانشاء في العصر الرسولي ان الملك المظفر بعث برسالة الى الحبوظي سلطان ظفار يهدده بالغزو واستشهد في آخر الرسالة بقوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامده وهي تمر مر السحاب) الآية ، فجاء كتاب الحبوظي بجواب شاف وفي آخرها قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا) [2]• وهذه الوظيفه قدمنا ذكرها لصلتها بما نحن بصدده من تاريخ الادب اليمني •

ويعدد العمري الوظائف الحكومية في عصر بني رسول فيحصرها في سبع

---

(١) الجندي السلوك ص ٣٦٣ (مخطوطه كوبرلى) •

(٢) بامخرمة تاريخ ثغر عدن ص ٢١٠ •

وظائف هي : وظيفه النائب والوزير والحاجب وكاتب السر وكاتب الجيش ووظيفه ديوان المال وشاد الولايه[1] وهي وظائف مختلفه . فأما وظيفه النائب فهي درجه كبيره وغالبا ما يتولاها أحد كبار القادة العسكريين أو بعض أقارب السلطان وعمله يتعدى كل اختصاصات السلطان الرسمية كالتوقيع على الاحكام وغيرها وكان يتولى هذا المنصب الهام في عهد المؤيد جمال الدين يوسف بن يعقوب بن الجواد وفي عهد المجاهد تولاه الامير عز الدين هبة بن محمد بن منصور . وتليها في الدرجة مباشرة وظيفة الوزارة وبعضهم يخلط بينها وبين النيابة الا أنهم في اليمن قد جمعوا بينها وبين منصب القضاء العام فخلطوا بين الحكم المدني والحكم الشرعي كما حدث في مصر عندما ولي القاضي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن بنت الاعز منصب القضاء والوزارة في وقت واحد خلال القرن السابع الهجري وأول من جمع بين هذين المنصبين في اليمن الوزير القاضي بهاء الدين محمد بن أسعد العمراني المتوفى سنة ٦٩٥ . يقول الخزرجي : « هو أول من جمع له الوزارة والقضاء باليمن في الدولة المظفرية وبعده القاضي موفق الدين علي بن محمد اليحيوي في الدوله المؤيدية والمجاهدية ثم القاضي وجيه الدين عبدالرحمن ابن علي بن عباس في الدولة الاشرفية »[2] ويذكر الجندي أن الناس كانوا ينقمون القاضي بهاء الدين العمراني لجمعه بين هذين المنصبين[3] وما ترتب عليه من مفاسد وهذا الامر لم يحدث إلا في زمن المظفر وذلك لاقتناعه بكفاءه وزيره أو لأنه أراد أن يقلد حكومة مصر في ذلك الوقت بتولية قاضيها ابن الأعز الوزاره وكان هذا الوزير معاصرا للمظفر حيث توفي قبله بسنة واحدة[4] . أما في عهد والده المنصور فقد كانت الوزاره مستقلة عن القضاء وكان يتولى الوزارة في عهده القاضي الرشيد ذو النون المصري المتوفى سنة ٦٦٣ هـ وهو من بقايا رجال الدولة الايوبية

---

(١) مسالك الابصار ص ٤٩ .

(٢) الخزرجي طراز أعلام الزمن ج ص ١٧٩ مكتبة كيمبج كولنيج بلندن .

(٣) الجندي السلوك ص ٤٦٢ .

(٤) الاعلام للزركلي ج ٤ ص ٨٨

فى اليمن وقد وصلها بصحبة الملك المسعود[1] ، ثم انفصلت الوزارة عن القضاء في أوائل القرن السابع بعد نكبة القضاة بني العمراني الشهيرة في كتب التاريخ اليمني وهي حادثة تذكرنا بتلك التي وقعت للبرامكة في عهد الرشيد وسببها أن الوزير حسان بن أسعد العمراني اتهم بدس السم للملك المؤيد بواسطة أحد عبيده فأمر المؤيد بسجنه مع أفراد جماعته من بني العمراني بعد أن طالبهم بحساب أموال اليتامى وغلل الموقوفات خلال نظرهم في القضاء ولما لم يجيبوه بشيء أمر بهم الى عدن وبني لهم سجنا على باب دار الولاية . وكان القاضي حسان قد صودر سعر مصادرة شديدة وضرب ضربا مبرحا هو وابن أخيه عمران بن عبد الله ابن أسعد حتى شفعت فيهم بنت أسد الدين زوجة المؤيد فأقاموا بتعز أياما ثم سكنوا سهفنه بعد أن رهن عبد الله بن أسعد ابنه عمران ورهن حسان بن أسعد ابنه محمد وبعد وفاة بنت أسد الدين قام المؤيد المجاهد بمصادرتهم مرة أخرى وقبض عليهم وهم في سهفنه وانزلوا الى عدن فطرحوا في سجن ضيق قد أحدثه لأجلهم ليس فيه نفس أبدا فأقاموا فيه ثلاث سنين وأربعة أشهر توفى خلالها القاضي حسان بن أسعد العمراني سنة ٧٠٨ هـ حتى قدمت أخت المؤيد من ظفار وشفعت لهم عنده فأمر باطلاقهم من السجن على أن لا يخرجوا من عدن[2] . فهذا خبر مصادرة القضاة بني العمراني ذكرناه لصلته بموضوع الوزارة الذي نتحدث عنه هنا .

والوزارة منصب هام في الدولة الرسولية له تقاليده الخاصة كرفع الدولة وعقد الطيلسان وركوب البغلة ذات الزنار[3] الى غير ذلك . ولا يكون توليها إلا بمنشور رسمي يقرى في (دار الصيف) أحد الدوائر الرسمية للدولة وهذا يدل

(١) تاريخ ثغر عدن ص ٧٧

(٢) أنظر تفاصيل نكبة القضاة بني العمراني في السلوك ص ٤٤٢ وبهجة الزمن ص ١٠٤ .

(٣) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٤٢٥ .

على أهميه هذا المنصب كما أسلفت[1] . وهناك وظائف حكوميه أخرى لا تقل خطوره عن درجة النيابه والوزاره كأتابكيه العسكر وكان يتولاها في عهد المجاهد الشرف بن جاحر الى غير ذلك من مناصب حكومية حفلت بها الدولهالرسوليه[2] .

أما الوظائف الاداريه فقد مر بنا منصب كتابة الانشاء وبعده تأتي في الاهمية مناصب العمال وولاة المخاليف ويطلق عليهم الشداد وهؤلاء الشداد هم أكثر رجال الدولة اتصالا بالشعب وربما قسا بعضهم على المزارعين وتأذت منهم الرعية فكتب أحدهم الى السلطان في أمر ذلك الوالي . وقد حدثنا الجندي في أكثر من موضع من تاريخه عن قسوة أولئك الشداد وأذيتهم وقد أرسل أحد الشداد عسكره الى الفقيه الصوفي بدر بن أحمد الغيثي لأخذ ما عليه من ضرائب

---

(١) وقد حدثنا صاحب تاريخ الدوله الرسوليه المجهول الكثير عن هؤلاء الوزراء وذكر منهم جمال الدين محمد بن حسان . تولى الوزارة سنه ٧٦٤ وتوفي سنه ٧٧٣ (انظر تاريخ الدولة الرسوليه ص ٢٨) .
ومنهم وجيه الدين النظاري وزير الدولة الاشرفيه (المصدر نفسه ص ٤٠) .
ومنهم وجيه الدين عبد الرحمن بن عباس تولى الوزارة سنه ٧٨٧ ووفاته سنه ٧٩٠ (أنظر المصدر السابق ص ٤٣ و ٤٧) .
ومنهم أحمد بن عمر بن معبد (المصدر نفسه ص ٩٩) .
ومنهم جمال الدين بن محمد بن أبي بكر بن اسحاق توفي سنه ٨٣٣ .
ومنهم وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن جميع (المصدر نفسه ص ١٤٢) .
ومنهم أحمد بن ابراهيم المحالبي توفي سنه ٨٣٥ (ص١٧٨) .
ومنهم يوسف بن أحمد العراف تولى الوزاره سنة ٨٢٨ (ص ١٧٦) .
وقد أخضع الظاهر الملك كافة موظفي الدوله لهذا الوزير بمنشور أصدره سنه٨٣٨ يقول صاحب التاريخ المجهول ص ١٧٦ «ورد المرسوم العالي على كافه القضاةوالعمال والمشدين والكتابوسائر الجند المنصور بالبابالشريف بأن يمشوا فيخدمه مولانا صدر الوزراء شمس الدين يوسف بن أحمد العراف من الباب الشريف الى بيته ثم أمر مولانا السلطان ان يكتب منشورا ويقرى على سائر المنابر بأنه وزير الوزراء والمقلد لأمر الدولة والدواوين جميعا في أعمال اليمن وأن يرفع الناس حوائجهمإليه وكساه السلطان نصره الله وأنعم عليه وذلك نهار الخميس ١٢ ذي القعدة سنة ٨٣٨ » .
فنفهم من هذا النص القيم كافة سلطات الوزير في الدولة الرسولية .

(٢) ومنها أنهم قسموا الجند الى عده أقسام كقسم سمي عبيد السلاح (انظر المصدر السابق ص ٨٧) . وقسم سمي عبيد الحلقة (نفسه ص ٨٤) وعبيد الطوى (نفسه ص ٨٧) والسقاسف ص ٩٢ . وأغلب هؤلاء طوائف منفردة من الجند تكون أفرادهم من الاحباش .

فوجدوه في مزرعته يحرث أرضه فجرى بينه وبينهم منازعة انتهت بقتله[1].

ونادرا مايتفقد السلاطين أحوال الشعب ويبعدون عنهم حيف الولاة والعمال وربما تحكم عامل صغير في رقاب مجموعة من الفلاحين وفرض عليهم ضرائب لم تأمر بها الدولة . وكان الملك المظفر « اذا اشتكى اليه أهل جهة عاملا من العمال أو كاتب من الكتاب عزله عنهم ولا يعيده . وهذا الملك نادرا مايتكرر وجوده في الدولة الرسولية وقد بلغ من تحريه انه اذا وجد خراج جهة من الجهات زاد عن المعتاد سأل عن سبب ذلك فاذا كانت الزيادة من وسيلة ابتدعها العامل أدبه أدبا بليغا وصرفه عن ولايته »[2] .

وربما طلب عمال الدولة الرسولية من الفلاح المسكين أن يدفع في أوقات الغلاء وارتفاع الاسعار نفس المقرر الذي كان يدفعه في أيام الرخاء وهذا ماحدث سنة ٧٣٦ حتى تركت الرعية وادي زبيد وتفرقوا في أنحاء اليمن ووصل الخبر الى الملك المجاهد فطلب حضور جماعة من أعيان المزارعين وسألهم عن سبب هروبهم فقالوا : « انا نشكو من سعر ذي الحجة فقال السلطان وما سعر ذي الحجة قالوا صرنا نطالب بما يتوجب علينا للدولة من كل محصول في وقت الضرائب ووقت رخص الاسعار ولكنهم يطلبون سعر السنة الماضية وقت ارتفاع الاسعار وقلة الطعام فلا يأتي المد الا بعدة أمداد كثيرة والذي يجب علينا للدولة انما هو طعام من نفس مازرعناه أو ثمنه فهذا الامر الذي أضر بنا . فقال السلطان هذا

---

(١) السرجي طبقات الخواص ص ٤٤ والاهدل تحفة الزمن ج ٢ ص ٨٥ (مخطوط) . وما دمنا بصدد الحديث عن الشداد فلا بد أن نشير الى بعض اسماء هذا المنصب واسماء ولاته فقد ذكر صاحب التاريخ المجهول أسماء عدة منهم :
شد المحالل السعيدة تولاه عبد الرحمن العلام سنة ٧٩٣ (نفسه ص ٥٣) .
وتولاه القاضي رضي الدين أبو بكر أحمد بن معيبد (نفسه ص ٦٩) .
ومنهم شد المسدس تولاه شرف الدين اسماعيل بن عبد الرحمن العلوي سنة ٨٠٨ .
ومنهم شد زبيد . تولاه احمد بن ابراهيم المحالبي سنة ٨٣٢ (نفسه ١٢١) .
ومنهم شد المهجم تولاه جماعة منهم جمال الدين الطيب بن مكاوش (ص١٢٦) .
ومنهم شد لحج تولاه وجيه الدين عبد الرحمن بن اسحاق سنة ٨٣٧ .
(٢) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٧٨ .

والله ظلم بيّن ولا لوم عليكم إذا هربتم »[1] ثم أمر بكتابة منشور يلزم إنصاف الفلاحين • على أن الضرائب على الفلاحين في العصر الرسولي لا تخضع لقاعدة واحدة وربما ألغى الحاكم الجديد ما سنه الحاكم السابق • ففي عهد السلطان الافضل سن ضريبة خاصة على « العطب » القطن فيأتي الاشرف ويبطلها[2] وربما تزيد بعض الضرائب على أهل منطقة معينة وتسقط عن منطقة أخرى حسب هوى الملك كما فعل الاشرف سنة ٧٨٤ عندما حط الضرائب على أهل جهات « المأوى وابقرين والريان ونابط ومبرح والنفض والبداني »[3] وهي جهات في وادي زبيد وكذلك فعل مع أهل صبر

وقد وضع أحد علماء الدولة الرسولية[4] كتابا مستقلا في ضرائب الدولة الرسولية والاماكن التي تؤخذ منها الجبايات ومن خلال فصوله يتضح لنا أن الدولة الرسولية كانت تقسم المناطق التي تؤخذ منها الضرائب الى أقسام هي:

١ ـ قسم البلاد الجبلية وتحتوي على جهتين :

أ الجهة الاولى وهي الجبل الاعلى وتسمى البلاد العليا وهي طولا من شرقي حضرموت الى بلاد الطويلة وشرق ملحان غربان وعرضا من حمل قتاب جنوبا الى بلد بيشه • وفي هذا الكتاب مبلغ ما يأتي من خراجها •

ب ـ الجهة الثانية وهي المعروفة باليمن الاخضر وهي مدورة الشكل وله من الاعمال الجهة اليحصبية وريمان وبني سيف وبني شرحة الخ ••

٢ ـ القسم الثاني البلاد السهلية وهي تهمه وتوابعها •

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٦ •
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٢ •
(٣) المصدر السابق ج ٢ ١٧٤ •
(٤) هو الحسن بن علي الحسيني أحد كتاب الدولة الرسولية وكتابه يسمى (ملخص الفطن والالباب ومصباح الهدى للكتاب) يبحث حول نظام الضرائب والادارة في الدولة الرسولية وقد عثر على مخطوطته الوحيدة في اليمن وهي محفوظة بمكتبة ميلانو بايطاليا •

٣ ـ القسم الثالث البلاد الساحلية والتي توجد فيها الموانيء •

وقد استعان الشداد في أخذ الجبايات بنظام الاحصاء بغية الحصول على ضرائب شامله دقيقه وقد سن هذا النظام الملك الاشرف فكان يبعث كل سنه جماعة من الفقهاء يقومون بعد النخل بزبيد ومن بعده سار على هذه الطريقة كل من تلاه من الملوك ففي سنة ٧٧٩ أرسل الملك الاشرف الثاني من يقوم باحصاء النخل وكانوا في الغالب يقتصرون على احصاء النخل لان هذا النوع من الاشجار يتجدد من حين لآخر رد على ذلك أن النخل كان هو السمة الجيدة في مجتمع زبيد وقد حمل تقصي العداد للنخـل ومضايقاتهم الزراع الى أن يتلف بعضهم نخله تجنبا لشرهم •

وقد حمل لنا الادب اليمني صورا متعددة من تذمر الناس من أولئك الشداد فهذا الصوفي الكبير أحمد بن علوان يبعث برسالة حامية الى الملك المظفر يستنكر فيها استحداثه تلك الضرائب التي لم يأمر بها ديننـا الحنيف ويقول في آخرها شعـــراً :

هذي تهامه لا دينـار عندهم ولحجج أبين بل صنعاء بل عدن
فما ذنوب مساكين الجبال وهم جيران بيتك في الاخلاق والسكن
والاضعفون فما يقتات أجزلهم الا بما جرت المسحاة والحجن
فانظـر اليهم فعـين الله ناظرة هم الامانة والسـلطان مؤتمن
عار عليك عمـارات متـيدة وللرعـيـه دور كلهـا دمـن
لا تفخرن بجمع المال كيف أتى حاشاه عقلك عقـل راجح زمن

أما ابن المقري فانه يبعث بقصيدة الى الملك الناصر أحمـد بن اسماعيل يشكو على لسان أهل زبيد منشداً قال له ابن الزنبول :

هم الرعايا العبيد الطائعون هم وأنـت أنت المطاع السيد الملك
فلا تكلهم الى من ليس يرحمهم ولا يـرى هلكهم أمرا به درك

وكتب مرة أخرى على لسان أهل تعج يشكو فيها من أحد العمال :

رعيه لست في لحسج بصرت بهم	لهم وجـوه تقاها ظاهر فيهـا
تندى حيـاء وتحميها سكينتها	عن التكلم فيمن لبس يعنيهـا
يشكون من كاتب يعري يسلبهم	نعمـاء أنت بحمـد الله كاسيها

وما دمنا بصدد الحديث عن وظائف الدولة فلا بد أن نقف عند القضاء وهو درجة عالية من الوظائف الحكومية تأتي في الاهمية بعد الوزارة وقد جمع بعضهم بينهما لعظم المنصبين . وقد كان القضاء في اليمن هو الواسطة الوحيـدة بين جماعة الفقهـاء ورجال الدولة وغالبـا ما كانوا يتورعون عن مخالطة الحكام والامراء لأسباب تعود الى سلوك أولئك الناس من التهون في أمور الدين وظلم الناس حتى أن الجندي مع انخراطه في سلك وظائف الدولة نجده يحرص كل الحرص على عدم مخالطة الأمراء واصحاب الدواوين وربما وصفهم بشـرب المسكر وعدم المبالاة بحقوق الناس وهذا عام في سائر الفقهاء والعلماء المعاصرين للجندي في القرن السابع .

ولما كان القضاء له صلة وثيقة بالدولة كان من الصعوبة بمكان أن تحصل الدولة على فقهاء يتولون هـذا المنصـب الهام إذ الصـفوة منهم لاتكـاد تستجيب لمطالب الدولة في تولي هذا المنصب الهام حتى ان كثـيرا من الفقهاء أكره على تولي هذا المنصب والبعض منهم هرب من البلاد خوفا من تكليفه بهذا العمل . . بل بلغ التورع ببعضهم أن آثر السجن على تولي القضـاء[1] والذين تولوا القضاء كانوا على حذر كبير حتى انهم اعتبروا هذا المنصب من المحـن الكبيرة التي أصيبوا بها ولهذا نجد الكثير منهم قد وقعوا تحـت أعباء ديون باهضة نتيجة التحـري في ارجاع الاموال لأصحابها والتدقيـق في القضـايا الوراثية[2] . وكان من أكبر الفقهاء الذين تولوا هذا المنصـب الخطير الفقيه

(١) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٧٠ .
(٢) السلوك ص ٢٨٠ .

العلامة اسماعيل بن محمد الحضرمي وكان الملك المظفر قد ولاه القضاء العام فقام بذلك أتم قيام وكان لايولي أحدا القضاء في المناطق الا من تحقق صلاحه وورعه • ويقال أنه عزل نفسه عن القضاء لما رأى الملك المظفر تساهل في إبطال الخمور وكان دائما مايكتب الى المظفر في خزف شقف (يا يوسف كثر شاكوك مقل شاكروك فإما عدلت وإلا انفصلت)[1] • ومن شده تحريه أنه وجد عند أحد من ولاه القضاء ثيابا فاخره وأشياء لم يكن يعهدها عنه من قبل فسأله عن ذلك فقال هذا من بركاتك يا أبا الذبيح فقال ذبحني الله ان لم أعزلك • فعزله واعتزل عن القضاء خلافا للروايه السابقة •

وقد قام القضاء في اليمن كهيئة مستقلة ليس للدولة دخل فيها الا من خلال تطبيق الاحكام • وربما حدثت بعض المصادمة بين صغار الامراء والقضاء فتتدخل الدولة لصالح القضاء كما هو الحال في الحادثة التي ذكرها الخزرجي في حوادث سنه ٨٠٠ يقول : وفيها اختصم رجلان عند والي زبيد فطلب أحدهم حكم الشريعة المطهرة فمنعه الوالي من ذلك فاستغاث بحاكم الشريعة فعجز عن استنقاذه فكتب القاضي الى السلطان يشكو من الوالي تعديه على حكم الشريعه فأمر السلطان حينئذ من تقدم الى الوالي وأخرجه من سه الى باب حاكم الشريعه ثم تقدم السلطان الأشرف وشتم الوالي ووبخه توبيخا شديدا[2] • وهذا يدل على إعزاز السلطان للقضاء والشريعة •

ويقوم القضاء في الغالب على نظام تسلسلي يبدي من القاضي العام أو قاضي القضاة وهو بدرجة وزير العدل الآن الى صغار القضاة الموزعين في سائر المناطق اليمنية على مختلف انحائها وقد تولى ولاية القضاء العام في الدوله الرسولية جماعة من المسؤولين وهم :

١ — أبو الذبيح اسماعيل بن محمد الحضرمي المتوفى سنة ٦٧٥ •

(١) الشرجي طبقات الخواص ص ٧٤ •
(٢) العقود اللؤلؤيه ج ٢ ص ٣٠٢ •

٢ ـــ بهاء الدين محمد بن أسعد العمراني المتوفى ٦٩٥ .

٣ ـــ محمد بن أحمد بن محمد اليحيوي المتوفى ٧١٢ .

٤ ـــ رضي الدين ابو بكر محمد بن أحمد بن عمر بن الادب المتوفى ٧٢٥ .

٥ ـــ محمد بن احمد اليحيوي المتوفى سنة ٧٢٧ .

٦ ـــ علي بن أحمد الجنيد المتوفى سنة ٧٥٣ .

٧ ـــ عبد الاكبر بن أحمد الجنيد المتوفى سنة ٧٥٤ .

٨ ـــ محمد بن أحمد بن صقر الدمشقي المتوفى سنه ٧٨٥ وهو أول من تولى منصب القضاء العام من العلماء الوافدين الى اليمن .

٩ ـــ جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي المتوفى ٧٩٢ .

١٠ ـــ ثم ظل منصب القضاء العام شاغرا حتى قدم الى اليمن العلامه اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي سنه ٧٩٦ فأعطي منصب القضاء واستمر فيه حتى وفاته سنة ٨١٧ .

١١ ـــ أحمد بن أبي بكر الرداد المتوفى سنه ٨٢١ ولي القضاء نحو سنه، وكان يطمع في تولي هذا المنصب اسماعيل بن أبي بكر المقري فلم يتم له ذلك.

فهؤلاء مجموع من تولى منصب قضاء الاقضية في الدولة الرسوليه ويتلوهم جماعة من صغار القضاة تولوا الحكم في بعض المدن اليمنية ويكون توليتهم في الغالب باشراف قاضي القضاة وفي بعض الاماكن النائيه التي يقل فيها العلماء وحكام الشرع يكون البت في قضاياها بالتصالح لعدم وجود من يحكم بينهم وهذا ما يسميه الجندي الحكم بالتراضي(١) وله أصل من العادات والتقاليد السائدة بين القبائل حتى ان ابن المجاور في القرن السابع يعمم هذه القاعده على

(١) السلوك ٢٤٦ .

سائر أهل اليمن والحجاز[1] ويطلق عليها اسم (المع) وهو نظام يكون حسب الاعراف السائدة بين الناس وقد بقي من آثار هـذا النظام بقية حتـى زمن الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ وقد حمل عليه في كتابه (العدو الصائل) وأطلق عليه اسم (حكم الطاغوت) .

وقد خصصت الدولة لمرتبات القضاة والمدرسين الجزية المأخوذة من اليهود وقدرها نحو ١٥ دينار[2] على كل فرد لكن هذا المرتب غير كاف لسد حاجات القضاة مما اضطر بعضهم الى أن يشتغل بالزراعة بجانب القضاء وبعضهم تورط في الديون الكبيرة . أما صغار الكتبة فقد لجأ بعضهم الى أخذ الهدايا من المتحاكمين فيأخذ الموظف على كتابة السجل نحو خمسة دنانير وعشرة اخرى باسم القاضي[3] وهذا يكون في زمن انتشار الفوضى وتخاذل الدولة ، والا فالقضاء في اليمن قد احتفظ لنفسه بصفحات بيضاء خالدة فهذا الفقيه عمـر بن أبي بكر الهزاز المتوفى سنة ٦٤٤ كان قد ضرب للناس المثل الاعلى في ورعه ونزاهته وكان من عادته اذا مات أحد من الناس أعلن عن تركته ومخلفاته في جامع تعـز زيادة في التحري والورع وكان الفقيه محمد بن علي بن أبي الخل لما ولي قضاء الاقضية باليمن في عهد المظفر رفض أن يقبل مرتبه الشهري وانما كان يصرفه في الانفاق على المصادرين وصغار الكتاب . ومن القضاة في ذلك الوقت من حكم عـلى السلطان في قضية مشهورة[4] .

* * *

---

(١) ابن المجاور المستبصر ٩٩ .

(٢) السلوك ص ٢٩٣ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) تاريخ البريهي حيث يذكر قصة مشرفة لفقيه محمد بن أبي الحناط قاضي تعز .

حياة المجتمع

يذكر ابن المجاور في القرن السابع عن أخلاق زبيد أنها أقـرب الى الرقة واللطف فهم يميلون الى الملابس النظف والمراكب الوطئة وشم الطيب ويقول ان معظم رجالهم يتغانجون في حديثهم ويتمايلون الى غير ذلك[1] وقد اكتمل في مدينة زبيد كل مقومات المجتمع الكامل وهم يشبهون في ذلك أهل مصر كما وصفهم المقريزي ٠

وقليل من المؤرخين من رصد أخـلاق المجتمع اليمـني في ذلك الوقت وعاداتهم ٠ وفي السفر الطيلة الـتي ذكره ابن المجـاور ــ على الرغـم من مبالغاته ــ نستطيـع أن نتعرف على كثير من العادات والتقاليـد التي جهلها التاريخ فقد حدثنا عن عاداتهم في الزواج وطريقة بيعهم وشرائهم وعاداتهـم في المآكل والاسماء والالقاب وغير ذلك وفي القرن الثامن رصد المؤرخ عبد الرحمن ابن محمد الحبيشي أخلاق أهل بلدة وصاب فحدثنا كثيرا عن المجتمع في ذلك الوقت وقد تميز أهل وصـاب بإكرام الضيـف حتى « الفقير منهم فانـه يحب الضيـف ولا ينضرر من اكرامه مع فقره بل يرهن من عقاره أو يبيع من ماله مايقري به ضيفه ويأنف من تقريب القليل ويؤنس الضيف بكثرة الترحيب»[2]٠ ومن جملة أخلاقهم حرصهم على المروءة والشرف فان الرجل يفضل أن يقتل ولا أن يضرب أمام باب السلاطين وربما قدم للسلطان كل ما يملك على أن لايهان

(١) المستبصر ص ٧٠ ٠

(٢) الحبيشي الاعتبار في التاريخ والمآثر (مخطوط) ٠

أمام الناس وكان الرجل منهم اذا خلف وعدا ونكث عهدا أسموه أعيب ويصاح عليه في الاسواق بذلك ويعم عاره كل أقاربه فلايجبر ذلك العار الا أن يجمع كل مامعه من الانعام ويذبحها أمام منزل الشخص الذي نكث عهده ويسمون ذلك « إنصافا »(١) • وحتى في زمن الحبشي في القرن الثامن لا يوجد من يشرب الخمر في وصاب « فلا يعرف الخمر بها ولا أعلمُ أحدا منهم شربه بل لايوجد بها مخمارة واحدة »(٢) •

وربما أورثت وصاب من يسكنها الرقة « فأهلها رقاق القلوب ومن أقام بها من غير أهلها وجد في قلبه حالة لم يعهدها قبل اقامته فيها من الخشوع ورقـه القلب »(٣) كما تميز أهل مدينة عنمة بالذكاء المفرط وبخلافهم أهل السانه من مدن وصاب حتى بلغ الأمر بأحدهم أن يصعد الجبل ويسدد بسهمه الى القمر ليصيده ويحكي عنهم أنهم رأوا القمر في بئر فظنوا أنه في أسفلها بين الماء(٤) الى غير ذلك من النوادر الكثيرة التي تروى عنهم •

وكان أعتى ما يصاب به المجتمع في ذلك الوقت هو ثورات القبائل والتنافس بينها وربما دخلت بعض القبائل المدن المسالمه وعملت فيها النهب والسلب حتى كاد يضمحل الامن والاستقرار ويحتمي الناس في بيوتهم(٥) • واذا كانت الدولة قوية فالامر على خلاف ذلك فحين كانت الدولة قوية في حضرموت كان ملكها السلطان عبد الله بن راشد الحميري يفتخر على سواه من ملوك اليمـن بأن في مدينته تريم (ثلاث خصال تتميز بها : لا يوجـد بها حرام ولا يوجد فيها سارق ولايوجد فيها محتاج)(٦) • ولكن سرعان مايختفي ذلك الحاكم الحازم فتضيع البلاد تحت تنازع القبائل وربما قامت بعض القبائل بالغزو المسلح لبعض القرى الآمنه وتخويف أهلها •

(١ و ٢ و ٣ و ٤) الاعتبار في التواريخ والآثار (خ) •

(٥) طراز أعلام الزمن ص ١٦٢ والسلوك ص ٢٩٦ والمستبصر ص ٦٢ •

(٦) أنباء الزمن ص ٣٢٠ •

واذا خرجنا من دائرة الحروب سنجد المجتمع اليمني في المدينة قد شهد تقدما ملموسا في التجارة والحياة المعيشية حتى زاحم الاغنياء بقصورهم قصور السلاطين والامراء ويكون في قصر الواحد منهم (حاشية من العبيد وعدد صالح من الاماء وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبشة)[١].

كما أنهم تمننوا في صناعة الأطعمة حتى إنه يطبخ في منزل الرجل منهم عدة ألوان من الطعام «ويعمل فيها بالسكر والقلوب وتطيب أوانيها بالعطر والبخور[١]»

وقد عدد الخزرجي من أنواع الحلوى المصنوعة في وقته عدة أصناف[٢] .

كما كثرت الاعياد الرسمية والنزه وكان الناس يرتادون في النزه بستان (ثعبات) وبستان (الراحة) في زبيد والبستان الشرقي وغيرها من النزه ويقول من شاهد بستان ثعبات : إنه يحتوي على قبة صحيحة فرشت بالرخام الملون وبه عدة أعمدة يجري فيها الماء » الخ.

وكانت تسلية الصيد هي النزهة المفضلة عند ملوك بني رسول وربما شارك بعض ملوكهم فيها كالملك الاشرف الذي قام برحلة صيد سنة ٧٩٧ وصاد مجموعة من حمر الوحش[٣] . وقد اشتهر في هذا التاريخ نزهة « السبوت » حيث كان يخرج أهل زبيد الى ناحية النخل ويشاركهم في ذلك .. (الصغار والكبار بالطبل والزمر . بعدما يلبسون جملا عدة تامة من الاجراس والقلاقل ويشد على رقبته بالحبوط المزركشة)[٤] ويخرج في هذه النزهة النساء وهم في

---

(١) العمري مسالك الابصار ص ٥٥ .

(٢) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٣٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٢ وانظر السمط العالي الثمن ففيه الكثير من ذكر رحلاتهم الى الصيد . بل بلغ الامر بملوك الدولة الرسولية في حبهم للصيد ان يضع احد العلماء القادمين الى اليمن وهو الفقيه يعقوب بن اسماعيل الطماطي كتابا للملك المؤيد في الصيد بعنوان (نزهة الملوك الاخيار في الاقتناص بانواع الاطيار) انظر كتاب انتهاز الفرص في الصيد والقنص لحمزة بن علي الناشري الذي سنقوم بنشره في القريب العاجل .

(٤) المستبصر ص ٨٠ .

شرب ولعب وقصف ورقص . ولقد استنكرها جماعة من العلماء المتمسكين ودعا فقيههم الى تركها بقوله :

تجنب عن زبيد ولا تطاها ولا تعروك يا ابن أخي زبيد
ففي يوم السبوت ترى مساوى أقلها يوم سبهم اليهود

بل زعم المؤرخ يحيى بن الحسين أنه خرج بسبب هذه النزهة من زبيد وحدها نحو سبعمائة بنت من الفقهاء وأهل النجدة والحمية ، وكان المجدد لهذه النزهة بعد اندثارها الملك المؤيد داود بن علي بن يوسف المتوفى سنة ٧٢١ وقد عدت من مساوئه وأنها (أعظم بدعة في الاسلام وحقيقتها على مايذكره المؤرخون أنه كان يخرج الملك بعسكره من زبيد الى النخل في يوم السبت ويأمر أهل زبيد بالخروج معه بنسائهم فتقع هناك مفاسد عظيمة واختلاط فاحش وسماع وطرب)[١] .

وليس بأيدينا تحديداً لبداية هذه النزهة في اليمن الا أن أقدم من ذكرها من المؤرخين هو ابن المجاور في القرن السابع الهجري ويذكر يحيى بن الحسين ان ابتداءها كان في زمن الأشرف سنة ٦٩٤ وأنه سبب في احدى السنوات فخرج معه نحو ثلثمائة محصن في كل محصن سرية[٢] .

وبجانب هذه النزهة الشهيرة تأتي عدة احتفالات رسمية واخرى دينية وقد ساهم فيها الادب والادباء مساهمة فعالة فقد شارك الادباء بصفة رسمية في بعض الاحتفالات التي تكون لمناسبات خاصة بالدولة كالانتهاء من بناء أحد القصور السلطانية أو الاحتفال ببعض المناسبات الدولية .

ومن أشهر الاحتفالات الرسمية التي عنيت الدولة بها ذلك الاحتفال الذي أقامه الملك الأشرف بمناسبة طهور بعض أولاده[٣] .

---

(١) غاية الاماني ص ٤٩٤ .
(٢) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٩١ .
(٣) وقد أطنب الخزرجي في وصفه ما بذل فيه من اموال واستعدادات من ذلك =

ومن الاحتفالات الكبيره الاحتفال بالاعياد الدينية كعيد الاضحى وعيد الفطر والاحتفال بأيام الشمبع في رمضان وهو عبارة عن اجتماع علمي يقيمه الملك الرسولي بعد الانتهاء من الافطار ويحضره جماعة من الاعيان والعلماء وربما جرت في هذا الاجتماع مناقشات علمية وأدبية بين الحاضرين فينقسم الادباء فيما بينهم الى قسمين ويكون الملك في موقف المحايد وقد ذكر الخزرجي صورة مما كان يدور في تلك المجالس من مناقشات من ذلك أن الادباء انقسموا فيما بينهم الى قسمين في تفضيل العنب والنخل (أيهما أفضل من صاحبه فحصل الاجماع بتفضيل الرطب على العنب من فقهاء تهامة وأمرائها وكان القائلون بتفضيل العنب على الرطب فقهاء الجبال وأمراءها وقد أسند أهل الجبال أمرهم الى الفقيه صفي الدين احمد بن موسى التعزي وأسند أهل تهامة أمرهم الى الفقيه شرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المقري[1] .

وهناك احتفال آخر له صلة بالمناسبات الدينية وهو الاحتفال بعودة الحاج والابتهاج بقدومه باقامة المداره والتغني بفضله فيقيم أصحاب الشراء أعوادا كبيره على شكل مراجيح يتوسطها الحاج ويقوم الشعراء بين يديه بالمدائح والقصائد فيكافئهم صاحب الحفل بجوائز جزيلة[2] .

وفي بعض الأحيان تقام المداره لغير المناسبات الدينية ويشركها في ذلك آلة أخرى تسمى (الطلعاب) أشبه ما تكون بعربة تجرها عجلات من الخشب[3]

=

انه بعث الى بعض الجزر لشراء ماتدعو اليه الحاجه من الطير والحيوان والحنطه والسمون والعسل والارز ومن الرمان والعدس الى غير ذلك وفي شهر شوال من سنه ٧٩٣ طلب الاشرف صناع الحلوى فاشتغلوا منها أنواع كثيره منها المشبك والمرعبه والقاهريه والسيريه والحسحانيه والقايتية الى غير ذلك ، وقد حضر كل أعيان الدولة والفقهاء وعامه الناس وشارك فيه بعض الادباء (العمري ج مسالك الابصار ص ٥٦) . وتلك صوره مما كان يقام في بعض الحفلات ابرسمته من نسج ومظاهر وهي كبيره جدا .

(١) المصدر السابق ج ص ٢٦٣ .

(٢) تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٢٤٥ وانظر السلوك .

(٣) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٧٣ و ٧٤ و ٢٤٠ .

واحتفل الناس في ذلك الوقت بالرجبة وكان الملك المنصور يأتي بنفسه الى الجند لأداء صلاة هذه المناسبة العظيمة عند أهل اليمن[1] .

وعلى العموم فان الدولة الرسولية قد تفننت في اقامة النزه والحفلات وشارك في ذلك ملوكها حتى ان الملك منهم كان (يمشي بزبيد ويصبح بتعز) ، في حين كانت أوقاتهم (مقصورة على لذاتهم والخلوة من خطاياهم وخاصتهم من الندماء والمطربين)[2] .

أما الناس فلهم شأن آخر وتتفاوت حياتهم بين اليسر والعسر وان كنا نجد في المجتمع في ذلك الوقت ما يشبه التكافؤ الاجتماعي لاعتمادهم على الزراعة في أغلب الاحيان حتى انغمس في العمل بالزراعة سائر فئات المجتمع بما فيهم العلماء وبعض الامراء الا أن هؤلاء انحصر نفوذهم في الزراعة من خلال السيطرة على مناطق شاسعة من الاراضي الزراعية حصلوا عليها من الدولة الرسولية .

وقد أرادوا أن ينشئوا في أول الأمر نظاما إقطاعيا يشبه ذلك النظام الذي أحدثه المماليك في مصر والذي يعتمد على تسخير جماعة من الفلاحين لزراعة الارض لصالح الامير لكن هذا النظام سرعان ما انتهى بالفشل لأن أكثر الفلاحين كانوا من أفراد القبائل المسلحين فلم يستطع الامير فرض سيطرته عليهم ، وفشل نظام الاقطاع في اليمن فشلا تاما بخلاف ما هو مطبق عند معاصريهم في مصر وبعض بلاد الشام . ويبقى كل نفوذ الدولة على الفلاحين في أخذ الجبايات السنوية فقط . وحتى هذا الامر لم يتأت تماما للدولة فقد ذكر المؤرخ الحبيشي في تاريخه أن عرب « حصن نقد » من بلاد وصاب « لايسلمون لواليهم مالا وليس عليهم خراج في أرضهم إلا في موضعين منها ولم تجر عليهم يد السلطان إلا في مدة قصيرة »[3] .

---

(١) السمط الغالي الثمن ص ٢٣٣ .

(٢) العمري : مسالك الابصار ص ٥٦ .

(٣) الحبيشي : الاعتبار (مخطوط) .

أما في البلاد المسالمة فالامر بخلاف ذلك ، ففي وصاب نفسها كان الرجل من أهل قلمران غالب مايموت فقيرا «وذلك لكثرة مايجور عليهم الولاة والظلمة»[1] .

ولهذا السبب وغيره كان الناس كثيرا مايثورون على الدولة وربما قام أحد الثوار من بينهم ودعا الى أخذ حقوق الشعب من الدولة فقد حدثنا المؤرخ الحبيشي عن واحد من أولئك الثوار وهو شخص عرف باسم الشريف كان قد ظهر في قرية « هـرورة » من أعمال حصن الشرف بوصاب ودعا الناس الى الوقوف ضد عمال الملك المنصور بعد أن جاروا فوقف معه ستون رجلا وتمكن بهم على الرغم من فقره من أخذ قرية الحمراء والسدة ووقف معه الناس « لما كان قد نالهم من الظلم والجور من الوالي »[2] ثم أخذ المصنعة والجبجب وغيرها من قرى وصاب وقام ببناء دور صغير للرعية حتى« ولوه عليهم فلم يأخذ منهم شيئا الا مايقوم بكفاية العسكر لاغير »[3] . ومن أمثلة هذا الرجل كثير من الثوار لعل آخرهم حسب علمي الفقيه سعيد ياسين في القرن الثالث عشر الهجري .

ومع ذلك فربما قام أفراد القبائل بالثورات المتتابعة على الحكومة وقد حدثنا صاحب تاريخ الدولة الرسولية المجهول عن ثورات كثير من القبائل التهامية كقبيلة الاشاعر والمعازبة والقرشيين والجحافل وغيرهم وكانت الدولة تقوم بتجريدهم من السلاح والخيل[4] في أوقات هدوئهم .

أما المماليك وهم مانسميهم بالامراء ـ فقد جاؤوا مع أول ملوك الدولة الرسولية الذي يقال :انه استكثر منهم حتى بلغت مماليكه البحرية ألف فارس يحسنون من الفروسية والرمي ما لايحسنه مماليك مصر[5] . وأغلب الظن أن

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) مجهول : تاريخ الدولة الرسولية ص ٥٧ و ٧١ و ٧٨ و ٧٣ و ٨٣ و ٩٢ . الى غير ذلك طبع اليابان سنة ١٩٧٦ م .
(٥) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٢ .

الملك الرسولي قد أراد من الاستكثار بهم أن تكون له عصبة قوية يقارع بها العصبيات المحيطة به في اليمن من قبل تكتلات القبائل حوله وكأنه في هذا المسلك ينهج أسلوب حكام مصر المعاصرين له على أن حتف هذا الملك سيكون على أيدي هؤلاء المماليك كما مر بنا . وهؤلاء المماليك من أشرس خلق الله وقد أرادوا أن يسخروا الشعب لأهوائهم لولا أنهم وجدوا مجتمعا صلب المراس لايخضع لضيم وهم دائما لايزالون في حروب معهم حتى أخمد العرب شوكتهم ونادرا ما يخرج مملوك من أبواب زبيد دون أن تتعرض حياته للخطر[١] ... الا أنهم في المدن قد شكلوا طبقة ثالثة بعد طبقة الحكام لها نفوذها الكبير في البلاد ولم يحد من شأنهم الا سقوط الدولة الرسولية في القرن التاسع وقيام دولة عربية تعتمد في حمتها على الشوكة العربية فتلاشى شأن المماليك وهرب أكثرهم الى الحجاز .

وفي المدن يتباين الناس وتتعدد طبقاتهم فأولهم بعد طبقة الملوك طبقة الامراء ولم يكن هؤلاء الامراء جميعهم من بيت الملك وانما يدخل فيهم جماعة من المماليك والرؤساء المقربين للسلطان ويحمل للامير في الغالب شعارات التعظيم والسيادة كدق الطبل والمرافقة له بالحرس وقد كرمت الدولة كثيراً منهم بواسطة الاقطاعات الهائلة التي تعطى لهم وربما بلغت هذه الاقطاعات قرى بأكملها[٢] ويأتي بعدهم في المرتبة طبقة المشايخ أو رؤساء القبائل ونفوذهم يكون خارج المدن الكبيرة ويتحكمون في أفراد القبائل التابعة لهم ويغلب عليهم البساطة والسذاجة لذا فان الدولة كثيرا ما أوقعت بهم بواسطة الحيلة[٣] ومن رؤسائهم

---

(١) والى ذلك يشير ابن المقري فيقول مخاطبا الظاهر

وصي بقتلهم القبائل بعضهم بعضا لكي يجدوا لديك منالا

(٢) انظر على سبيل المثال العقود اللؤلؤيه ج ١ ص ٢٦٨ و ٣٠١ و ٣١٨ وغيرها .

(٣) العقود اللؤلؤيه ج ٢ ص ١٠٩ .

فى ذلك الوقت من أرسل أتباعه لإخافه السبل وظلم ارعبة انتقاما من الدوله .

وبجانب تلك الطبقات العسكرية يأتي سائر أفراد الشعب وأغلبهم مــن لفلاحين والحرفيين والعلماء ولكل من هؤلاء الناس أزياء خاصة بهم فعامة أهل الاريف يلبسون قمصانا كبيرة الجيوب ونعلا عربية ضخمة ومنهم من يحرص على إطالة شعره ولايغطي رأسه إلا نادرا[١] . وأما الامراء والعسكر فانهم يلبسون أقبية اسلامية ضيقة الاكمام مزندة اليدين وأحزمة وعلى رؤوسهم أغطية تسمى تخافيف تكون على شكل عصابة (لفائف) ولست بعمامة وفي أرجلهم دلاكـــت وهي أخفاف من القماش والحرير الاطلس[٢] أما العلماء فغالب ملابسهم العمائم والشاش والملاحف[٣] .

وللنساء زي خاص بهن فعند الخروج تستعمل المرأة في الغالب نوعا من الملابس يسمى جوخه وتضع على رأسها طرطورا ثم تتغطى بملاءة[٤] ومن أزيائهن نوع من الاغطية يوضع على الرأس يسمى مصون[٥] .

ويوجد باليمن في ذلك الوقت أقلية دينية من اليهود الدين كانوا يستوطنون قرى بجانب قرى المسلمين وكان أكثر وجودهم في مناطق الجبال المحادية لتعز وعدن .. أما في المدن الكبيرة فقد كانت لهم أحياء خاصة وقد اندمج بعضهم بأفراد الشعب من المسلمين وتولى وظائف حكومية هامة كالنظر في أموال المينا بعدن وغيره ومنهم من احترف مهنا كالطب وبعض الصناعات اليدوية حتى كان للواحد منهم المراكب الفارهة والغلمان الحسان مما لايحظـــى به سائر أعيان البلاد[٦] وكانت عدن وتعز تغص بالعديد من كنائس اليهود فيسمع لأصوات

---

(١) السلوك ٣٢٠ .
(٢) العمري مسالك الابصار ٥٢ .
(٣) السلوك ٣٢٠ .
(٤) السمط الغالي الثمن ص ٢٩٥ .
(٥) تاريخ الربيعي ص ٣١٤ .
(٦) تاريخ الربيعي ١٢٦ .

المصلين بها زجل عظيم يؤذي المسلمين وربما قام اليهود ببناء كنائس جديدة في تعز فيقوم بهدمها بعض العلماء والانكار عليهم[1] .

أما النساء فلهن شأن كبير في العصر الرسولي ويكفي أن تعلم أن المرأة قد تولت الزعامة بأقصى درجاتها حتى ندرك أهميتها وقد ساست المرأة الرجال وتصدرت المحافل حتى أن قبيلة المعازبة المعروفة بشكيمتها قد ولت عليها مرأه عرفت ببنت العواطف أحلوها محل الشيخ لهم فكانت (تركب دابة أو ناقة وتقود المعازبة في المعرك بأسرهم فكان السلطان يكسوها كما تكسو مشايخ القبائل)[2] وقد حفظت الدار الشمس ابنه الملك المنصور ملك اليمن بعد مقتل والدها لمده أيام حتى قدم أخوها المظفر .

وقد اشتهر منهن في ذلك العصر جماعة من عقيلات النساء عرفن بخدمتهن الاجتماعية ـ والاصلاحية نذكر منهن :

١ ـ الدار الشمس ابنة المنصور عمر بن علي الرسولي وكانت من النساء الحازمات ولما قتل والدها ولم يكن أحد من أقاربها موجوداً شمرت وبذلت الأموال للرجال وحفظت زبيد حتى وصل أخوها المظفر من المهجم وكانت هي السبب في الاستيلاء على الدولة ولها من المآثر الخيرية المدرسة المعروفة بالشمسية بذي عدينة من تعز ومدرسة بزبيد وغيرها . توفت سنة ٦٩٥ .

٢ ـ آمنه بنت اسماعيل العاش من الحازمات حفظت الملك بعد غياب ابيها المجاهد في مصر وأخمدت الأمور بعد أن أوشكت أن تقوم ثورة ولها من المآثر الخيرية مدرسه في المحالب وأخرى بقرية السلامة وأنشأت خانقاه بزبيد الى غير ذلك توفيت سنة ٧٦٢ .

٣ ـ أم الملوك جهه الطواشي جمال الدين فرحان لها من المآثر الخيرية مدرسه في زبيد وأخرى في تعز ولحج توفت سنة ٨٣٦ .

---

(١) السلوك ص ٣٣١ .
(٢) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٦٩ .

٤ ــ بنت أسد الدين محمد بن الحسن الرسولي زوجة الملك المؤيد وكانت تتوسط في الشماعة لعامة الناس ولها محاسن متعدده توفيت سنة ٧٠٤ ٠

٥ ــ الجهة المعتبية وكانت امرأه حليمة عفيفة لها مدرسة بتعز توفيت سنة ٧٩٦ ٠

٦ ــ الدار الفاسي نسبة الى الطواشي كمال الدين فاتن بن عبد الله الطواشي كانت من النساء الكاملات وكان المجاهد يجلها ولها من المآثر مسجد كبير في زبيد توفيت سنة ٧٦٨ ٠

٧ ــ الدار النجمي كانت من الصالحات وكانت تهتم بتفقد أحوال الطلبة لها مآثر كبيرة استقصيناها في كتابنا معجم المرأة اليمنية ٠ توفيت في القرن الثامن ٠

٨ ــ دهماء بنت يحيى المرتضى لها مؤلفات علمية في الفقه توفيت سنة ٨٣٧

٩ ــ صفية بنت المرتضى من العالمات لها بحث في الفقه توفيت سنة ٧٧١ ٠

١٠ ــ ماء السماء بنت الملك المظفر كانت من النساء الفاضلات لها المدرسة الواثقية بزبيد توفيت سنة ٧٢٤ ٠

١١ ــ مريم بنت العفيف زوج الملك المظفر الرسولي كانت من العاقلات لها عدة مدارس أنشأتها في زبيد وتعز وتعرف بمدارس مريم توفيت سنة ٧١٣ ٠

١٢ ــ نبيلة ابنة الملك المظفر أنشأت عدة مدارس علمية توفيت سنة ٧١٨ ٠

وأخريات استقصيناهن في كتابنا (معجم المرأة اليمنية) فتراجع هناك ٠

❋ ❋ ❋

الحياة الدينية

عاش أهل اليمن حياة دينية كاملة ، ومن يتأمل ماكتبه الجندي عن صوفية اليمن يجد القوم قد اندمجوا في عبادات ورياضات شاقة تقف عندها الهمم الكبيرة فالواحد منهم ربما صلى صلاة الصبح بوضوء العشاء لم يرقد حلالهما[1] ومنهم من كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، ويصوم كل أيام السنة ، سوى الايام المكروهة[2] ومنهم من كان يختم القرآن كله في يوم واحد . وهكذا تكثر عبادات أهل اليمن في ذلك الوقت . وكان الشيخ الصالح طلحة الهتار قد مكث خمس عشرة سنة لا يفطر الا أيام العيدين ولا يخرج من البيت الا لصلاة الجمعه[3] . ولو توسعنا في ذكر عباداتهم لخرج بنا المقام ، ونكتفي بما ذكرنا للتدليل على انهماكهم في طاعة ربهم ومع ذلك لم تكن كل حياتهم في العبادة وحدها ، فقد تحسس الصوفيـة مشاكل الناس حولهم وحاولوا التعبير عنها بشجاعة أمام الحكام من ملوك بني رسول ومن يتأمل ما كتبه الصوفي الكبير أحمد بن علوان الى الملك المظفر يجد مصداقاً لما قلناه ففي هذه الرسالة يشكو ابن علوان على لسان عامة الناس ما أحدثه من ضرائب وجبايات فيقول :

« أما بعد أصلحك الله أيها الملك وأصلح بك وجعل أسباب المضل مقصودة بسببك . إن الملك عاريته المستعاره بالقهر وحكمتـه المستفادة بالفكر ونعمتـه المستزادة بالشكر لواؤها العدل ويدها البذل وخليلها العقل وعدوها الجهل فان كان في الملك هذه الاوصاف فليس بهين وهذه نصيحة أجراها الله على لسان بعض رعيتك وقد آتاك الله من الحلم والعلم فأمره على تذكيرك» الخ[4] .

وغالباً ما تقبل الحكام ادلال الصوفيه عليهم برحابة صدر وتسامح حتى ان أحدهم كتب الى الملك المظفر يقول : « يا يوسف كثر شاكوك وقل شاكروك

(١و٢و٣) طبقات الخواص ٤٧ والاهدل . تحفة الزمن ص ١٠٨ وص١٦٧ .
(٤) أنظر مجلة الحكمة (الجديدة) العدد ٣٢ ص ٣٨ .

فإما عدلت وإلا اعتزلت[1] فدل ذلك على مكانتهم التامة عند ملوك بني رسول ولعل هذا التسامح معهم من قبل هؤلاء الملوك لم يكن بدافع ديني وانما كان لأسباب سياسية تقتضي ذلك حيث أن لهؤلاء الصوفية مكانة كبيرة في نفوس الناس فكان الميل اليهم ليس إلا تقربا للشعب وقد ترجموا ذلك في أكثر من مناسبة فهذا السلطان المظفر يسامح جماعة من الصوفية في الضرائب على أراضيهم[2] وقد رفض الصوفي أحمد بن موسى بن عجيل مسامحة المظفر لأرضه الا أن تكون هذا السماح عاما في سائر أفراد الشعب[3] ومع ذلك فقد كانت مكانة الصوفية عند ملوك بني رسول تزداد كل يوم حتى بلغ بهم الامر الى أن كل من احتمى بتربة الفقيه (ابن عجيل) لم يستطع السلطان أن يمسه بأذى واصبحت مدينة بيت الفقيه من الاماكن المقدسة التي لا يدخلها جند السلطان[4] .

ولم يؤثر هذا التكريم في مجاهرة الصوفية بالحق وربما قام أحدهم بالهجوم على أماكن الخمر وإراق الخمر دون أن يمسه أحد من العسكر[5] وكان الصوفية أقرب في ذلك الى رأي العامة فأحبهم الناس لذلك واعتبروا مزاراتهم من الاماكن الجليلة حتى ان الصوفي الكبير الشيخ طلحة الهتار اذا خرج من بيته لا يكاد يصل الى الجامع إلا بمشقة كبيرة لكثرة ازدحام الناس عليه[6] وربما ضايق بعض الصوفية من تلك الزيارات المتكررة فيحتال أحد أصحابه بحيلة طريفة يتخلص بها منهم[7] .

---

(١) أنظر كتابنا الصوفية والفقهاء في اليمن ص ٤٧ .
(٢) طبقات الخواص ص ٨ .
(٣) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٥٨ .
(٤) الصوفية والفقهاء ص ١٥٠ وطبقات الخواص ص ٦٣ .
(٥) طبقات الخواص ص ٧٣ .
(٦) المصدر السابق ص ٦٤ .
(٧) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٢١ . ويذكر في ذلك حكاية طريفة يقول ان الصوفي عبد الله بن أبي بكر الخطيب لما دخل عدن سامع الناس به ، وكثر الزحام عليه حتى شغلوه عن عبادته فشكا الى بعض خواصه فقال له . اطلب منهم قرضا فلما عمل ذلك مع أول زائر انتشر هذا الخبر بين زواره وعرفوا أنهم متى وصلوا الى عنده سألهم كما سأل الاول فلم يأت أحد بعد ذلك الى الشيخ .

على أن الصوفية ليسوا هم جميع أصحاب الوجاهة الدينية في المجتمع فقد زاحمهم في ذلك جمهور الفقهاء . وربما حدث بينهما نزاع كبير فصلناه في كتابنا (الفقهاء والصوفية في اليمن) فلا نعود الى ذكره هنا .

وكانت المذاهب الفقهية السائدة في ذلك الوقت قبل انتشار مذهب الشافعي في اليمن هما مذهب الامام (مالك) والمذهب (الحنفي) واستمر الكثير من الفقهاء على مذهب الامام أبي حنيفة حتى بعد ظهور المذهب الشافعي وكانت مدينة زبيد قد ضمت جماعة كبيرة من أصحاب المذهب الحنفي والشافعي والمالكي . أما مذهب الامام زيد بن علي فقد انتشر في نواحي (صعدة) و (نجران) وما يليها وتمركزت (الاسماعيلية) في نواحي (صنعاء) والبلدان المحيطة بها وكانت صنعاء تضم في ذلك الوقت مجموعة من أتباع المذهب السني كالشافعية والحنفية ..

ويقول المؤرخ (ابن سمرة) واصفا الوضع المذهبي في اليمن قبل انتشار المذهب الشافعي كان الغالب على اليمن مذهب مالك وأبي حنيفة ولم يكن علم السنة مأخوذاً في هذا المخلاف الا من جامع معمر بن راشد البصري وهو مصنف في صنعاء وجامع سفين بن عيينه وجامع أبي قرة موسى بن طارق اللحجي ومن المرويات عن مالك وغيره[1] .

ومن المؤرخين من يحدد ظهور المذهب (الشافعي) في اليمن بالقرن الثالث[2] ثم تقوى شأنه في القرن الرابع وكان المجدد له بعد اندثاره الفقيه اليمني القاسم بن محمد بن عبد الله الجمحي القرشي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ[3] .

وقد حظي مذهب (الشافعي) بقبول تام على أثر تحول السلطان المنصور

---

(١) ابن سمرة . طبقات فقهاء اليمن ص ٧٤ .
(٢) يحيى بن الحسين . غاية الاماني ص ٢٠٣ .
(٣) طبقات فقهاء اليمن ص ٨٠ و ٨٧ .

عمر بن علي الرسولي عن المذهب (الحنفي) الى المذهب (الشافعي)[1] ومساندة الدولة لهذا المذهب حتى إن أول مدرسة أنشأتها كانت لدراسة المذهب (الشافعي)[2] وما كان هذا الاهتمام أن يتقوى لولا أن الدولة الرسولية وجدت ترحيبا كاملا في تقبل المذهب (الشافعي) وانتشار كتبه الفقهية منذ مرحلة مبكرة فان أقدم كتاب عرفه اليمن للمذهب الشافعي هو كتاب (مختصر المزني) تلميذ الامام الشافعي وهو أول كتاب وضع في مذهب الشافعي وقد اشتهر شهرة واسعة في اليمن وأول من أدخله الشيخ حسين بن جعفر المراغي المتوفى سنة ٣٢٤ قرأه بمدرسة سهفنة سنة ٣٢٠ وقد درس في هذا الكتاب بعد المراغي جماعة من علماء اليمن أمثال أبي الفتح بن ملامس المتوفى في القرن الخامس والفقيه جعفر بن عبد الرحيم المخائي المتوفى سنة ٥٠٠ وأسعد بن الهيثم المتوفى سنة ٤٩٨ وغيرهم • وظل كتاب المزني مستعملا في الدراسة حتى حل محله كتاب المهذب لأبي اسحاق الشيرازي في القرن الخامس فمال الناس اليه حتى كاد أن يُنسى كتاب المزني ولم يعد له ذكر بعد هذا التاريخ يقول ابن سمرة واصفاً كتب (الشافعية) في اليمن قبل وصول (المهذب) كان أهل اليمن في المائة الخامسة وما قبلها يتفقهون بكتاب المزني وفي أصول الفقه بكتاب (الرسالة) للشافعي ومصنفات الغزالي وكتاب أبي علي الطبري وكتاب ابن القطان ومصنف المحاملي وشروح كتاب المزني المشهورة لأن المهذب لم يصل الى اليمن الا في آخر المائة الخامسة[3] •

وانما كان تأخر وصوله الى اليمن بتأخر مصنفه فقد كان الامام الشيرازي من أهل القرن الخامس (توفي سنة ٤٧٦) فلا غرابة اذا كان مجيء كتاب المهذب في اليمن في القرن الخامس وأوائل السادس فما كاد يصل الى اليمن حتى نهالد

---

(١) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٧ •

(٢) طبقات الخواص ص ١٣٧ •

(٣) طبقات فقهاء اليمن ص ١١٨ •

عليه الفقهاء بالدراسة واعتمده الطلبة والمدرسون وأقدم من درس فيه الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي في القرن الخامس ولم يحد من شأن كتاب المهذب سوى كتاب (البيان) الذي صنفه في اليمن على مذهب الشافعي الفقيه يحيى بن أبي الخير العمراني المتوفى سنة ٥٥٨ ومع ذلك لم يترك الطلبة الدراسة فيه نهائيا وزاحم كتاب (البيان) في بعض الاحيان حتى كان القرن السابع وظهور كتب الامام النووي (المنهاج) و (المجموع) و (روض الطالبين) فيقبل الفقهاء عليها ويستغنون بها عما سواها ..

وقد ورث الشافعية في اليمن في ذلك الوقت تزمت الحنابلة وتشددهم في العقائد اذ لم يكن للشافعي مذهب خاص في العقيدة فمال الناس في هذا الصدد الى عقيدة أحمد بن حنبل لتلمذته على الامام الشافعي واعتماده على الحديث كشيخه حتى كان هذا دافعا لإنكار الشافعية على أتباع المذهب الحنفي القائل بالرأي وربما تسبب بعض الشافعية في متابعة كتب الحنفية واتلافها[1] على أن فقهاء الشافعية في اليمن وان مالوا في عقيدتهم الى مذهب أحمد بن حنبل الا أنهم لم يوافقوا الحنابلة في جميع معتقداتهم من الصفات وغيرها وقد وافقوهم في القول بالصوت والحرف[2] ، وكان الناس في اليمن حتى زمن الجندي يأخذون بعقيدة أحمد بن حنبل اذ الغالب على فقهاء اليمن ذلك الاعتقاد أما في القرن الثامن فقد انتقل اعتقاد بعض العلماء الى مذهب الاشعري لكنهم لا يتظاهرون بذلك خوفا على أنفسهم من جهلة بلادهم[3] وقد جرى أول احتكاك مباشر بين علماء الحنابلة والاشاعرة في اليمن عندما خرج الفقيه طاهر بن يحيى العمراني عن مذهب والده فتحزب العلماء ضده ومن بينهم والده حتى اضطروه الى الهجرة الى مكة والمكوث بها مدة طويلة ولما عاد الى بلده أجبروه على الرجوع عن مذهبه وإعلان ذلك على منبر المدينة[4] وكان من أكبر القائمين ضده الفقيه

(١) السلوك ص ٨٥ .
(٢ و ٣) تاريخ ثغر عدن ص ٨٣ .
(٤) طبقات فقهاء اليمن ص ١٨٨ .

سيف السنة أحمد بن محمد البريهي ثم أجمع الفقهاء على هجره والانكار عليه مشافهة ومراسلة[1] وكان فقهاء الحنابلة في أول أمرهم من أكثر الناس محاربة لعقيدة أبي الحسن الاشعري حتى وصل الامر ببعضهم الى أن يحرم مطالعة كتبه واعارتها لفقهاء الاشاعرة ويوصي بذلك فى وصيتــه فيكتب على ظهر كتـــاب هذين البيتين :

هذا الكتاب لوجه الله موقوف　　　　لـــه الى الطالب السني مصروف

ما للاشاعرة الضلال في حسبي　　　　حق ولا للذى في الربع معروف[2]

وكذلك ناظر الحنابلة الزيدية عندما دخل الفقيه جعفر بن عبد السلام مدينة إب ولم يتم له ما أراد من افحامهم[3] وقد وقعت مناظرة أخرى بين فقهاء الحنابلة والشيعة في مدينة وصاب تحت اشراف الامير الرسولي حسن بن علي الملقب ببدر الدين مما دل هذا على تشجيع الدولة الرسولية لعقد تلك المناقشات[4] ومع ذلك فان الفقهاء في اليمن على مختلف مذاهبهم كانوا هم الشعلة المتقدة في المناقشات العلمية والجدال الفقهي وكثيراً ما ملؤوا فراغهم في البحث في مسائل فقهية مختلف فيها كالبحث حول مسألة تكفير تارك الصلاة وطلاق الثلاث وبراءة الزوج من المهر الى غير ذلك وكان من أكبر الفقهاء المجادلين في ذلك الوقت الفقيه سيف السنة البريهي والفقيه يحيى بن أحمد الهمداني ومحمد بن ابي بكر الخياط وابن المقري وغيرهم وقد وصفهم الاخير بقوله[5] :

كنتم اذا عرضت فى الدرس مشكلة　　　　تطايرت نحوها أفهامكم شررا

---

(١) السلوك ص ١٢٦ ٠

(٢) السلوك ص ١٢٤ ٠

(٣) السلوك ص ١٤١ ٠

(٤) السلوك ص ٣٥٠ ٠

(٥) ديوان ابي المقري ص ١٥٠ ٠

أما الاحناف فقد استمر أكثرهم بمدينة زبيد حتى كونوا مجموعة كبيرة بعد المذهب الشافعي وكانت الاغلبية منهم قبيل قيام الدولة الرسولية كما يقول ابن المجاور[1] واشتهر من فقهائهم القاضي أحمد بن أبي عوف والقاضي أبو بكر ابن عيسى بن حنكاس ومحمد بن علي الصريفي والفقهاء بنو العلوي وغيرهم وتوارث الاحناف إمامة جامع الاشاعر بزبيد حتى أوائل القرن التاسع فتولاه أحد فقهاء الشافعية وهو الفقيه علي بن محمد بن فخر المتوفى سنة ٨٤٥[2] ويقول الجندي اعلم أن وادي زبيد الغالب على أهله مذهب أبي حنيفة وكذلك وادي جبس ولكن زمع وحيس يغلب على أهلها العامية ولم أكد أسمع لهم بفقيه.

وبقيت أسر قليلة بمدينة زبيد تحتفظ بمذهب الامام مالك بن أنس وهو أقدم المذاهب الفقهية باليمن الا أنه كاد ينقرض بعد دخول مذهب الامام الشافعي وظلت اسرة بني المزجاجي تحتفظ بمذهب الامام مالك حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري ..

وحسب قول الجندي نجد العلم بالفقه قد ارتبط بالدين وهو المهم المحمود وقد خضع الفقهاء للمناصب الدينية التي يفرضها عليهم تخصصهم الفقهي واشتغل الاغلب منهم بالمهام القضائية وقليل منهم من تولى الاشراف على المساجد والقيام بإمامة المصلين والأذان ومما يدخل في هذا الجانب تولي الخطابة بالناس يوم الجمعة وغيرها من المناسبات الدينية وأصبح يتعاطاها كل من هب ودب من سائر الوعاظ حتى كادت أن تفقد صبغتها الادبية وهي صنعة قديمة في اليمن فقد ذكر الهمداني من قدماء الخطباء في صنعاء مطرف بن مازن المتوفى سنة ١٩١[3] وغيره . أما في العصر الرسولي فقد أصبحت الخطابة مهنة دينية خالصة تتوارثها أسر معينة كأسرة آل الدملوي التي اشتهرت بجمال الصوت وحسن الالقاء وكان من أشهر خطبائهم الفقيه عبد الرحمن عبد الله الدملوي المتوفى سنة

(١) المستبصر ص ٨٨ .
(٢) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٢٩٠ .
(٣) صفة جزيرة العرب ص ٨٣ .

٧٤٩ ولّى الخطابة مدة طويلة بجامع زبيد وبعد وفاته خلفه ولده محمد وكان كوالده حسن الصوت ثم توفي سنة ٧٥٢ يقول الخزرجي « كان أفصح من خطب وأحسن من قرأ في عصره » ثم ولي الخطابة بعده أخوه عمر بن عبد الرحمن وبلغ النهاية فيها وشاع ذكره وطال عمره ولم يزل خطيب المدينة وقارىء الحديث بجامع الاشاعر نحو خمسين سنة الى أن توفي سنة ٨٠٠ هـ واشتهرت أسرة آل الدملوى بالخطابة حتى قال بعض الناس من المبالغين ، ان لهم نغمة صوتها أحسن من سائر أصوات البشر»(١) . وكان قد تولى خطابة جامع الاشاعر قبل عبد الرحمن الدملوي الخطيب عمر المقدسي وآخرون ومن متأخري الخطباء في العصر الرسولي الخطيب أبو بكر بن يوسف ابن المستأذن يصفه البريهي بقوله رتب بجامع عدن فكان خطيبا مصقعا حسن الصوت سريع الدمعة تجتمع له القلوب وكان يبكي من حضره الله وعمره سبعون سنة وبعد وفاته سنة ٨١٥ تولى الخطابة بعده ولده عبد الرحمن . وربما شارك في الخطابة بعض العلماء الوافدين الى اليمن . ويغلب على هؤلاء جانب التكلف والمحاباة للسلطان فقد حدث أن دخل أحد هؤلاء جامع ذي عدينة فكان يخطب على البديهة ويتوسع في الكلام ويطول لسانه بذكر ما لاينبغي ويقول في خطبه الحمد لله الناصر الملك يشير الى الملك الناصر أحمد بن اسماعيل الرسولي فلما سمع ذلك أحد علماء اليمن وهو الفقيه رضي الدين الشنيني قام على باب المنبر وقال للخطيب اتق الله عما أنت بصدده واقصر خطبتك(٢) .

أما المؤذنون فليس بأيدينا شيء من أخبارهم سوى ما ذكره البريهي عن واحد من مؤذني مدينة إب وهو الفقيه أبو بكر حسين وكان حسن الصوت حلو القراءة (رتب للأذان في جامع إب فكان يرقى المنارة في آخر الليل ويسبح بحمد الله ويكبر باخلاص وحضور قلب وينشد القصائد الوعظية وغيرها في المنارة في

---

(١) طراز اعلام الزمن (مخطوط) .

(٢) تاريخ البريهي ص ٢٥

جنح الليل فيكون لكلامه وقع في القلوب ويسمع صوته على مسافة ثلاثة أميال ومكث بجامع إب نحو ثلاثين سنة يعتكف في كل فرض من وقت الأذان الى فراغ الصلاة فلايخرج أثناء ذلك مهمادعت الصرورة)[1] توفي رحمه الله في سنة ٨٢٢هـ .

وكان الليل في ذلك الوقت مسرحا لتلاوة المقرئين وانشاد المنشدين وتسبيح المسبحين وأذان المؤذنين ويشاركهم في ذلك أصوات أهل العبادة والقائمين بالاسحار وجماعة الصوفية فيحيون الليل بأذكارهم وتهليلهم وربما قام أحدهم بالسماع والرقص في جوف الليل (فيفزعون الاطفال ويزعجون النوّام بأصواتهم العالية)[2] حتى أفتى بعض الفقهاء بعدم جواز ذلك وطلب من شيخ بلد (بني سيف) أن يمنع هؤلاء الصوفيه من القيام بسماعهم في الليل فأجابه الى ذلك ومكثوا مده لا يقومون بسماعهم حتى توفي ذلك الفقيه الساعي في اسكاتهم وهو الفقيه عبد الله الكاهلي المتوفى سنه ٨٣٥ فعاد الصوفية الى عادتهم القديمة[3] . وهذا نموذج مما كان يقام في قريه صغيرة من قرى (معشار حصن ريمان الجاح) أما في مدينه تعز وزبيد وغيرهما من المدن الكبيره فالحياه مليئة بالاذكار والعبادات وكان الشيخ اسماعيل بن أبي بكر الجبرتي المتوفى سنة ٨٠٦ يقوم بحفلة السماع في مسجده بزبيد صلة الليل الى أذان الفجر وربما وصلت أصواتهم الى قصر الملك المجاهد فلا يرى بأسا في ذلك[4] .

* * *

(١) المصدر السابق ص ٥٠
(٢) المصدر السابق ص ٣٥
(٣) المصدر السابق ص ٣٥
(٤) المرحاحي : عدة السالك (مخطوط)

الحياة العلمية

انتشر العلم في عصر بني رسول وعم أكثر المدن والقرى اليمنيه • ومع ذلك نجد المؤرخ الجندي كعادته في وصفه للاحداث ودقته يشكو من غلبة الجهل على بعض المدن والقرى ويصف مدناً بأكملها بالجهل كمديني حيس وزمع على الرغم من قربهما لمدينة زبيد مدينة العلم والنور • وفي رحلاته العديدة الى القرى اليمنية لا يفوته أن يعلق على الحالة العلميه لتلك البلدان فعندما دخل مدينة المخادر سنة ٦٧٣ نجده يقول (لم أجد فيها من العلماء سوى فقيه واحد) وأما القرى الصغيره فحدث عن جهل أهلها ولاحرج حتى بلغ بهم الامر أنهم اذا حدثت لهم حادثة فقهية اتفقوا عليها بالمصالحة والتراضي . وقد وصف الجندي أيضا (قريه الدايه) من جبل سورق بالعامية وهذه حضرموت بأكملها يصف الجندي أهلها بالبداوه الشديدة والجهل •

أما عدن فبسبب قلة العلماء بها اشتغال أهلها بالتجارة وهي مع ذلك ، أول ما يقابل الزائر اذا دخل اليمن فيعتقد كثير من الزوار أن جهل أهل عدن شامل لكثير من المدن اليمنية ولذلك قال أحدهم لما دخل عدن(١) .

لمـا دخلـت اليمنـا   رأيت وجهي حسنـا
أف لهـا مـن بلـدة   أفقـه من فيهـا أنـا

لكن العلم قد قوي شأنه بعد ذلك وأصبح له مراكز علمية كبيرة يؤمها الطلبة من كل صوب بل أصبحت مدينة زبيد ثالثة المدن العلمية في جزيرة العرب بعد مكة والمدينة يفد اليها العلماء بعد فراغهم من الاخذ عن علماء مكة والمدينة وكان لتشجيع ملوك الدوله الرسوليه للعلماء أثر في إحياء تلك النهضة الفكريه الكبيرة في اليمن ومنهم من تشرب بحب العلم وساهم فيه بالعديد من المصنفات

(١) السلوك (مخطوط)ص ٣٤٦ .

كالملك المظفر يوسف المتوفى سنة ٦٩٤ هـ الذي صنف في علم الفلك والطب كتباً كثيرة منها كتاب (تيسير المطالب في تسيير الكواكب) و (المخترع في فنون الصنع) و (العقد النفيس في مفاكهة الجليس) وغيره من الكتب . وصنف ابنه الملك الاشرف عمر بن يوسف المتوفى سنة ٦٩٦ كتابا في الاسطرلاب وكتاب التبصرة في علم النجوم وكتاب الجامع في الطب والمعتمد في الادوية المفرد وكتاب المغني في البيطره ، وفي علم الزراعة كتاب التفاحة في علم الفلاحة،وفي الأنساب كتاب طرفة الاصحاب وتحفة الاداب في الانساب وغير ذلك من الكتب . أما أخوه الملك المؤيد فله عدة كتب أكثرها في علم الادب وكتاب في (البيزرة) . والملك المجاهد علي بن داود المتوفى سنة ٧٦٤ اهتم بوجه خاص بطب الحيوان فألف كتاب (الأقوال الكافية والفصول الشافية) بحث في آخره الوباء العام الذى وقع في اليمن في عصره وأهلك الكثير من خيول الدوله . وألف الملك الأفضل عباس بن علي المتوفى سنة ٧٧٨ مصنفات في عدة علوم كعلم السياسة صنف فيه كتابه (نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء) وهو مبوب على فصول . وفى علم الزراعه وضع كتابا بعنوان (بغية الفلاحين في الاشجار المثمرة والرياحين) ووضع في علم التاريخ عدة كتب جيدة ككتابه (العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية) وكتاب (نزهة العيون في طوائف القرون) ، وفى الانساب كتاب (بغية ذوي الهمم في معرفة أنساب العرب والعجم) وغيره .

ومن المؤرخين من يشكك فى نسبة تلك الكتب الى الملك الأفضل ويزعم أنها من تأليف قاضي تعز الفقيه أبي بكر بن محمد بن يوسف الصبري وضعها على لسان الملك الأفضل(١) . ولايخلو هذا القول من الصحة ، حيث إن من عادة ملوك الدولة الرسولية المباهاة بتلك المصنفات وان لم تكن من تأليفهم . وكان الملك المظفر يفاخر في رسالة بعثها الى الظاهر بيبرس أن لانه مصنفا في علم الطب(٢) وآخر من اشتغل بالتأليف من ملوك الدولة الرسولية هو الملك الاشرف

---

(١) الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ج ٥ ص ٩٦

(٢) العقود اللؤلؤية ج١ ص ٢٧٨ .

اسماعيل بن عباس المتوفى سنه ٨٠٣ وكان من عادته في التأليف أن يشرع في أبواب الكتاب الرئيسيه ثم يأمر من يتمها بعد ذلك(١) . وقد وضع المؤرخ الخزرجي عدة كتب على لسانه ككتاب (العسجد المسبوك) وكتاب (فاكهة الزمن في أخبار من ملك اليمن) .

وعلى العموم فان اشتغال ملوك الدولة الرسولية بالتأليف يدل على إقبالهم على العلم وحرصهم على الانتساب اليه . وقد تميزت مصنفاتهم بظاهرة فريده قد لاتتكرر في تاريخ الفكر اليمني قاطبة وهي الاهتمام بالجانب العلمي من البحث فكتبوا في علم الفلك والطب والزراعة والبيطره وغيرها من المواضيع العلمية التطبيقية في حين كان معاصروهم من ملوك الدول الاسلامية منشغلين بقضاياهم الخاصة والعامة ولم يعيروا الجانب العلمي أدنى اهتمام ، أما معاصروهم من الأئمة الزيدية في اليمن فقد ساهموا بدورهم في التأليف وربما فاقوا ملوك الدولة الرسولية في هذا الجانب إلا أن كتبهم ظلت محصورة بينهم .

وقد بلغ من حرص ملوك الدولة الرسولية على العلم أن يتفرغوا للدراسة على فقهاء اليمن . فهذا الملك المظفر يقرأ على الفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي وعلى الفقيه محمد بن ابراهيم الفشلي في علم الحديث وعلى الفقيه محب الدين الطبري في علم الحديث أيضا وعلى الفقيه ابن العمك في علم النحو وكان الفقيه محمد بن عبد الله الريمي يقول طالعت كتب الملك المظفر فوجدتها كلها مضبوطة بخطه حتى من رآها يقول لم يكن له شغل طول عمره الا بالعلم بل بلغ الامر بالملك المظفر أن يبعث برسالة الى خراسان للبحث عن النسخة الأم من تفسير القرآن للامام للرازي لوجود نقص في نسخته فيظفر بها بعد جهد ويجد النقص كما هو عنده في نسخته . وكان الملك المؤيد يحفظ عدة كتب من أمهات الفنون ككتاب مقدمة طاهر في النحو وكتاب كفاية المتحفظ في اللغة والجمل للزجاجي والتنبيه للشيرازي وغيره .

---

(١) السخاوي . الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٩٩ .

وكانوا يحرصون على مجالس العلم والمشاركة فيها وقد جعلوا شهر رمضان خاصا بمقابلات العلماء والاجتماع بهم ويصفه ابن المقري مجالسهم في شعره فيقول مخاطبا الملك الاشرف :

وحلقة علم يسقط الطير فوقها منزهه الأرجا عن اللغو والهجر
بها ظل أهل العلم حولك عكفا كما عكفت زهر النجوم على البدر[1]

وهذا يجرنا الى الحديث عن تكريم الدولة الرسولية للعلماء وتشجيعها للبحث العلمي . وقد كرمت الدولة الرسولية العلماء في شخص الفقيه العلامة محمد بن عبد الله الريمي عندما انتهى من كتابة موسوعته الفقهية (التفقيه شرح التنبيه) بأن حمل كتابه على رؤوس الطلبة الى قصر الملك وكافأه عليه بثمانية وأربعين ألف درهم . ويقال إنه أول مادخل على الملك المجاهد أعطاه أربعة شخوص ذهبية وزن كل واحد منها مائة مثقال وكتب على كل واحد منها شعرا :

اذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طراً قبل أن تتفلت
فلا الجود يفنيها اذا هي أقبلت ولا الشحّ يبقيها اذا ما تولت[2]

وعندما حمل كتاب (الاصعاد في الاجتهاد) للفيروزابادي الى باب السلطان الاشرف احتفل بالفراغ منه بالطبول والاغاني وكافأه عليه بثلاثة آلاف دينار ، وكان ملوك الدولة الرسولية يرغبون في العلماء ونادرا ما يسمحون لهم بالرحلة من اليمن[3] . ومن طريف ما يذكر أن الفيروزابادي طلب من الملك الاشرف السماح له بالعودة الى مكة فكتب اليه الملك الاشرف يقول : (ان هذا شيء لاينطق به لساني ولايجري به قلبي فقد كانت اليمن عمياء فاستنارت فكيف يمكن أن تعزم وأنت تعلم أن الله قد أحيا بك ما كان ميتا من البلد فبالله عليك الا ماوهبت لنا بقية هذا العمر والله يا مجد الدين يميناً بارة اني أرى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك أنت اليمن وأهله)[4] . وهذا يدل على إعزاز الملك الأشرف للعلماء وتكريمه لهم . وربما سامح الكثير منهم في ضرائب أراضيهم ومزروعاتهم .

---

(١) ديوان المقري ص ٨٣
(٢) قرة العيون ج ٢ ص ٩٢ وتاريخ اليمن في عصر الدولة الرسوليه لمجهول ص ٤٥
(٣) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٢٩٧
(٤) الضوء اللامع ج ١ ص ٨٤

وأعفى جماعة كالفقيه علي بن أحمد الاصبحي المتوفى سنه ٧٠٣ والفقيه عبد اللطيف بن أبي بكر الشرجي المتـوفى سنه ٨٠٢ والمؤرخ علي بن حسـن الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢ وغيرهم كثير من الصوفية وأهل الدين • ويقـول الحبشي إنه جرت العاده أن جميع الفقهاء في وصـاب وغيرها لايدفعون شيئا للدولة على مزروعاتهم •

وكان تقرب ملوك الدولة الرسولية الى العلماء صورة واضحة من صور محبتهم للعلم • وقد علت الهمه ببعضهم الى أن يراسـل مشاهير العلماء خارج اليمن ويستكتبهم في القدوم الى البلاد كما سترى في فصل لاحق[1] ولذلك يقول العمري إن صاحب اليمن يرغب دائما في استقدام الغرباء[2] وربما استوفد الى اليمن جماعة من ذوي الاختصاصات المختلفة كالصنعة وعلم الفلك والموسيقا فقد ذكر الخزرجي أن الملك المؤيد استقدم الى اليمن سنة ٧٢٠ عالم الهيئة والهندسة الأمير بدر الدين حسن بن أحمد بن المحار وكان حسب تعبير الخزرجي « عارفا بعلوم الأوائل ولم يكن في الديار المصرية والشامية من يناسبه في معـرفة علم الهيئة والهندسـة والمنطق وقد فرح السـلطان بوصوله فرحا شديدا »[3] وبين يدي الملك المظفر وضع العلامة محمد بن أبي بكر الفارسي المتوفى سنة ٦٧٥ كتبه في علم الموسيقا ككتاب (دارة الطرب) وكتاب (الالحان) وغيرهما • وكذلك وضع هذا العالم كتابه (الزيج) في علم الفلك وأسماه باسم الملك المظفر والذي يهمنا هنا هو الاشارة الى رغبة ملوك الدولة الرسولية في نشر العلوم على مختلف أنواعها ، وقد مر بنا مساهمة ملوكهم في بعض العلوم المجردة كالفلك والطب والهندسة والزراعة وغير ذلك وهو أمر جديد على اليمن لم تعهده من قبل •

---

(١) ألقينا هذا الفصل بعد تضخم الكتاب ونحيل القارىء الكريم الى مقالنا المنشور في مجلة اليمن بعنوان . العلماء القادمون الى اليمن في العصر الرسولي ، انظر اليمن الجديد العدد الاول محرم سنة ١٣٩٤ هـ •

(٢) مسالك الابصار

(٣) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٣٥

وكانت العلوم الاسلامية مصدر رواج كبير في ذلك الوقت أقبل عليها العلماء في زبيد وغيرها حتى أصبح الفقهاء بمكانة عالية في الدوله . قصدهم الملوك وطلبوا ودّهم ، وربما رحل الملك المظفر وهو في إبان ملكه الى منزل الفقيه أحمد بن محمد الزبراني في (سهمنة) وأكل معه في بيته كسرات خبز يابسة[1]، وعندما علم بعلو سند الفقيه عبد الله بن يحيى الهمداني في (كتاب البيان) طلب حضوره من قريته وقرأ عليه الكتاب بأكمله وكذلك كان ينزل المظفر عند الفقيه محمد بن اسماعيل الحضرمي يقرأ عليه في (صحيح البخاري) مع شدة انكاره عليه وولاه القضاء على كراهة منه ..

ونستخلص من كل هذا أن الدولة الرسولية كرمت العلماء واعتنت بالبحث العلمي حتى تفرغ العلماء لدروسهم وكتاباتهم وهم في هدوء تام وراحة بال .. وقد خصصت الدولة للعلماء أوقافاً كبيرة وجعلت جزية اليهود خاصة بمرتباتهم . ومن العلماء من يحصل على مرتبات إضافية غير المقرر الرسمي كالفقيه عبداللطيف ابن أبي بكر الشرجي الذي كان يحصل في كل شهر على مرتب قدره ثمانمائة درهم مع جماعة من العلماء وذلك بعد أن أتم السلطان الملك الاشرف على الفقيه قراءة كتب النحو وأمره بتصنيف شرح (ملحة الاعراب) وشرح (مختصر ابن عباد) ولما ختم الكتاب أجازه السلطان بجائزة سنية وكساه كسوة فاخرة وأركبه بغلة حسنة وجعل له أرزاقا من جملة المرتزقين في كل شهر ثمان مئة درهم وسامحه في خراج أرضه ونخله . وهذا غاية التكريم ..

ومع ذلك لم يكن كل العلماء في حالة مساوية من الرخاء المادي ومنهم من استلم مرتبات سنوية مقابل قيامه بالتدريس في مدارس الدولة الرسولية . ونادراً ما كانت هذه المرتبات تسد كل حاجات العلماء الشخصية ، فيعوض ذلك النقص بالاشتغال في بعض الاعمال التجارية وقد مارس التجارة كثير من علماء

---

(١) السلوك (مخطوط)

الدولة الرسولية كالفقيه حسين بن علي العدني المتوفى سنة ٦٣٠ الذي اشتغل بجانب التدريس بالتجارة في القوه ، وكالفقيه محمد بن أحمد الغيثي المتوفى ٦٥٩ . كان أثناء تدريسه يتعاطى بيع العطر في مدينة عدن . ومنهم من تلبي بالفقر نتيجة الورع الشديد بل نجد منهم من حرص كل الحرص على عدم أخذ شيء من أموال الدولة مع شدة الفقر وكثرة العيال ، وهذا هو الفقيه أبو بكر بن علي الحداد المتوفى سنة ٨٠٠ يصاب بكثرة الاولاد مع الفقر المدقع فيأتيه أحد عمال الدولة بمال كثير من الملك الافضل يقدر بنحو مائة دينار فيرفض أن يأخذها ويقول للخادم ارجع بها الى السلطان يصرفها في مصالح المسلمين . وكان أكثر تكسبه من النساخة . وكانت النساخة حرفة كثير من العلماء الورعين الذين حرصوا على البعد عن أبواب السلطان . ومن هؤلاء الفقيه أحمد بن أبي بكر البريهي المتوفى سنة ٨٢٥ « عاش على طريقة السلف الصالح من الاشتغال بالعلم والعمل والورع وكان معظم قوته من أجرته على نسخ كتاب الله تعالى (القرآن) وكتب الحديث والفقه واذا جمع من ذلك ما يسد خلله (جوعه) نسخ لنفسه كتباً كثيرة بخطه » . ومع ذلك فهذا الفقيه كان من كبار علماء اليمن وله مصنفات في علم الفقه والحديث سنذكرها فيما بعد . ومنهم من اشتغل بالزراعة وجعلها حرفته كالعلامة الفقيه موفق الدين علي عطية الدملوي المتوفى سنة ٨٣٦ والحديث عن حرف العلماء يطول لو أردنا استقصاء ذلك . وربما رجعنا الى هذا الموضوع عند كلامنا على مرتبات المدرسين في الدولةالرسولية.

وكان العلماء من أحرص الناس على نشر العلم وتلقيه ولايهمهم في ذلك ما يلاقونه من صعاب وقد بلغ الامر ببعضهم أن يترك الزواج ليتفرغ للعلم[1] . وكثير منهم من قطع المسافات الكبيرة لطلب العلم فرحلوا الى مصر والشام والعراق وقد كثرت رحلاتهم في هذا العصر الذي ندرسه فرحل الى مصر الفقيه أبو القاسم بن موسى الذؤالي وتوفي بها ورحل الى دمشق العالم المصر يحيى بن أبي

(١) تحفة الزمن ج ٢ ص ٨١ و ٨٨

القاسم العلوي وقد دخل أيضا مدينة بغداد والري والديلم • ومن الرحلات العلمية الناجحة في ذلك الوقت رحلة العلامة اليمني أحمد بن محمد الشرعبي المتوفى سنة ٨٣٧ دخل دمشق ومكث بها مدة يطلب العلم حتى توفي بها • ويذكر البريهي كثيراً من تلك الرحلات العلمية كرحلة محمد بن عمر الشعبي دخل دمشق للاخذ على شيخها ابن الوردي وهو أول من أدخل كتاب (البهجة) في الفقه لشيخه المذكور • ورحل الى مصر والشام من أهل تعز الفقيه علي بن سعيد الزبيدي من علماء آخر العصر الرسولي وغيره كثير • وهذا يدل على حرص علماء اليمن على الأخذ عن علماء الاسلام في شتى أقطارهم وان كان الأكثر منهم قد اكتفى بالأخذ عن العلماء الوافدين الى مكه والمدينه وهم الأغلبية حيث نجد أكثر أولئك العلماء قد حجوا الى مكة ومنهم من عرج الى اليمن لقرب المسافة •

وكان ابتهاج العلماء في اليمن أشد ما يكون بالكتب • حتى أرخ بعضهم دخولها واحتفل بها فقد ذكر (الجندي) احتفال العلماء بدخول شرح (العزيزي) في الفقه وحرص شيخه الاصبحي على نسخه • وعندما دخل اليمن لأول مرة كتاب (مغني اللبيب) في النحو لابن هشام احتفل به الأدباء في صنعاء وقرظوه بالعديد من الرسائل من ذلك ما كتبه الاديب ابراهيم بن يحيى بن قاسم الهادي الذي يقول في أول تقريظه:(لما وصل الأخ أحمد بن محمد البريهي أبقاه الله الى صنعاء مصحوبا بما يشرح الصدور من علوم الاعلام الصدور وبما تقر به العيون من فنون الأفنان العيون • وكان مما استصحب من دفاتر علومهم وذخائر معلومهم كتاب العلامة ابن هشام المسمى (المغني) في دقائق مسائل الإعراب فأتحفني بعاريته أياما وهو بغيتي المقصودة وضالتي المنشودة)[1] الخ • ولا نستغرب من ذلك الاهتمام من قبل علماء اليمن بدخول الكتب فقد كان ملوك الدولة الرسولية بإشارة من العلماء قد احتفلوا بها غاية الاحتفال حتى كان ذلك تقليدا

(١) انظر الرسالة في مطلع البدور (خ) •

منتشياً عند ملوك الدول المتأخرة كالدولة الطاهرية التي اقتفت في أسلوبها أسلوب ملوك (آل رسول) فقد ذكر المؤرخون أنه لما وصل لأول مرة الى مدينة زبيد (كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري) لابن حجر العسقلاني سنة ٩٠١ احتفل به السلطان عامر الظاهري احتفالا كبيراً[١] .

وقد حرص العلماء على اقتناء الكتب ونسخها ونادراً ما يموت العالم منهم دون أن يترك مجموعة كبيرة من الكتب فتصير بأيدي ورثته لا يقدرون قيمتها وقد باع ورثة الفقيه عبد الله بن محمد المخلافي كتب والدهم بأبخس ثمن مع حرصه في العناية بها في حياته . وبيع كتاب الوجيز للغزالي من جملة كتب سعيد ابن عبد الله من ناحية الشوافي بعشرة دنانير تقديراً لمالكه . ولما توفي الفقيه بكر ابن يحيى المردساني بحث الجندي عن كتبه فلم يقف على شيء منها وقيل له أن ابنه مال الى صحبة الأمراء فأهدى أكثر كتب والده اليهم عن طريق التقرب اليهم . ويحدثنا البريهي عن كتب العلامة الكبير محمد بن أبي بكر الخياط بعد وفاته فيقول : (إنها تفرقت بعد أن جمعها واجتهد في تحصيلهاوضبطها وهي زيادة على سبعمائة كتاب) . وكذلك كتب الفقيه موسى بن أحمد الوصابي المتوفى سنة ٧٢١ يقول الحبشي في تاريخ وصاب إنه لما مات غفل ذريته عن كتبه سنتين فأصابها بلل وكانت نحو خمسمائة مجلد فتلفت كلها ولم يبق إلا اليسير . لذلك حرص العلماء قبل وفاتهم على وقف كتبهم وحبسها على طلبة العلم .. كالعلامة أحمد بن محمد البريهي الذي حصر وقف كتبه على أتباع عقيدة أحمد بن حنبل وقد وقف الجندي في القرن السابع الهجري على نص وقف كتبه فوجد مكتوباً بخط البريهي على أحد أجزاء البخاري يقول : (وقفه أحمد بن محمد وجميع الكتب المنسوبة اليه من الحديث والأصول والفروع والفرائض والتفسيرواللغة والنحو وهي ثمانون كتاباً على أهل السنة ممن وجد فيهم الشروط فمن خرج عن الشرط ببدعة أو ما ترد به الشهادة خرج من الوقف ولا حق في الوقف لمبتدع

---

(١) انظر خبر هذه الطريقة في بغية المستفيد (ع) .

وإذا لم يبق مستحق من نسل الواقف فأهل السنة فيها سواء أبدا ما نصب لعن الله من يملكها أو يملكها أو يسعى في فساد الوقف أو يكتمها على من يستحقها أو يعيرها من لا ينتفع بها اذا سئل بشرط الحفاظ ، كتبه أحمد بن محمد تقبّل الله منه . كتب بتاريخ ٥٨٤) . فهذا أقدم نص في وقف الكتب وسجد العلماء بعد البريهي قد حرصوا على وقف كتبهم . وكان الفقيه محمد بن مضمون بن عمران المتوفى سنة ٦٣٣ يقتفي أثر شيخه البريهي في وقف كتبه ويكتب على كل كتاب منها هذه الابيات :

وقفٌ حرامٌ وحبسٌ دائمُ الأبدِ	بقاء رجا ثواب الواحدِ الصمدِ
على الصحابةِ المشهور مذهبهم	من آل بيت أبي عمران ذي الرشد
ثم الحنابل طراً بعد أن عدموا	سيّان غائبهم أو حاضر البلد
لا حظّ فيه لبدعي يخالفني	أو كان منفداً ما ليس منفذي .. الخ

أما الفقيه أحمد بن محمد الشاوري المتوفى سنة ٨٣١ فإنه أوقف كتبه على أولاده وأحفاده وشرط أن كل من ترك الصلاة منهم لا حظّ له في الوقف . وهكذا تتعدد صيغ الوقفيات والقصد منها حفظ الكتب بعد موت أصحابها وكانت هذه الوقفيات والتمليكات عليها مستندا رئيسيا للمؤرخ الجندي في معرفة أسماء العلماء وأماكن وجودهم فلا يسأل على شيء اذا وصل الى قرية أو مدينة الا على بقايا تلك الكتب وتصفحها .

وما دمت بصدد الحديث عن الكتب فلا بد أن نقف عند المكتبات في ذلك العصر فهي الزاد الرئيسي لطلاب العلم ..

وفي زمن قلة الكتب تكون هذه المكتبات هامة إذ ليس باستطاعة كل الناس الحصول على الكتب إلاّ بمشقة كبيرة من نساخة وأثمان باهظة وقد عرف كثير من العلماء بقلة الكتب لتلك الصعوبات حتى إن بعضهم آثر الهجرة من قريته ليكون في مدينة تضم مكتبة عامة كالفقيه مقبل بن خلف الهمداني المتوفى سنة

٥٧٩ الذي استقر بمدينة (ذي أشرق) ليكون على صلة بمكتبتها الموقوفة (هاله كان قليل الكتب)[١] .

ولايتحصل على الكتب إلا من كان ذا سعة وأموال كثيرة وفي مقدمة هؤلاء ملوك الدولة الرسولية الذين جمعوا لأنفسهم مكتبات كبيرة وربما عينوا في دواوينهم من يقوم بنسخ الكتب الجديدة الوافدة الى اليمن وكان مكتب الملك المؤيد الرسولي يضم نحو (عشرة نساخ ينسخون الكتب وترفع الى خزانته بعد مقابلتها وتحريرها)[٢] وقد ضمت مكتبة هذا الملك نحو مائة ألف مجلد ويحمل اليها الكتب النفيسة من كل صوب حتى أنه وصل اليه نسخة جيدة من كتاب الأغاني بخط ياقوت المستعصي فبذل فيها مائتي دينار ..

وكان الملك المظفر يبعث الى خارج اليمن من يبحث له عن نوادر المخطوطات وقد ذكر الجندي واحداً من أولئك الرسل وهو الفقيه شرف الدين الاربلي[٣] وكذلك الملك الأفضل والمؤيد وغيرهم . ولا تزال بعض مقتنيات مكتبات ملوك الدولة الرسولية محفوظة الى الآن[٤].

وقد حذا حذوهم في جمع الكتب جماعة من صغار الامراء وأثرياء العلماء منهم الامير عبد الله بن العباس الحجاجي المتوفي بتعز نحو سنة ٦٧٠ وقد ضمت مكتبته أكثر من خمسة آلاف مجلد وكالعلامة أبي الخير بن منصور الشماخي

---

(١) بن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ١١٥
(٢) ابن عبد المجيد بهجة الزمن ص ١٣٢
(٣) الجندي : السلوك ويذكر السخاوي في الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٤ ه أن الفقيه محمد بن محمد المخزومي المتوفى سنة ٨١٧ هـ قدم الى زبيد من مصر وعمل في السماحة المعروفة عند الملك الاشرف ».
(٤) من هذه الكتب الموجودة الى الآن نسخة من كتاب لباب الالباب لابن خلف النحوي من مكتبة الملك المظفر يوسف بن عمر الرسولي وعليها خطه محفوظة بمكتبة حسن حسني بتونس ونسخة من كتاب التعجيز شرح التنبيه للريمي النسخة التي نسخها الى الملك المجاهد وكافأه عليها بتعز . ونسخة من كتاب منتخب الصوت للعلوي من مكتبة الملك المؤيد الرسولي كتبت سنة ٧٠٤ ومحفوظة الآن بمكتبة الاستاذ حسين محفوظ ببغداد الى غير ذلك .

المتوفى سنة ٦٨٠ يقول الجندي في وصف مكتبته[1] (جمعت خزانه من الكتب ما لم يجمعه غيره من نظرائه بحيث قيل إن فيها مائة أصل سوى المختصرات) ومن أصحاب المكتبات في ذلك الوقت الشيخ أبو بكر بن محمد التميمي المتوفى في سنة ٦٩٦ جمع مكتبة كبيرة أوقفها على طلبة العلم بمدينة صنعاء[2] ومنهم الأديب الموسوعي عمر بن علي العلوي المتوفى سنة ٧٠٣ ضمت مكتبته مجموعة نادرة من الكتب بلغ مافيها من الدواوين الشعرية وحدها نحو خمسمائة ديوان[3] وكذلك الامير محمد بن محمد الحسام توفي سنة ٧٠٧ (جمعت مكتبته من الكتب ما لم تجمعه مكتبة أحد من نظرائه) • ومن المكتبات في هذا العصر أيضاً مكتبة الفقيه المحدث سليمان بن إبراهيم العلوي المتوفى سنة ٨٢٥ حوت مكتبته في تعز مجموعة نفيسة من الكتب ومكتبة العلامة محمد بن سعيد بن كبن المتوفى سنة ٨٤٢[4] ضمت مكتبته نحو ألف كتاب أكثرها من نسخ يده والبعض بالشراء • وآخر ما نذكره من جامعي الكتب في ذلك العصر الفقيه محمد بن داود الوحصي المتوفى سنة ٧٠٧ حوت مكتبته ألف مجلدة أغلبها جاءته بالشراء • فهذه نبذه صالحة من أسماء المكتبات في العصر الرسولي تدلنا على إقبال العلماء في ذلك العصر على أنه من المفيد أن نشير الى أن تلك المكتبات كانت في عمومها مقصدا لطلاب العلم على الرغم من ملكية أصحابها لها ونادرا ماكانوا يحرمون المستفيدين منها بل نجد البعض منهم قد أوقفها على العلماء بعد وفاته ومع ذلك فان مدارس بني رسول قد ضمت أيضا مجموعات نفيسة من الكتب الفقهية بذلت لسائر الطلبة على مختلف ميولهم وكانت مدرسة الرشيدية بتعز تضم مكتبة ثمينة وغيرها من المدارس الآتي ذكرها .

---

(١) الخزرجي العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٥٧ •

(٢) المصدر السابق لوحة ٤٦١

(٣) ابو مخرمة تاريخ تعز عدن ص ٩٥

(٤) تاريخ البريهي لوحة ٢٤٥

التعليم

إذا تجاوزنا العلم والعلماء في العصر الرسولي فستجد التعليم قد مثل مظهراً آخر من مظاهر الحياة العلميه فى ذلك الوقت وقد شرف العصر فى تلك المدة بكثره المدارس حتى أصبح المنطلق الحقيقي لبدايه النهضة التعليمية فى اليمن وقد ولع سلاطين الدولة الرسولية بانشاء المدارس على مختلف أنواعها وهم مقتفون في ذلك آثار أسلافهم بني أيوب في اليمن ومصر حيث نص هؤلاء في إنشاء المدارس المحمه في مصر ودمشق ومن يتأمل كتاب الخطط للمقريزي يجد مصداق ماقلناه أما في اليمن فقد كانت لهم مدارس كبيره لعل أقدمها المدرسة السيفية التيأنشأها بتعـز المعز بن اسماعيل بن طغتكين سنة ٦٩٣ ونسبها الى والده سيف الاسلام طغتكين وهي كما يقول المؤرخ يحيى بن الحسين (أول مدرسه أنشئت باليمن) وفي هذا العصر أيضاً أسس الامام عبد الله بن حمزة مدرسه في صنعاء كما أسس الأتابك سنقر بن عبد الله المتوفى سنة ٦٠٨ مدرستين بزبيد احداهما تسمى المدرسة العاصمية والأخرى (الدحمانية) نسبة الى مدرسين بهما وهكذا أسس العصر الايوبي في اليمن فكره المدارس العلمية فورثها عنهم بنو رسول وتوسعوا فيها توسعاً كبيراً حتى عمت المدارس أغلب القرى والمدن اليمنية على الرغم من عدم تشجيـع بعض العلماء لهم في بدئهـا وقد هجاها أحدهم بشعر يفضل فيه المساجد على المدارس فقال :

بع المدارس لو علمـت بدارس ... يغلوا وآخر صفقة لمشتري
دعهـا ولازم للمسـاجد دائمـاً ... إن شئت تظفر بالثواب الأوفر

وكانت المدارس بجانب اهتمامها بالتعليم ملجأ للغرباء والتجار يقصدونها عند أول نزولهم حتى إنها قامت في فتره من الزمن بدور الفنادق والسماسر مما دلّ على عدم احترام الناس لها في أول ظهورها • وقد شهدت المدارس فى ذلك

العصر المخصص العلمي لأول مرة ما ساء الملك المنصور عمر بن علي الرسولي ثلاث مدارس متخصصة ندريس المذهب الشافعي والمذهب الحنفي وعلم الحديث وسبب ذلك أن الملك المنصور لما أنشأ مدرسة للشافعية عصب عليه الأحناف وقال له فقيههم العلامة أبو بكر بن عيسى بن حنكاش : (ما فعل بك أصحاب أبي حنيفة فقال له السمع والطاعة يا فقيه وبنى المدرسه المنصوريه السفلى لأصحاب مذهب أبي حنيفة) ثم تعددت المدارس وشارك في بنائها بجانب الملوك جماعة من الأمراء والعلماء والتجار • وسنستقصيها بقدر الطاقة والإمكان في هذا التبت المختصر بالمك هذه المدارس كما ذكرها الجندي وغيره من مؤرخي الدولة الرسولية(١):

أولا ــ مدارس زبيد :

المدارس المنصوريات . هي ثلاث مدارس أنشــأها الملك المنصور عمر ابن علي الرسولي بزبيد إحداها المدرسة المنصوريه العليا خاصه بالمذهب الشافعي والثانية المدرسة المنصورية السفلى للمذهب الحنفي • وقد درس بهاتين المدرستين جماعة من الاساتذه منهم أحمد بن سليمان الحكمي المتوفى سنة ٧٠٣ درّسا في المدرسه الاولى ، وفي الثانية درّس فيها الفقيه أبو بكر بن عيسى السراج المتوفى سنة ٧٠٥ والفقيه علي بن نوح المتوفى سنه ٧٥١ والفقيه أبو بكر بن علي العاملي المتوفى سنه ٧٦١ وغيره كثير •

وللمنصور مدارس أخرى غير السابقتين منها مدرسة أهل الحديث بزبيد وأخرى بجد المنسكية •

المدرسة الناجية

هي من قديمات المدارس بزبيد أسسها الطواشي تاج الدين بدر بن عبد الله المظفري وكان من مماليك الاميرة « بنت جوزه » زوجة الملك المنصور عمر ابن علي وتوفي سنة ٦٤٥ وتعرف هذه المدرسة باسم آخر هو «مدرسة المبردعين» وسبب تسميتها بهذا الاسم هو أن صناع البرادع يتجمعون عندها فسميت بهم •

(١) وللتوسع في هذا الموضوع يراجع بحثنا المنشور في مجلة الغد •

وهي مخصصه في دراسه الفقه ، وأوكل الاشراف عليها الى الفقيه بني محمد ابن عمر ودرس فيها الفقيه علي بن عبد الله الريمي أحد علماء الفرائض والحساب في العصر الرسولي توفى سنه ٧١٤ ومن المدرسين بهذه المدرسة أيضا الفقيه أبو العباس أحمد بن صالح بن اسمعيل الحضرمي المتوفى سنه ٧٢٢ .

مدرسة القراء :

من انشاء الطواشي فتح الدين سابق خصصها لقراء القراءات السبع وعين فيها إماماً للصلاه ومؤذناً لصلوات الخمس وأوقف عليها أوقافاً طائلة . ولهذا الطواشي مدرسه أخرى بمدينة زبيد خصصها لقراءه الحديث النبوي وعين لها أوقاف كسائر المدارس السابقة .

المدرسة النظاميه :

هي من أشهر المدارس في زبيد أسسها الطواشي نظام الدين المظفري من شجعان الدولة الرسوليه توفي سنه ٦٦٦ وتناوب التدريس فيها جماعة منهم الفقيه علي بن محمد تمامة المتوفي سنه ٧٨٧ أحد مشاهير الفقهاء في عصره ومن مصنفاته في الفقه مختصر المنهاج للنووي ، ومختصر كتاب المعين للمرصي .

المدرسة الدعاسيه :

نسبة الى مؤسسها الفقيه الاديب سراج الدين أبو بكر بن عمر بن دعاس المتوفى سنة ٦٦٧ ويحدد موقعها في القرن الثامن الفقيه المؤرخ علي بن حسن الخزرجي فيقول : « تقع مابين سوق المجارة والسوق الكبير في زبيد » وقد خصصها بقراءة الفقه الحنفي ومن المدرسين فيها الفقيه ابراهيم بن مهنا المتوفى سنه ٧٤٣ .

المدرسه الشمسيه :

أسسته بزبيد الاميرة الدار الشمسي ابنة الملك المنصور وهي من

أوائل النساء المحسنات في العصر الرسولي توفيت سنة ٦٩٥ . ومدرستها تقع جنوبي سوق المعاصر كما يقول الخزرجي وعليها وقف كبير يقوم بكفايتها . .

المدرسه المعيقيه :

من انشاء الملك المؤيد داود بن يوسف المتوفى سنة ٧٢١ درس بها الاديب عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني المتوفى سنة ٧٤٤ .

المدرسة السابقة :

وتسمى أيضا مدرسه مريم نسبة الى مؤسستها السيده مريم بنت الشيخ الشمسي بن العفيف زوجه الملك المظفر المتوفاة سنة ٧١٣ يقول الخزرجي في وصف هذه المدرسه « وهي من أحسن المدارس وضعا رتّبتْ فيها إماماً ومؤذناً ومعلما وأيتاما يتعلمون القرآن ومدرسا للفقه على المذهب الشافعي ومعيدا وطلبه وأوقفت على الجميع وقفا يقوم بكفايتهم » وأول من درس بها من الاساتذة الفقيه أبو الحسن الشرعبي المتوفى سنة ٧٠٢ وقد أقام مدرسا بها عدة سنوات على كبر سنه وضعف قواه ..

المدرسة الفاتنية :

من مدارس زبيد لم أتحقق تاريخها ودرس بها الفقيه عمر بن علي الزيادي السابق الذكر . تم ترميمها سنة ٧٩٢ .

المدرسة الفرحانية :

ذكرها الخزرجي ضمن المدارس المرممة سنة ٧٩٢ .

مدرسة المسلب : .

من المدارس التي قام بترميمها القاضي عبد اللطيف بن محمد بن سالم سنة ٧٩٢ .

المدرسة الميكائيلية

من مدارس زبيد ولعلها تنسب الى الامير نور الدين بن ميكائيل أحد الامراء في العصر الرسولي عاش في زمن المجاهد .

المدرسة الهكارية :

من مدارس زبيد لم أتحقق تاريخها ودرس بها الفقيه عمر بن علي الرددي السابق الذكر والمتوفى سنة ٧٠٣ .

مسجد الاشاعر :

من المساجد الهامة في زبيد وتقام فيه حلقات دراسية علما وقلما يخلو في سائر أيام الاسبوع من مدرس وطلبة يدرسون علم الحديث والفقه وكان يستأثر به الحنفيه حتى زمن الملك الظاهر الرسولي فولى إمامته الفقيه الشافعي علي بن محمد بن فخشر ، وفي هذا المسجد عقد العلامه النحوي بدر الدين محمد ابن أبي بكر الدماميني القادم من مصر الى اليمن سنه ٨١٩ مجالسه الادبيه وكذلك عقد فيه العلامة محمد بن محمد الجزري مجلسا في الحديث أثناءوصوله الى زبيد في زمن الملك الناصر الرسولي ونادرا ما يأتي عالم الى اليمن ولايقصده. ويذكر المؤرخ الاهدل أن عمارة هذا الجامع في صورته الحالية كانت سنة ٤٢٥هـ في زمن سيف الاسلام بن طغتكين .

ثانيا ـ مدارس تعز :

المدرسة السيفية :

هي أول مدرسة أنشئت في تعز بناها المعز اسماعيل بن طغتكين الايوبي في موضع دار للاتابك سنقر بن عبد الله سنة ٥٩٣ ونسبها الى والده سيف الاسلام طغتكين بن أيوب المتوفى سنة ٥٩٣ وهو مقبور بها وخصص لها المعز أوقافا كثيرة منها وادي ظبا بأكمله ورتب فيها جماعة من القراء بالسبع القراءات . وظلت هذه المدرسة قائمة حتى القرن التاسع حيث نجد السخاوي

يشير الى بعض المدرسين بها ومن أساتذتها الفقيه علي بن عثمان الاشهي أحد العلماء القادمين الى اليمن سنة ٧٠٧ •

المدرسه الاتابكيه :

نسبة الى مؤسسها الاتابك(١) سنقر بن عبد الله المتوفى سنة ٦٠٨ أحد أمراء الدوله الايوبية بناها في ذي هزيم من نواحي تعز وعرفت بالمدرسة الاتابكيه وعندما قتل الملك المنصور الرسولي في هذه الناحية قبر في هذه المدرسة لكونه متزوجا بابنة الاتابك سنقر بن عبد الله • وبقيت هذه المدرسة قائمة مده طويلة ومن المدرسين بها الفقيه أبو بكر بن جبريل المتوفى سنه ٧٤١ والفقيه اسحاق بن أحمد بن يحيى بن زكر المتوفى سنة ٧٥٦ وهو من كبار المدرسين فيعصره•

المدرسة المجيرية :

من المدارس القديمة بتعز ويعود رسمها الى وقف العزيز طغتكين أسسها الامير مجير الدين كافور التقي أحد المقربين لسيف اسلام بن طغتكين وكان هذا الامير من المشتغلين بطلب العلم وأخذ الناس عليه في علم الحديث والى هذه المدرسة تنسب حارة كبيره في مدينة تعز يقال لها حول مجير الدين يصفها الخزرجي في القرن الثامن بأنها قريبة من مرتاع البقر في مدينة تعز •

المدرسة الوزيرية :

هي أول المدارس التي أنشأها الملك المنصور في تعز سميت باسم أول مدرس فيها كما هي العادة في تسمية المدارس في ذلك الوقت اذ لم تُسَمَّ تلك المدارس باسم مؤسسيها الا في عصور الملوك المتأخرين من آل رسول وأول من درس بها من العلماء الفقيه أحمد بن عبد الله بن أسعد الوزيري وبه سميت المدرسة لطول إقامته فيها توفي سنة ٦٦٢ وقد تناوب على التدريس فيها جماعة من بني

---

(١) الاتابك لفظة تركية معناها الولد الامير وربما اطلقت على من ربى أولاد الملوك وهو من ألقاب التشريف • انظر القلقشندي في صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨ •

الوزيرى منهم الفقيه أحمد بن محمد الوزيرى وكان من كبار العلماء الورعين توفى سنه ٦٦١ ومن أقدم المدرسين فيها الفقيه أحمد بن ابراهيم بن أبى عمران من أهل مدينه إب وما زال الملك يتلطفه في الوصول الى تعز للتدريس بمدرسته الوزيرية حتى أجابه الى ذلك وقرأ عليه المنصور بعض الكتب العلميه توفى سنة ٦٣٣ ودرس بهذه المدرسة أيضا الفقيه أبو بكر بن محمد بن سعيد الحضرمي الازدي المتوفي سنه ٦٨٩ ودرس بها أيضا الفقيه أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن زريق من أهل جبله توفي سنة ٧٠٣ فهؤلاء هم كبار المدرسين بالمدرسة الوزيرية وهناك جماعة أخرى تركناهم لاجل الاختصار .

المدرسه الغرابية :

من مدارس الملك المنصور بتعز سميت باسم مؤذنها الغراب وكان رجلا صالحا . ومنهم من يطلق عليها اسم المدرسة المنصورية وهذه التسمية متأخرة وتناوب في التدريس عليها جماعه من كبار العلماء والفقهاء منهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن زكريا الكلالي الحميري المتوفى سنة ٦٦٧ وكان مقصد الناس للاخذ عليه وآخر من نذكره من المدرسين بها الفقيه الصوفي عمر بن آبي بكر بن العراق المتوفى سنه ٧٥٤ وكان من المقربين للملك المجاهد ابن رسول .

المدرسة الرشيدية :

أسسها فى تعز القاضي رشيد الدين ذو النون محمد بن ذي النون المصري توفي سنة ٦٦٣ القادم الى اليمن بصحبة الملك الايوبي المسعود يوسف بن الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب آخر ملوك الدولة الايوبية في اليمن وقد ولي للملك المسعود عدن وكان مقصد الادباء والعلماء وفى عهد الملك المنصور ولي الوزارة وأنشأ المدرسة « الرشدية » بتعز وخصص مكتبة ثمينة تحوي على أمهات الكتب بجانب أوقافها العديدة درس بهذه المدرسة العلامة الشهير أبو العباس أحمد بن عبد الله الدائم المعروف بابن الصمي الميموني المتوفى سنة ٧٠٧ ولا زالت هذه المدرسة قائمة حتى القرن التاسع حيث ذكر السخاوي أحد المدرسين بها في هذا

القرن وهو الفقيه علي بن محمد بن اسماعيل الناشري المتوفى سنة ٨١٢ •

المدرسة النظاميه :

من مدارس ذي هزيم القريبة من تعز بناها الطواشي نظام الدين مختص المظفري أحد المقربين للملك المنصور توفي سنة ٦٦٦ ودرس بمدرسته الفقيه عبد الله بن محمد الخزرجي المتوفى سنة ٦٥٥ ودرس بها الفقيه عمر بن مسعود الحميري وعليه تخرج جمع كبير من الفقهاء توفي سنة ٦٥٨ •

المدرسه العمريه :

أنشأها الامير نجم الدين عمر بن يوسف أخو الملك المظفر لأمه توفي سنه ٦٦٧ ومن المدرسين بها الفقيه عمر بن محمد بن عبد الله المتوحي المتوفى سنة ٧٠٩ وكان من العلماء الزهاد وقد أصابه دين فرحل الى عدن لقضائه فتوفي هناك •

المدرسة النجاحية :

نسبة الى مؤسسها الامير محمد بن نجح أحد أمراء الدولة الرسولية في عهد الملك المظفر يوسف بن عمر توفي سنة ٦٨١ ودرس بمدرسته الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبيد المتوفى سنة ٦٩٤ والفقيه عبد الله بن محمد بن سبا الريمي العياشي المتوفى سنة ٧١٥ •

المدرسة المظفرية :

من كبريات المدارس بتعز أسسها في مغربة تعز الملك المظفر يوسف بن عمر الرسولي المتوفى سنة ٦٩٤ وبناها على أسلوب عجيب • وخصص لها أوقافا كثيرة وعندما اكمل عمارتها استدعى لها الملك أشهر المدرسين في عصره وهو الفقيه عبد الله بن محمد بن سبا الريمي المتوفى سنة ٧١٥ ودرس بها أيضا بعد عصر الملك المظفر الفقيه محمد بن يوسف الصبري المتوفى سنة ٧٤٢ والفقيه عمر بن سعيد التعزي المتوفى سنة ٧٨٨ ودرس بها في القرن التاسع الفقيه عبد الرحمن ابن أبي بكر الزوقري تلميذ جمال الدين الريمي المتوفى سنة ٨١٦ •

المدرسة الاشرفية :

من مدارس الملك الاشرف عمر بن يوسف الرسولي المتوفى سنة ٦٩٦ وتقع في مغربة تعز وهي من المدارس الكبيرة جعل فيها استاذاً للفقه الشافعي وإماماً ومؤذناً وبئراً يسقي منها ومن المدرسين بها الفقيه أبو العباس أحمد بن عبدالدائم ابن الصمي المتوفى سنة ٧٠٧ باستدعاء من الملك الاشرف نفسه ودرس بها أيضا الفقيه أبو بكر بن أحمد بن عمر الشعبي المتوفى سنة ٧١٤ وغيرهما ويقول المؤرخ أبو مخرمة أن هذه المدرسة من تأسيس الملك المظفر يوسف بن عمر والد الملك الاشرف فيحقق .

المدرسة السابقية :

بنتها في مغربة تعز في ناحية الحميرا السيدة مريم زوجة الملك المظفر المتوفاة سنة ٧١٣ وتعرف هذه المدرسة أيضا بمدرسة الحمبراء درس فيها الفقيه علي بن محمد بن يوسف الصبري المتوفى سنة ٧٥٢ .

المدرسة المؤيدية :

من المدارس الكبيرة بتعز أنشأها الملك المؤيد داود بن يوسف المتوفى سنة ٧٢١ بالمغربة بتعز وأوقف عليها أوقافا طائلة وجعل فيها مدرسي وإماماً ومؤذناً ومعلماً للايتام ومقرئا يقرىء القرآن بالسبع القراءات ووقف عليها مكتبة نفيسة من الكتب أما المدرسون فيها فهم جماعة نذكر منهم الفقيه أحمد بن أبي بكر الاحنف المتوفى سنة ٧١٧ ومنهم الفقيه محمد بن عبد الرحمن الريمي المتوفى سنة ٧٤٨ ومنهم الفقيه عبد الله بن محمد الناشري المتوفى سنة ٨٤١ وغيرهم .

المدرسة المجاهدية :

مدرسة ضخمة أنشأها الملك المجاهد علي بن المؤيد المتوفى سنة ٧٦٤بناحية الجبيل بتعز وعين فيها إماماً ومؤذنا وخطيبا ومدرسا للفقه ومدرسا للحديث وجعل فيها مكانا للصوفية يتفرغون فيه للعبادة ودرس في هذه المدرسة الفقيه عبد الله

ابن محمد بن عمر الخزرجي المتوفى سنة ٧٣٥ وهو أول من درس فيها بطلب من مؤسسها الملك المجاهد ومن المدرسين فيها العلامة عمر بن عبد الله المليكي المتوفى سنة ٧٦٨ واشتغل فيها بدراسة علم الحديث سنة ٧٤٧ ومن علماء الحديث الذين درسوا فيها المحدث اليمني الكبير سليمان بن ابراهيم العلوي المتوفى سنة ٨٢٥ .

المدرسه الافضليه :

من مدارس الجبيل بعر أنشأها الملك الافضل عباس بن علي بن داود الرسولي المتوفى سنه ٧٧٨ وبناها على أسلوب عجيب حيث جعلها على ثلاث طبقات الاولى مربعه الشكل قويه الاركان والطبقه الثانية مثلثة الاركان والطبقة الثالثة مسدسة الشكل وبنى على رأسها مئذنة طويلة لم يكن في البلاد مثلها ثم رتب فيها إماماً ومؤذناً وقيماً عليها ومعلما للايتام ومدرسا للفقه وآخر للحديث وعين فيها جماعة من الصوفية وعليها أوقاف كثيرة لاكرام الصوفية والطلبة ومن المدرسين بها الفقيه أبو بكر علي الناشري المتوفى سنه ٧٧٢ وغيره كثير .

المدرسه المغيبية :

أنشأتها الاميرة جهة الطواشي مغيب بن عبد الله زوجة الملك الاشرف اسماعيل بن عباس الرسولي المتوفاه سنة ٧٩٦ وقد بنتها في الواسطة من تعز وخصصت لها إماماً ومؤذناً وقيماً ومدرسا وطلبة ومعلما وأيتاما لقراءة القرآن .

المدرسة الاشرفية :

وهي غير السابق ذكرها وهذه المدرسة أنشأها الملك الاشرف اسماعيل بن الافضل الرسولي المتوفى سنة ٨٠٣ ويقول من شاهدها انها مدرسة حسنة الشكل بها بابان شرقي وغربي وباب جنوبي ومقدم « ردهة » فسيح وشمسه رحبه وبنى فيها حماما نفيسا وخصص فيها إماماً ومؤذناً وقيما ومدرسا على مذهب الشافعي ومعيداً ومدرسا للحديث والفنون ومدرسا في النحو وآخر للادب وأوقف فيها عدة من الكتب النفيسة بجانب أوقافها المالية الكثيرة ..

المدرسة الشمسية :

من مدارس تعز ولم أتحقق اسم منشئها ولعلها من إنشاء الامير شمس الدين ابو علي بن رسـول المتوفى سنة ٦١٤ والد الملك المنصـور أول ملوك الدولة الرسولية • ودرس بهذه المدرسة الفقيه أبو سليمان داود بن ابراهيـم الزيلعي المتوفي سنة ٧٠٩ ودرس بها الفقيه أبوبكر بن جبريل المتوفى سنه ٧٤١ ومن المدرسين فيها الفقيه أبو بكر بن علي الدشرقي المتوفى سنة ٧٧٢ •

المدرسة الاسدية :

من كبريات المدارس في تعز لم أتحقق اسـم منشئها ولعلها منسوبة الى الامير أسد الدين محمد بن بدر الدين لحسن بن علي الرسولي المتوفي سنه٦٧٧ •

ثالثا ـ مدارس عـدن :

المدرسة المنصورية :

أسسها الملك المنصور عمر بن علي الرسولي ودرس فيها الفقيه لحلوبي المتوفى سنة ٧٦٠ وغيره •

المدرسة النجمية :

لم أتحقق منشئها ولعلها منسوبة الى الاميرة الدار النجمية عمة الملك المظفر•

المدرسة الظاهرية :

أنشأها الظاهر يحيى بن اسماعيل الرسولي المتوفى سنة ٨٤٢ • وعـرف في عدن عدة مساجد يدرس فيها العـلوم كمسجد السماع ومسـجد لسوق ومسجد الشجرة وهي كلها ملتقى الطلبة بأساتذتهم •

رابعا ـ مدارس الجنـد :

المدرسة المنصورية .

أنشأها المنصور عمر بن علي الرسولي •

المدرسة الشقيرية :

خامسا ـ مدارس ذي عدينة (بتعـز) :

المدرسة الشمسيه :

أسسنها الدار الشمسي ابنة المنصور عمر بن علي الرسولي .

المدرسة الاشرفية :

بناها الملك الاشرف اسماعيل بن العباس .

سادسا ـ مدارس ذي جبله :

المدرسة الاشرفية أو الشرفيه :

أنشأها الامير موسى بن علي الرسولى .

المدرسة الرابية .

سابعا ـ مدارس مختلفة منها :

مدرسة ذي عقب .

ومدرسه جبن وغيرها .

وقد عرفت هذه المدارس كل العلوم الاسلامية على مختلف أنواعها كالعلوم الشرعية واللغوية والادبية وشهدت المدارس في ذلك الوقت دراسات خاصه في علم الفلك والطب والحساب والمنطق يقوم بها أساتذة من أهل اليمن ومن غيرهم، ومن الاساتذه اليمنيين من اهتم بجانب الرياضة وكلف طلبته بالقيام ببعض الحركات الرياضية كالفقيه محمد بن أحمد بن بطال المتوفى نحو سنة ٦٣٠ فكان يأمر طلبته بالخروج بعد صلاة العصر الى الصحراء ويأمرهم بالتسابق والجري حتى اذا تعبوا وحان وقت المغرب أمرهم بالانصراف .

وكان الاساتذة يتقاضون مرتبات سنوية وشهرية تقتطع من أوقاف المدارس وغالبا ما تكون عينية أو نقدية تدفع من خزينة الدولة وكانت مرتبات المدرسين في عهد الدولة النجاحية تقدر بنحو اثني عشر ألف دينار أما في العصر الرسولي

فتعطى لهم مرتبات نقدية في كل شهر وتختلف هذه المرتبات باختلاف المدرسين ومكانتهم من السلطان فهذا الاديب عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني المتوفى سنة ٧٤٤ يحصل على مرتب شهري يقدر بثلاثين دينارا مقابل تدريسه في المدرسة المؤيدية وهذا أعلى قدر يحصل عليه مدرس في ذلك الوقت ..

وحصنت الدولة لمرتبات المدرسين والقضاة في البلدان جزية اليهود فسدت هذه الضريبة كثيرا من أعباء الدولة في التدريس .ومن غريب مايذكر عن المدرسين في ذلك الوقت أن التدريس يكون ببعض المدارس وراثيا كإمامة المساجد وخطابة الجمعة فيتولى الابن مهنة التدريس بعد وفاة والده أو في حياته في مدرسته التي كان يدرس بها حتى ان كثيرا من المدارس التي أنشئت في ذلك الوقت بنيت خصيصا لأساتذة معينين يدرسون بها وقد ذكر الشرجي عدة مدارس توارث أساتذتها التدريس بها .

ويكثر الطلبة حول الاستاذ كلما تبحر في العلم واشتهر شأنه فقد ضمت حلقة الشيخ زيد بن عبد الله الصاعي بعد رحلته من مكة نحو مائتي طالب وربما بلغوا نحو ثمانمائة طالب بمدرسة حجة على قلة أهلها وكذلك كانت حلقة الشيخ صالح بن ابراهيم العثري تحتوي على مائة طالب.

ومن أشهر الحلقات الدراسية في ذلك العصر حلقة الشيخ محمد بن أبي بكر الاصبحي صاحب كتاب المعين بلغ مجموع طلبته نحو ثلاثمائة طالب حتى ضاقت بهم مصنعة سير فرحل بهم الى (إب) وهذا كثير بالنسبة لقلة الناس في ذلك الوقت ومع ذلك فان الطلبة لا يأخذون على الاستاذ إلا بعد التحقق التام من علمه وأمانته ودينه وقد حدث أن قدم رجل غريب الى بلد الفقيه أحمد بن محمد الزبراني المتوفى سنة ٦٦٧ وطلب اقراء الطلبة فقال له الفقيه : إننا لا نأخذ العلم إلا عمّن تحققنا دينه وأمانته (وأنت غريب علينا ربما أوقعتنا في محظور من حيث لا نشعر) وهذا غاية التحري في الاخذ على الاساتذة ..

* * *

العلوم

عرفت اليمن علوم السنة منذ زمن بعيد وظهر فيها أفذاذ كبار من رجال الحديث والدين كطاوس وعبد الرزاق وغيرهما من قدماء المحدثين ولذلك لم تنشط في اليمن علوم الفلسفة وأهل المقالات ولم تجار اليمن في ذلك بغداد أو غيرها من الحواضر الاسلامية التي عرفت شيئا من ذلك بل إن علماء اليمن صموا آذانهم عن الاختلافات الطاحنة بين أهل الفرق في تلك البلدان وكان طاوس اذا جاءه أحد أتباع المذهب المعتزلي أو غيره صم أذنه خشية سماع كلامه .

وعلى نهج طاوس سار أكثر علماء اليمن من المتأخرين في العصر الرسولي حتى بلغ الامر ببعضهم أن يكره علم الطب ويعتبره من العلوم المزعزعة للايمان ولذلك أنكروا على الفقيه سعيد بن قيس العدائي لما اشتغل بعلم المنطق (ونسبوه الى الزندقة والخروج عن الدين) وترى الجندي يذكر جماعة من آل ابي الخل ويشير الى أنهم حادوا عن الطريق باشتغالهم (بكتب المنطق و الميل الى اعتقاد أصحاب الطبائع) وكذلك يصف جماعة من فقهاء آل السامبح بالخروج عن المذهب لمعاناتهم علم (الطب ومذهب الحكماء) .

وهكذا كانت بداية علماء اليمن في الدولة الرسولية الانكار على علوم الطبيعة والفلسفة والمنطق ولولا جهود ملوك الدولة الرسولية في تحبيب هذه العلوم الى أهل اليمن ومشاركتهم فيها بالتصنيف كما مر بنا سابقا لما عرفت اليمن شيئا من ذلك بل إن علماء اليمن أنكروا على الملك المظفر لما أراد أن يقرأ كتب المنطق على الفقيه شمس الدين البيلقاني القادم الى اليمن من فارس وسبب وجوده نزاعاً كبيراً بين الفقهاء بسبب احداث هذا الفن في مدرسة عدن . فأنكر عليه القاضي محمد بن أسعد العنسي (لان الغالب على الفقهاء باليمن عدم الاشتغال بالمنطق خاصة) .

وقليل ما ظهرت كتب الفلك وسائر العلوم غير الدينية حتى إن وجود الحسن ابن أحمد الهمداني المتوفي سنة ٣٦٠ واشتغاله بعلوم الفلسفة والطب يعتبر ظاهرة فريدة في التاريخ اليمني لم تتكرر فارجل كان على صلة وثيقة بتلك العلوم بل نعرف من مصنفاته أنه قرأ كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب المقالات لاقليدس ومن كتبه الفلسفية سرائر الحكمة وكتاب اليعسوب والقوى في الطب وغيره وكان صاعد البغدادي يعده ثاني فلاسفة العرب بعد الكندي ..

وكانت بداية اليمن بالهمداني في القرن الرابع ستكون مشجعة لظهور مصنفات فلسفية وفلكية كثيرة لولا أنها اصطدمت بجماعة من الفقهاء الحنابلة المتزمتين فانقطعت تلك الصوت بانقطاع الهمداني وظهر في النادر قلة من أتباع المذهب الحنفي من اشتغل ببعض العلوم كالمقنه أحمد بن محمد الاشعري في القرن السادس الذي ينسب له كتاب في علم المساحة بعنوان (التفاحة في علم المساحة) شرحه في القرن العاشر أحمد بن علوان الوازعي وغيره .

وقد ارتبط علم المساحة والحساب والفلك والطب بأغراض يومية تمس الحاجة اليها كالزراعة والمواقيت والفرائض والتجارة فكان لابد من المشاركة فيها وبعد انقضاء جيل الحنابلة المتشددين منذ عصر الجندي خلفهم جماعة من الاشاعرة لم يحقدوا على العلوم التجريبية ذلك الحقد الذي عرفه الحنابلة فظهرت مساهمات يسيرة في تلك الفنون وقد ساعد على الاقبال عليها بعض الشيء رغبة ملوك الدولة الرسولية في دراستها وكان الملك المظفر يحض على دراسة علم الطب ويبعث الى الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر يسأله في ذلك بل هو نفسه كتب فيه كتابه المسمى (البيان في كشف الطب للعيان) وكتب ابنه الاشرف (المعتمد في الادويه المفردة) وللمجاهد كتاب كبير في طب الحيوان بعنوان (الاقوال الكافيه) ـ وتحت رعاية الملك المظفر كتب العلامة اليمني محمد بن أبي بكر الفارسي المتوفي سنة ٦٧٧ كتابه في الطب (الدرة المنتخبة في الادوية المجربة) وهو موجود ببعض المكتبات وله كتاب آخر في

معرفه السموم وكتاب آخـر ق علم البيطره وهكذا كان الاقبال على الطـب تحريض من ملوك الدولة الرسوليه وقد اشـهر في أواخر الدوله اثنان من كبار علماء الطب في اليمن هما الصنبرى وأبي العيث الكمراني ••

الصنبـري :

وأما الصبري فهو الفقيه مهدى بن على بن ابراهيم الصبري اشتهر في علم القراءات والفقه والطب وتوفى بالمهجم سنة ٨١٥ ه له (كتاب الرحمة في الطب والحكمه) وهو عير كتاب السيوطي المسمى بنفس الاسم وقد قسمه على خمسة أبواب . الاول ، في علم الطبيعه ، والثاني في طباع الاغذية والادوية،والثالث فيما يصلح للبدن في حال الصحه ، والرابع في لامراض الخاصة،والخامس فىالامراض العامة ، ومن هذا الكتاب عده نسخ خطيه وقد طبع فى أوروبا ••

الكمـراني :

وأما الثاني فهو الشيخ محمد بن أبي العيث الكمراني ولد بأبيات حسين• وأخذ على جماعة من علماء زبيد حتى أصبح أحد الفقهاء البارزين ثم اشتغل في آخر عمره بعلم الطب وتوفي سنة ٨٣٧ له (كتاب شفاء الاجسام) في الطب كتاب مشهور نقل أكثر مادته صاحب تسهيل المنافع •

علم الفلـك :

ونمضي مع العلوم التجريبيـة في العصر الرسولي فنجـد علم الفلك قد استعاد نشاطه وظهر أول كتاب فيه بعد مؤلفات الهمداني كتاب الفقيه الجندي أبو اسحاق ابراهيم بن علي بن المردع المتوفى نحو سنة ٦٦٠ وهو كتاب مبسوط الحجم يصفه الجندي بقوله : عليه اعتماد الناس فى علم المواقيت وهو بعنـوان (التواقيت في علم المواقيت) منه عده نسخ خطية • وكما كانت البداية فى علم الطب سلاطين آل رسول كذلك كانت بداية علم الفلك بصورته الشاملة ••

فقد نسب الى الملك المظفر كتابه « تيسير المطالب في تسيير الكواكب »

ولابنه الاشرف (التبصره في علم النجوم) وفي عصر المظفر ألف العلامة محمد بن أبي بكر الفارسي السابق الذكر عدة كتب في علم الفلك منها (نهاية الادراك في أسرار علم الافلاك) وكتاب (الزيج المظفري) ونسبه الى الملك المظفر وكتاب (معارج الفكر البهيج في حل مشكلات الزيج) . ويختم هذا العصر بكتاب العلامة الفلكي أبي العقول المسمى (الزيج المختار) وقد أطنب الباحث الامريكي دافيد كنج في وصف هذا الكتاب وقيمته العلمية وهو يشتمل على جداول فلكية في غاية الدقة جعلها محسوبة لعرض مدينة تعز وتشمل على فصول السنة والفصول الزراعية .

علم الحساب :

وفي علم الحساب والجبر والمقابلة والمساحة ظهر عدة مؤلفات جيدة لعل أقدمها كتب العلامة الحساب أحمد بن عمر بن هاشم المريحي المتوفى سنة ٦٨٠ وكان أحد رجال هذا الفن في اليمن ولي ديوان المخلاف وسكن ذي جبلة ومن كتبه في علم الحساب (كتاب جواهر الحسب) وكتاب (شرح مختصر الخوارزمي) في الجبر والمقابلة عليه اعتماد الطلبة في هذا الفن . وألف في علم الحساب الفقيه الحنفي أبو بكر بن علي الهاملي المتوفى سنة ٧٦٩ كتاب (مفيد الطلاب في معرفة الحساب) وآخر من تخصص في هذا الفن وبرز فيه العلامة محمد بن عبد الله بن سلم أحد علماء جبلة المتوفى سنة ٨٠٥ له عدة كتب في علم الحساب منها (لوامع طوالع السعدي في شرح الهندي) في الحساب وكتاب (عجالة المبتدي في شرح الهندي) وله أيضا كتاب (كفاية المهتدي في شرح الهندي).

علم الزراعة :

وعرف هذا العصر ظاهرة علمية فريدة لم نشهدها في غيره حيث اهتم ملوك الدولة الرسولية بالتأليف في علم الزراعة والفلاحة والتأليف فيها فألف الملك الاشرف الاول كتابه (النفاحة في علم الفلاحة) وألف الملك الافضل كتاب (بغية الفلاحين في الاشجار المثمرة والرياحين) وشاركهما في هذا العلم جماعة من

علماء اليمن المتأخرين كالفقيه حمزه بن علي الناشري المتوفى سنة ٩٢٦ صاحب كتاب (حدائق الرياض) ، والفقيه حسين ابن أبي القاسم الاهدل صاحب كتاب (كشف القناع في أحكام الزراع) .

العلوم الاجتماعية والسياسية :

واذا تجاوزنا هذا النوع من العلوم فسنجد العصر قد ساهم في التأليف في نوع آخر من العلوم المفيدة في بابها فألف في علم السياسة وقوانين الدولة جماعة من العلماء أولهم الفقيه الشافعي أبو عبد الله محمد بن علي القلعي المتوفى سنة ٦٣٠ ألف كتاب (تهذيب الرئاسة في ترتيب السياسة) منه نسخة مخطوطة بمدينة زبيد . وكتب في هذا الفن الفقيه أحمد بن محمد المحلي المتوفى سنة ٦٥٢ رسالته الفريدة المسماة (نصيحة الولاة الهادية الى النجاة) وقد طالعتها فوجدتها مفيدة في بابها ، وتلاه جماعة من علماء الدولة الرسولية أولهم الملك الرسولي الافضل عباس بن علي المتوفى سنة ٧٧٨ له كتاب (نزهه الظرفاء وتحفة الخلفاء) في علم السياسة وقد سبق ذكره ثم تلاه الفقيه عبد الرحمن بن محمد الحبيشي المتوفى سنه ٧٨٠ فألف: أحكام الرئاسة في آداب السياسة وألف العلامة محمد ابن موسى الذؤالي سنة ٧٩٠ كتابه المسمى (التحفة المدونة في أحكام السلطنة) ووضع الاداري الكبير حسن بن علي الحسيني المتوفى سنه ٨١٥ كتبه القيمه في قوانين الدواوين الرسولية . ومنها كتاب (ملخص الفطن) السابق الذكر وكتاب (الديوان الجليل في معرفة التقليل والتسعير) . وآخر من نذكره من مصنفي الدولة الرسولية الفقيه محمد بن عبد الله الناشري المتوفى سنة ٨٢١ له كتاب (النصائح الايمانية لذوي الولايات السلطانية) وهكذا يترسخ هذا الفن في التراث اليمني بكثرة التصنيف فيه . وللعلماء المتأخرين عن العصر الرسولي جملة مصنفات أخرى يجدها القارىء في كتابي (مصادر الفكر الاسلامي)[1] .

---

(١) وقد طبع أخيرا ضمن منشورات مركز الدراسات اليمنية .

على أنه من المفيد الاشارة هنا الى أن للعلماء الوافدين الى اليمن مساهمات جليلة في تلك العلوم وقد ذكر صاحب نفح الطيب أن أبا حي القرطبي أحد فلاسفة الاندلس دخل الى اليمن سنة ٤٤٢ ولقي حظوة كبيرة عند ملكها الصليحي واستقر باليمن حتى وفاته وكان (بصيرا بالهندسة وعلم النجوم) وهذا العالم أغفل ذكره مؤرخو اليمن مع شهرته في ذلك الوقت واحيائه للعلوم الفلسفية في البلاد .

ومن شاكله أبي حي كثير من العلماء دخلوا اليمن بدافع علمي بحت . وفي العصر الذي ندرسه نجد أن السلطان المؤيد قد استقبل بفرح شديد عالم الفلك العلامة بدر الدين حسن بن المختار ودخل على اثره جماعة من الاطباء والمهندسين والصناع وغيرهم وفي ذلك يقول العمري (ولاتزال ملوك اليمن تستجلب من مصر والشام طوائف أرباب الصناعات).

* * *

الحياة الثقافية

اتضح لنا من الفصول السابقة أن العصر الرسولي كان زمن علم وتعليم فلا غرابة أن تظهر المدارس العلمية على مختلف الاتجاهات وسرو فيها على وجه الخصوص المدرسة الاسلامية بشتى فروعها الاختصاصية وقد كان لأهل اليمن ولع شديد بالعلوم الاسلامية وكيف لا يكون ذلك وقد ارتبط حبهم بهذا الدين منذ أول ظهوره في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وترسخ في نفوسهم حب الرسول صلى الله عليه وسلم لهم حتى جمع بعضهم الاحاديث الواردة في أهل اليمن فجاءت مجاميع فريدة في بابها استقصاها في أوائل القـرن السـابع العلامة محمد بن اسماعيل بن أبي الصيف المتوفى سنة ٦٠٩ هـ في كتابه (فضائل اليمن وأهله) والفقيه أحمد بن عبد الله الهمداني في كتابه (فضل اليمن) وغيرهما . وكان آخرهم في العصر الحديث العلامة محمد بن علي الاهدل في كتابه (الدر المكنون في فضائل اليمن الميمون). وشغفوا بعلم الفقه لارتباطه بالتعاليم الاسلامية التي دعا اليها ديننا الحنيف ومع ذلك لم يكن تأليفهم فيه وتدوين قواعده الا لحاجة ماسة الى ذلك ولم يدخل علماء اليمن مجال التصنيف اعتباطا كما نجده عند أكثر علماء الاسلام الذين ولعوا بالكتابة لمجـرد تكثير أسـماء مصنفاتهم وتعدادها فلم يعرف عن علماء اليمن كثرة المصنفات وربما مات العالم منهم عن مصنف واحد والبعض حرص كل الحرص على أن لايترك شيئا من كتبه والنسك في العبادات والاذكار وكان أحدهم يقول لو أردت أن أضع في حرف الباء من بسم الله الرحمن الرحيم أربعين وقرا من الكتب لاستطعت لكن يمنعه من ذلك اشتغاله بذكر الله .

والعالم الوحيد في هذا العصر الذي اشتهر عنه كثرة المصنفات هو العلامة الامام يحيى بن حمزة المتوفى سنة ٧٤٩ هـ الذي ترك مجموعة كبيرة من الكتب في مختلف المجالات العلمية حتى وصلت الى نحو سبعين كتابا وعدت أيامه بكراسات كتبه فزادت كتبه على أيامه ولكن هذه الكثرة من المصنفات تختفي عند العلماء الذين أتوا قبله وبعده ولم نجدها إلا عند علماء القرن الثاني عشر والثالث عشر. وقد سئل العلامة عبد الله بن حسن الدواري المتوفى سنه ٨٠٠، أن يضع للطلبة مصنفا في علم التفسير فقال . « فيما صنعه علماء الاسلام الكفاية »و كان أحدهم قد شرع في شرح كتاب (التنبيه) في الفقه فلما وصله شرح ابن يونس للكتاب ووجده مطابقا في المقصود محا ما كتبه ..

ولهذا حرص فقهاء اليمن على استقدام الكتب الفقهية من خارج اليمن ومراجعتها بمصنفاتهم . وقد أعاد العلامة علي بن أحمد الاصبحي المتوفى سنه ٧٠٢ تصنيف كتابه المعين لما وصلته نسخة من كتاب (شرح الوجيز) للعزيزي ..

وكان استقدام المتون والشروح من أهم ماعنيَ به الفقهاء فوصلت الى اليمن مجموعة من الكتب العلميه المدروسة في مختلف الاتجاهات العلميه .. ففي علم القرآن والتفسير ولع المفسرون بتفسير القرآن لابن النقاش على الرغم من عدم اشتهاره في موطنه الاصلي في بغداد وقد بلغ من شغفهم به أن بعضهم كان يستحضره غيبا ويحض الطلبة على حفظه ..

واعتنى العلماء في هذا العصر أيضا بكتاب الوسيط في التفسير للواحدي حتى إن العلامة اسماعيل بن محمد الحضرمي المتوفى سنه ٦٧٧هـ تفرغ لوضع ملاحظات نقدية حوله . أما (تفسير الكشاف للزمخشري) فله شأن كبير عند فقهاء مذهب الامام زيد ، وشرحه واختصره أكثر من عالم من أشهرهم اهميه المفسّر يحيى بن أبي القاسم العلوي المتوفى سنه ٧٥٢ فقد وضع حاشية عليه عرفت بحاشيه العلوي . واختصره في مؤلف مستقل العلامة عبد الهدى المتوفى سنة ٧٩٢ في

كتابه الجوهر الشفاف ووضع العلامة علي بن أبي القاسم المتوفى سنة ٨٣٧ هـ أكثر من كتاب حول الكشاف منها : تجريد الكشاف وكتاب الدر الشفاف • وشأن هذا الكتاب أكبر عند الفقهاء المتأخرين •

ومادمنا بصدد الحديث عن الكتب الواردة الى اليمن فسنجد العلماء قد حرصوا كل الحرص على استقدام الكتب الفقهية الشهيرة ككتب الشيرازي والغزالي والنووي واستحضروا معها الكتب الشارحة لها • ومنذ زمن الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي واقبال الناس شديد على كتب العلامة أبي اسحق الشيرازي واندفعوا في استحصال كتبه الفقهية (التنبيه) و (المهذب) و (اللمع) • واعتنوا بها العناية الفائقة • وكان ابن سمرة يقول في وصف كتاب المهذب الكتاب الشريف والتصنيف المبارك الكامل غاية المجتهدين ونهاية المؤثرين الذي تفقه به المصنفون وعليه يعتمد المفتون • ثم أطنب في وصفه وكان المهذب المقرر الرسمي لمدارس الدولة الرسولية وقد شرحه جماعة من أفضل الاساتذة كالفقيه عبد الله بن يحيى الصعبي المتوفى سنه ٥٥٣ والفقيه يحيى بن أبي الخير العمراني المتوفى سنة ٥٥٨ والحسين بن أبي بكر الشيباني المتوفى سنة ٥٨٣ وموسى بن محمد الطويري (من أهل القرن السادس) ومحمد بن اسماعيل الاحنف المتوفى (في القرن السادس) أيضا، ومحمد بن علي المتوفى سنة ٦٣٠ واسماعيل بن محمد الحضرمي وأحمد بن موسى بن عجيل المتوفى سنة ٦٩٠ وعلي بن احمد الاصبحي المتوفى سنة ٧٠٢ •• وغيرهم كثير ، ولايزاحم كتاب المهذب في هذه المكانة العاليه التي وصل اليها عند علماء الدولة الرسولية سوى الكتاب الثاني للشيرازي وهو كتاب التنبيه ، وقد بلغ الافتتان به الى حد الهوس فحفظوه وبالغوا في تجويده ••

ونادرا ما يظهر عالم من علمائهم دون أن يضع تعليقا أو شرحا عليه ، وانظر الى هذه القائمة لتتضح لك ما قلناه فقد شرحه جماعة من العلماء الذين سبقوا قيام العصر الرسولي بسنوات قليلة فلا نذكرهم هنا وانما نشير الى أولئك الذين شرحوه خلال ذلك العصر منهم الفقيه أحمد بن محمد السبتي المتوفى سنة

٦٧٥ والفقيه محمد بن عبد الله العمراني المتوفى سنة ٦٩٥ وأحمد بن عمي العامري المتوفى سنة ٧٢١ ٠٠

واشتهر في هذا العصر شرح العلامة محمد بن عبد الله الريمي المتوفى سنة ٧٩٢ حتى ان الدولة الرسولية احتفلت بالفراغ من هذا التصنيف في حفل مهيب وقد مر بنا ذلك ٠٠ ثم شرحه بعد الريمي الفقيه نور الدين علي بن أبي الازرق المتوفى سنة ٨٠٩ في شرحين كبير وصغير وقفت عليهما في بعض المكتبات ٠

وعندما وصل (التنبيه) لاول مره استشكلت مسائل فيه على الفقيه أبي الحسن علي بن القاسم الشراحيلي المتوفى سنة ٦٤٠ فحررها وبعثها الى علماء بغداد بصحبة العلامة رضى الدين الصغاني ٠

وكذلك كانت عناية الفقهاء بكتاب الشيرازي في أصول الفقه المسمى باللمع وقد سد ثغره كبيرة في هذا الباب حيث كانت عناية أهل اليمن قبله بكتب محلية صغيرة ليست ذات بال وشرحه جماعة من علماء الدولة الرسولية منهم الفقيه عبد الله بن أسعد الوزيري المتوفى سنة ٦١٣ وشرحه في كتابه (غاية المطلب والمأمول) ثم شرحه الفقيه موسى أحمد الوصابي المتوفى سنة ٦٢١ وشرحه أحمد ابن مقبل العلهي المتوفى سنة ٦٣٠ ٠

ولما دخلت كتب الغزالي الفقهية اليمن أقبل عليها العلماء أكثر من إقبالهم على كتبه الكلامية ولهذا لم تشتهر هذه الكتب في اليمن حتى قال أحد العلماء وهو الفقيه التباعي مفضلا كتب الغزالي الفقهية :

أحب فروعه وألج فيها ‏ ‏ ‏ وأكره ما يصنف في الأصول
لأن مقالة فيه مقالٌ ‏ ‏ ‏ لأرباب الشريعةِ والعقول
فست بخائض للخوض فيها ‏ ‏ ‏ لأسلمَ بعد من خطر الدخول

وقد بلغ تأثير كتب الغزالي على فقهاء اليمن وصوفتها الى حد أن أحدهم هام على وجهه وترك أولاده وأسبابه المعيشية بعد فراغه من مطالعة كتاب الاحياء

.. أما الفقهاء فكانت عنايتهم بكتب الغزالي الفقهية واستعملوا كتابيه (الوجيز) و (الوسيط) في الدراسة العلمية ، وكان من أشهر المعتنين بهذا الفقيه محمد بن عمر التباعي وهو القائل للأبيات السابقة في التفضيل بين كتب الغزالي ، وقد شرح الوسيط جماعة من كبار العلماء في ذلك الوقت منهم العلامة محمد بن عبد الله الهرمل المتوفى سنة ٦٦٨ والعلامة اسماعيل بن محمد الحضرمي المتوفى سنة ٦٧٥ وأحمد بن علي العامري المتوفى سنة ٧٢١ ومحمد بن سعيد أبو شكيل المتوفى سنة ٧٢٩ وعلي بن محمد الناشري المتوفى سنة ٧٣٩ وغيره . ويقول الجندي أن كتب الغزالي لم تصل الى اليمن إلا بعد ظهور كتب الشيرازي والعمراني بفترة ليست بالقصيرة .

ويذكر الجندي شدة عناية العلماء بكتب الشيرازي فيقول (عكف الناس عليها منذ القرن الخامس حتى الثامن حتى لم يكد أحد يتفقه بغيرها إلا بعد التفقه منها) . وقد قال بعض علماء العجم وقد أقال باليمن ورأى إقبال الناس على مؤلفات الشيرازي أن (العالم منهم متى نقل من غيرها قل أن يستجاد نقله أو يستكمل عقله) . ولما ظهرت كتب النووي واتصل الناس بها وصلت الى اليمن وزاحمت كتب الشيخين أبي اسحاق والغزالي وكان أكثر ولع الناس بكتابه (المنهاج) ولا أدل على ذلك من هذه الشروح الكثيرة التي وضعت عليه في اليمن كشرح الفقيه عبد الرحمن بن محمد البريهي المتوفى سنة ٨٢٧ وغيره ، ومنهم من حفظه عن ظهر قلب كالفقيه أبي بكر بن أحمد السهيلي المتوفى سنة ٧٤٤ والفقيه علي بن محمد الصبري المتوفى سنة ٧٥٢ وغيرهما كثير .

واشتهر في الدراسة بين الطلبة كتاب (الحاوي) الصغير للقزويني وقد أدخله الى اليمن العلماء القادمون اليها في العصر الرسولي فما كان بأسرع من إقبال العلماء والطلبة عليه حتى قام بشرحه بعض الفقهاء أمثال العلامة محمد بن حسن السراج المتوفى سنة ٧٥٠ وأبي بكر بن محمد الخياط المتوفى سنة ٨١١ وأحمد ابن أبي بكر البريهي المتوفى سنة ٨٢٥ وغيرهم .

وظل أهل اليمن في العصر الرسولي يعتنون بالكتب الفقهية الواردة اليهم حتى ظهر فيهم جماعة من فحول الفقهـاء أمثال ابن أبي الخير العمراني وغيره فاستعاضوا بكتبهم عن غيرها بعض الشيء . ويطول بنا البحث لو أردنا استقصاء الكلام عن عناية أهل اليمن بكتب الفقه الواردة اليهم ، ولعلنا سنعود الى هذا الموضوع عند حديثنا عن الفنون الاسلاميه .

أما اهتمامهم بعلوم الكلام والجدال فهو اهتمام ضعيف الاثر وهم بقدر قربهم من علم الفقه نجدهم نفروا كل النفور من العلوم الكلامية وخاصة مايتعلق بعلم الخلاف والفرق ولم يعرف أهل اليمن مصنفا في هذا الفن سوى (كتاب الحروف السبعة) للفقيه حسين بن جعفر المراغي المتوفى سنة ٣١٤ وهو في عقيدة الحنابلة وقد أنكر عليه المؤرخ الجندي بعض مسائل وردت في كتابه وسأل عنها شيوخه ويقول : (لعلها أدخلت عليه من قبل أهل الضلال) .

وقد نجحت في اليمن حملة الغزالي على الفلسفة وما يتعلق بعلوم أهل الكلام حتى دعا أكابرهم الى إيمان كإيمان العجائز لايعرف الاستقصاء والتقعر في ماهية التوحيد ولم يدخل علماء الدولة الرسولية في هذا الفن الا فيما كان ضرورة لازمة يحتم عليهم البحث درسها كمعرفة أصول التوحيد وما يجب الاعتقاد به وقد حفلت بها كتبهم الفقهية ولم تفرد بمصنفات خاصة وقد حمل دعوة الغزالي في ترك التعمق في علم الكلام العلامة اليمني الكبير محمد بن ابراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٤٠ فحمل على الفلاسفة والمناطقة في كتابه (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) وفيه يقول[١] :

كم من فتـى منطقي كافر نجس	كالكلب بل هو شر منه في الهون
يرى وساوس أهل الكفر منقبـة	فهماً ويسـخر من طـه وياسين

وكان الفلاسفة قد استشرى شرهم حتى كان منهم (من عادى علوم القرآن

(١) محمد بن ابراهيم الوزير ترجيح اساليب القرآن على اساليب اليونان .

وفارق فريق العرفان وصنف في التحذير من الاعتماد على مافيه من التباين في معرفة الاديان) • وهذا غاية ما وصل اليه الفلاسفة في ذلك الوقت •

وفي صنعاء راجت علوم المعتزلة والعلوم العقلية وانكب علماؤها في التصنيف على تلك القواعد وساعدهم في ذلك جماعة من العلماء الباطنية كالفقيه حسين بن علي الانف المتوفى سنة ٦٦٧ هـ وابنه علي المتوفى سنة ٦٨٢ وكان علامتهم علي ابن محمد الانف المتوفى سنة ٦١٢ هو أول من رد على الغـزالي فيما اتهم به الاسماعيلية في كتابه (فضائح الباطنية) فصنف الانف في الرد عليه كتابه (دامغ الباطل) ووصلتهم في ذلك الوقت (رسائل اخوان الصفاء) فتأثر بها جماعة من علمائهم وألف على منوالها العلامة ابراهيم بن حسين الحامدى المتوفى سـنة ٥٥٨ كتابه (كنز الولد) وغيره •

وتكثر الردود في هذا الفن وهي زائدة على اللازم حتى سماه بعضهم علم الجدل والخلاف لكثرة تلك الردود والمناقضات المملة ، فقد أمضى الناس جل أوقاتهم في متابعة تلك العثرات والنقائض وما بالك برجل اشتغل أكثر وقتـه بمقارعة الابطال يضع في الرد على رسالة صغيرة كتابا في نحو ألف ورقة هو كتاب (الشافي) للامام عبد الله بن حمزة •

وكان أهل السنة على الرغم من عدم ميلهم للخوض في علم الكلام نجدهم قد تابعوا المعتزلة في ردهم عليهم ووصمهم بالجبر والحشو فألف الفقيه يحيى بن أبي الخير العمراني كتابا بعنوان (الانتصار في الرد على القدرية الاشرار)ويعني بهم المعتزلة ، ثم تبعهم ابن أبي القبائل فوضع رسالته الحارقة وتلاه الفقيه منصور ابن جبر المتوفى سنة ٦٥٧ فألف في الرد على المعتزلة كتابه (الرسالة المزلزلـة لقواعد المعتزلة) وآخر من رد عليهم من أهل السنة الفقيه الصوفي عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ في كتابه (مراهم العلل المعضـلة في الرد على المعتزلة) وكان المعتزلة يرون في أنفسهم الذكاء المفرط والترفع عن هوة التقليد والجمود الذي وصم به أهل الحديث •

وفي هذا العصر ظهرت دعوه فكرية عظمى تدعو الى ترك المذهب ونبذ الخلافات الواقعة بين أهل الفرق الاسلامية فظهرت كتب العلامه محمد بن ابراهيم الوزير تدعو الى ذلك ومن يتأمل كتابه (إيثار الحق) يجد الكثير من معالم هذه الدعوة الكبيرة .

ومن الفقهاء في اليمن من جمع في عمله التعبدى بين سائر المذاهب الفقهية كالفقيه بكر بن عمر الموزعي الذى يقول عن نفسه : (أنا في الفقه شافعي وفي المعتقد حنبلي وفي الطهاره زيدي) . رحم الله الجميع .

علوم القرآن الكريم :

أقبل الناس على كتاب الله بالعنايه التامه والبحث في مضامينه ومعاني آياته . وفي العصر الذي ندرسه بلغ مجموع حفاظ القرآن حداً لايتصوره العقل حتى بلغ مجموع الحفاظ من أسرة واحدة هي أسره (آل أبي الحل) نحو ثلاثه وستين حافظا يجتمعون في مسجدهم بعد كل صلاة ويختمون القرآن كله غباً .

أما عن عناية الدولة بالقرآن فانها خصصت لها مدارس مستقلة تعنى بحفظه وإقرائه وقد عرفت مدينة زبيد الكثير من هذه المدارس وكان يدرس فيها جماعة من مشاهير المقرئين في اليمن واشتهر في هذا العصر من المقرئين الفقيه أبو الحسن علي بن أبي بكر بن شداد الحميري واليه انتهت رئاسة الإقراء في اليمن كله وأخذ عنه جمهور كبير من القراء ويقول الخزرجي (مامن مقرىء في اليمن إلا وأخذ عنه وانتشر ذكره ، فقصدوه من جميع الجهات وكانت اليه الرحلة في علم القراءات) .

ومن علماء القراءات في ذلك الوقت جماعة من العلماء نتناولهم فيما يلي بالاختصار :

ـ البعلـوي

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بكر بن زاكي البعلوي من علماء القراءات السبع انتفع به الناس وقصده الطلبه من نواحي شتى وله فى هذا الفن مصنفات كثيرة توفي سنة ٧٠٨ هـ •

ـ الشـغدري

علي بن عطية بن على الشغدرى ولد سنه ٦٠٥ وسكن جبل حماش وعنه تلقى العلم جماعه من علماء بلده توفي سنة ٧٢٠ وله منظومة جيدة في علم القراءات

ـ المعبـري

أبو يعقوب اسحاق بن محمد المعافري المعبري كان من علماء القراءات وله فيه كتاب (الايجاز في القراءات) توفي سنه ٨٠٠ تقريبا •

ـ الشـظبي

حسن بن محمد الشظبي ولد سنة ٧٨٩ وأخذ علومه بصنعاء واشتغل بتدريس القرآن في مدارس تعز وتوفي سنة ٨٣٤ له الزراري المسفرة في القراءات •

ـ الشـرعبي

أحمد بن محمد بن سعيد الشرعبي من أهل مدينة تعز ورحـل الى مكة ودمشق وتوفي بها سنة ٨٣٧ له كتاب تكملة القراءات الثلاث ، أضاف فيها على منظومة الشاطبي الشهيره في القراءات •

ـ الناشـري

ومن أشهر المقرئين في العصر الرسولي العلامة الكبير عثمان بن عمر بن أبي بكر الناشري ولد سنة ٨٠٥ وأخذ علومه في علم القراءات عن أبي الجزري الشهير في هذا الفن وعينه الملك الظاهر مدرسا بمدينة زبيد وتوفي في الطاعون العام سنة ٨٤٨ وله عدة مصنفات في علم القراءات منها كتاب • ايضاح الدرة المضيئة في

قراءات للآلئة المرصبه ، وكتاب الدر الناظم لروايه حفص من قراءه عاصم، وله الهدايه الى تحقق الرواية في روايه قالون ، والدوري،وكتاب الدرالمكنون لرواية الدوري وحفص وقالون وغيره من الكتب القيمه في بابها .

واشتهر في آخر العصر الرسولي العلامة محمد بن ابراهيم الشاوري الخولاني المتوفى سنة ٨٦١ بكتابه الكبير المسمى فاكهه النصر واسمع في معرفه القراءات السبع .

وكان لدخول عالم القراءات الشهير محمد بن محمد الجرري المتوفى سنة ٨٣٣ الى اليمن وعقده مجالس العلم بجامع الاشاعر سنة ٨٢٨ أثر كبير في تنشيط الهمم لدراسه هذا العلم الجليل .

ولم تقتصر عنايه أهل اليمن في علوم القراءات وحدها فقد شاركوا أيضا في علم التفسير ، وظهرت شروح وحواشٍ كثيره على التفاسير المعتمده كما مر بنا ذلك فيما سبق، ومن العلماء من كتب تفسير مستقله كالعلامه المفسر عطية بن محيي الدين النجراني المتوفى سنة٦٦٥، له كتاب البيان في التفسير، يقول المؤرخ يحيى بن الحسين في وصفه كتاب جليل جمع من علوم التفاسير الموافقة للقواعد في العدل والتوحيد وتكثر التفاسير بعد ذلك فيظهر خلال العصر الرسولي أربعة تفاسير للقرآن جيده في بابها وهي - تفسير القرآن لمحمد بن ادريس الناصر المتوفى سنة ٧٣٦ ويسمى الاكسير الابريز وله كتب أخرى في علوم القرآن الكريم للعلامة محمد بن علي الاعقم عرف بتفسير الاعقم واشتهر بين أيدي الناس في ذلك الوقت شهرة واسعة . وثالث الكتب : تفسير القرآن لمعيض بن مفلح ، يصفه ابوالرجال بقوله : (من أعجب التفاسير يشتمل على كل فائدة شريفه) . وأخيرا تفسير العلامة محمد بن حمزه بن مظفر المتوفى سنه ٨٣٦ المسمى المقاليد في التفسير يقع في أربعة مجلدات . وترك في هذا العصر العلامة أبو بكر بن علي الحداد المتوفى سنة ٨٠٠ تفسيرا مختصر يشبه في أسلوبه أسلوب تفسير الجلالين وعرف عند الناس بتفسير الحداد .

واهتم الفقهاء بجانب آخر من التفسير عُرف بتفسير الآيات الشرعية وهي تلك التي تناول بعض القضايا الشرعية . وقد أنكر عليهم هـذا التخصيص في القرن الثالث عشر العلامة محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ . وقد استقصـى آيات الاحكام في عصر بني رسول العلامة احمد بن يحيى المرتضى وشرحها في كتاب له وكذلك العلامة محمد بن ابراهيم الوزير في بعض كتبه .

ومن أشهر مفسـري آيات الاحكام في عصرنا اثنان من الفقهاء وهما : الموزعي والفقيه يوسف . وسنفرد ترجمتهما فيما بعد وما عداهما فمصنفاتهم لا ترقى الى درجة هذين العالمين وان كانت جيدة في موضوعها فانها من حيث الابتكار والموضوع الذي تناولوه وهم جماعة منهم العلامة محمد بن الهادي بن تاج الدين المتوفى سنة ٧٢٠ هـ (الروضة والغدير) ويسمى أيضا (الانوار المضية في تفسير الآيات الشرعية) وهو أصل كتب الشراب للفقيه يوسف . كما يقول ابن أبي الرجال ومنهم العلامة المهدي بن صلاح المتوفى سنة ٨٧٧ . له تعليق على الروضة والغدير . والعلامة محمد بن جبريل المتوفى سنة ٨٣٦ له كتاب في تفسير آيات الاحكام . والآن مع أشهر مفسري الآيات الشـرعية في هذا العصـر الموزعي

ـ الموزعـي

هو محمد بن علي بن عبد الله بن ابراهيم عرف بنور الدين الخطيب من أسرة علمية تولت الخطابة بموزع وقد ذكر الجندي واحداً من أجداده وهذا العلامة متأخر عن عصر الجندي والخزرجي فلم يذكراه في تاريخهما وسقطـت ترجمته من كتاب الضوء اللامع للسخاوي وانما أورد ترجمتـه تلميذه العلامة حسين بن عبد الرحمن الاهدل في تاريخه والبريهي في تاريخه أيضا ومنهما نستقي معلوماتنا عنه وهو أحق بالاهتمام والعناية .

ولد الموزعي بقرية موزع وأخذ علومه عن أساتذة زبيد ومن أشهرهم جمال الدين الريمي وغيره وقد أراد شيخه أن يواسيه بمعونة مالية أثناء طلبه العلم فأبى

ذلك وبعد تخرجه على شيوخه درس وأفتى ولقي القبول عند الناس حتى وصفه أحدهم بقوله : (كان إماما عالما علمه كالعارض الهاطل المحلى بمصانيفه جيد الزمان العاطل مستقر المحاسن والبيان فخر السمن وبهجة الزمن الصبور الوصول للرحم الخشوع له الباع الطويل في علم الفقه والاصول والنحو والمعاني والبيان واللغه) . وكان مع فقره المدقع لايكاد يدخر شيئا في بيته فكان صاحب صدقات واسعه وأفعال للخير وهذا بعض من أخلاقه ويقول تلميذه الاهدل : (لم يتفق لي الاخذ عن الموزعي وقت رحلتي الى (موزع) حتى وفق الله وصوله الينا في (أبيات حسين) ، وقد قدم على الملك الناصر، منزل عندي في بيتي فأخذت عنه اللمع قراءة متقنة) . وجرت للموزعي حوادث جليلة مع الصوفية ساها في كتابنا (الصوفية والفقهاء) . وله مصنفات عديدة منها كتاب (مصابيح المعاني في حروف المعاني) في النحو وكتاب (كنوز الحبايا في قواعد الوصايا) وكتاب (الاستعداد لرتبة الاجتهاد) وكتاب (جامع الفقه) في ثلاثة مجلـــدات لم يتمـــه . وكتاب (كشف الظلمة عن هذه الامة) في الرد على ابن عربي الصوفي وكتابه في أحكام القرآن يسمى (تيسير البيان في أحكام القرآن) من أفضل ما وضعه أهل اليمن في هذا الباب وقد وقفت عليه فوجدته البحر العباب والعلم الزاخر يقع في أربعة مجلدات كبيرة وربما تهيأ لطبعه الآن أحد العلماء . توفي الموزعي في أوائل ربيع الآخر سنة ٨٢٥ .

ـ الفقيه يوسف

يوسف بن أحمد بن محمد بن عثمان عرف بالفقيه يوسف أحد أعلام الفقه في عصره ولد بهجرة العين بثلا وأخذ عنه الطلبة من كل صوب حتى أصبح المسار اليه في علم الفقه ومن مصنفاته كتـــب (الزهور في الفقه) وكتـــب (الرياض الزاهره) وكتاب (الثمرات في تفسير آيات الاحكام) من الكتب الجيدة أثنـــى عليه الذهبي المتأخر في كتابه (التفسير والمفسرون) توفي سنة ٨٣٢ .

علم الحـــديث :

كان اليمن منذ عصر الصحابة والتابعين أحد مصادر الحديث الرئيسية يرحل اليه طلابه من كل صوب ، وقد وصله أغلب أئمة الحديث من الرعيل الاول فوصله الامام عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينه والامام الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عوانة وغيرهم كثير ، وهذا يدل على مكانة اليمن في علم الحديث ولا غرابة بعد ذلك أن نجد اليمن يزاحم حواضر الاسلام في الاسبقية بتدوين الحديث فألف معمر بن راشد المتوفي سنة ١٥٣ مسنده في علم الحديث فسبق به جمهور المحدثين في التصنيف حتى قال الرامهرمزي إن أول من صنف في علم الحديث معمر ابن راشد في صنعاء وتلك أسبقية جليلة نفخر بها اليمن وأي فخر • ثم تلاه أبو بكر عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ ووضع موسوعته الضخمة في علم الحديث المسماة بالمصنف فكان هذا الكتاب منهلا لكل من أتى بعده ثم تتابعت المسانيد الحديثية فأتى بعد عبد الرزاق جماعة من كبار المحدثين لا مجال لحصرهم هنـا •

وقد ورث العصر الرسولي ذلك الاهتمام بعلم الحديث ، إلا أنه اهتمام انحصر في مدارسه الحديثة وتعلمه ولم نجد من يؤلف فيه إلا في الندر • وكانت مجالس الحديث تعقد بعد صلاتي الصبح والعصر بمسجد الاشاعر بزبيد(فينصب لقارىء الحديث منبر شرقي الجامع فيسمع قراءته كل من في المسجد) •وناذرا ما يأتي قادم الى اليمن دون أن يعقد مجلس حديث ولهذا السبب كثرت مجالس الحديث في اليمن وتعددت رواياتهم فيه وقد شهد (جامع الاشاعر) بزبيد ندوات علمية كثيرة من هذه المجالس لعل أشهرها ندوة العلامه محمد بن محمد الجزري القادم الى اليمن سنة ٨٢٨ وندوة العلامة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني حين قدومه سنه ٨٠٦ وقد شجع ملوك الدولة الرسولية علوم الحديث وكرموا حملته

وقد خصصوا جانبا كبيرا من (دار الصيف) لسماع الحديث ومدارسته عند وصول العلماء الى البلاد وعندما وصل الى اليمن المحدث الكبير أحمد بن عبد الله الطبري المتوفى سنة ٦٩٤ هـ المعروف بالمحب الطبري كان نزوله في هذه الدار وباشارته وضع للملك المظفر عدة كتب في علم الحديث والفقه اسماها باسمه ومن هذه الكتب كتاب (الدر المنثور للملك المنصور) جعله باسم والده ورتب فيه (كتاب الغريبين) في الحديث للهروي وكتاب (الطراز المذهب المحبر في تلخيص المذهب للملك المظفر) ذكر في أوله أنه ألفه بمقتضى أمر الملك المظفر ومات عنه وهو لايزال مسودة وألف للملك المظفر أيضا كتاب (المحرر للملك المظفر) جمع فيه أحكام الحديث من صحيح البخاري ومسلم ووضع في (أسانيد) الملك المظفر كتابين أولهما كتاب (الاعلام لمرويات المشيخة الاعلام من سكنة المسجد الحرام) وثانيهما كتاب (العقود الدرية في المشيخة المظفرية) وغيره من الكتب فدل ذلك على اعزاز الملك المظفر لعلم الحديث وعلمائه وكان هذا الملك يرحل بنفسه الى منزل الفقيه اسماعيل بن محمد الحضرمي ليسمع عليه (صحيح البخاري) على الرغم من كراهة هذا الفقيه للملك المظفر ومجاهرته بالانكار عليه .

وقد عرف أهل اليمن جل كتب الحديث الصحيحة وولع بها سائر العلماء على مختلف اتجاهاتهم ومشاربهم . ومع ذلك لم تشتهر بينهم تلك الكتب التي وضعها أهل اليمن أنفسهم من القدامى في علم الحديث فلم تشتهر مثلا كتاب (المسند) لمعمر بن راشد أو كتاب (المصنف) لتلميذه عبد الرزاق أو كتاب (المسند) لموسى بن طارق اللحجي وغيره . وكان جل اهتمامهم بصحيح البخاري وكثير منهم من حفظه عن ظهر قلب بمتونه وأسانيده كالفقيه أبي الخطاب عمر بن سعيد الهمداني المتوفى سنة ٦٦٣ وغيره . وكانت أول صلة لأهل اليمن بصحيح البخاري عندما قام المحدث محمد بن أحمد المروزي المتوفى سنة ٣٧١ هـ وعقد مجلس الحديث بمدينة ذمار فأخذ عنه العلماء روايته عن الفربري تلميذ البخاري حتى قال الخطيب البغدادي : إنه أجل من روى (صحيح البخاري) . ومن المتلقين

عنه في ذلك الوقت من أهل ذمار العلامة عبد الله بن علي الزوقاني وله رحلة الى مكة أخذ فيها عن أكابر علماء الاسلام كالعلامة (الطحاوى) والمزني وغيرهما ، وهو أقدم من روى صحيح البخاري من أهل اليمـن ثم تلاه (ابن ملامس) وغيره من جمهور المحدثين والفقهاء وقلما يظهر عالم منهم دون أن يطالع هـذا الكتاب العظيم مطالعة كاملة تكـون في الغالب بمحضر كبير من العلماء وربما خصصوا لقراءته أشهراً معلومة كرجب ورمضان • وقد شارك في حضورها بعض ملوك الدولة الرسولية كالمظفر والاشرف وعندما وصل الى اليمن العلامة مجد الدين الفيروزبادي عقد عند أول قدومه مجلسا عاما للحديث وشرع في قراءة صحيح البخاري بمحضر من الملك الاشرف وبعد الانتهاء من قراءته قام الشعراء بين يدي الملك بالتهنئة ومن بينهم الفقيه اسماعيل بن أبي بكر المقري الذي قال في أول قصيدته وكانت القراءة في رمضان :

تصومك شهر الصوم يكسى من الفخر ملابس لم تخلع على ليلة القدر

والحديث عن عناية أهل اليمن بصحيح البخاري متشعب الاطراف ، ولم تكن سائر كتب الحديث بهذا القدر من الاهتمام وان عرفوها وتدارسوها فان كتاب (صحيح مسلم) يأتي في الدرجة الثانية بعد البخاري • وقد شهد القرن السادس مدارسة هذا الكتاب بجامع الجند في حفل كبير رأسه الفقيه سيف السنة البريهي المتوفى سنة ٥٨٦ ، وعرفوا في ذلك الوقت من كتب الصحاح جملة منتخبة ككتاب (سنن الترمذي) وسنن أبي داود ومسند أحمد بن حنبل وانتشر بين أيديهم أيضا (كتاب الغريبين) للهروي فاعتنوا به العناية الكافية •

وكانت عنايتهم بمطالعة كتب الحديث أكثر من عنايتهم بالتأليف فيه كما أسلفنا فيما سبق وكأنهم استغنوا بما ألفه أهل الاسلام في هذا الصدد ، ولهذا السبب لم تظهر في هذا العصر مؤلفات معتمدة في علم الحديث سوى بضعة كتب قليلة تعنى في الدرجة الاولى بجمع الاحاديث النبوية المتعلقة بالاحكام ككتاب (شفاء الأوام) للامير الحسين بدر الدين المتوفى سنة ٦٦٢ وقد استوعب فيه

المادة من رواية أهل البيت وانتشر بين فقهاء المذهب الامام زيد بن علي ولم يتمه فأكمله من بعده جماعة من العلماء كالعلامة صلاح بن ابراهيم بن تاج الدين والعلامة صلاح بن الجلال وعليه شروح وحواشٍ كثيرة لعل أشهرها حاشية الشوكاني المسماة (وبل الغمام) وكنت أظن أن للفقيه محمد بن بطال الركبي كتابا في شرح البخاري لكن اتضح لي بعد ذلك أن هذا الشرح هو من تأليف ابن بطال علي بن خلف المتوفى سنة ٤٤٩ أحد أفاضل المغرب وقد أثنى عليه ابن خلدون في مقدمته . واختصر (شرح صحيح مسلم) للمازري الفقيه اسماعيل ابن محمد الحضرمي المتوفى سنة ٧٧٦ والفقيه محمد بن عبد الرحمن البريهي المتوفى سنة ٧٤٨ وشرح سنن أبي داود العلامة أبو بكر أحمد بن دعسين المتوفى سنة ٧٥٢ في أربعة مجلدات مات عنها وهي مسودة . وشرح سنن النسائي في هذا العصر العلامة عبد الله بن محمد الناشري المتوفى سنة ٨١٤ .

وجمع العلماء خلال هذه الفترة (أربعينات) في علم الحديث في مضامين مختلفة حسب عادة العلماء في هذا الصدد ، ولعل أقدمها أربعينية العلامة محمد ابن اسماعيل بن أبي الصيف اليمني المتوفى سنة ٦٠٩ جعلها في فضل اليمن ثم تلاه معاصره العلامة محمد بن علي بن حديد المتوفى سنة ٦٢٠ له أربعون حديثا في فضائل الاعمال . ثم تتابعت هذه الاربعينيات فصنف فيها من علماء اليمن خلال العصر الرسولي جماعة منهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بطال الركبي المتوفى سنة ٦٣٠ له (الاربعون المستخرجة من الاحاديث الحسان) ثم محمد بن عبد الله الحارثي المتوفى سنة ٦٤٩ له كتاب (الاربعون في الاذكار والادعية) وأحمد ابن عبد الله الهمداني له (الاربعون اليمنية في الاحاديث النبوية) وهو من أهل القرن الثامن فيما أظن ، ثم أربعينية العلامة علي بن أبي بكر الازرق المتوفى سنة ٨٠٩ ، ولأحمد بن أبي بكر البريهي المتوفى سنة ٨٢٥ أربعينية جعلها في أحاديث معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخرى في مناقب الخلفاء الاربعة وغير ذلك من الاحاديث المجموعة المخصصة برقم أربعين وهي تختلف من حيث الطول والقصر .

وجمع المحدثون في ذلك الوقت الاحاديث الوارده في مضامين خاصه فجمع العلامة محمد بن موسى الذوالي المتوفى سنه ٧٩٠ الاحاديث الواردة في الاخلاق والاحسان في كتابه (حديقة الاذهان في شرح أحاديث فصل الاخلاق والاحسان) الى غير ذلك من المواضيع المتنوعة وتلك هي جوانب من اهتمامات العلماء في علم الحديث . أما مصطلح الحديث فلم يكتب فيه غير مؤلف واحد للعلامة محمد بن ابراهيم الوزيـــر .

على أن مشيخة الحديث ورئاسته لم تعط في العصر الرسولي إلا لاثنين من كبار علماء الحديث في اليمن هما العلامة ابراهيم بن عمر العلوي وابنه سليمان وانتهت بالعلامة محمد بن ابراهيم الوزير وسنفردهم بالترجمة فيما يلي:

العلـــــوي :

أبو اسحاق ابراهيم بن عمر بن علي العلوي من عمدة زبيد الافاضل انتهت اليه رئاسة علم الحديث وكان من العلماء الكمل حسن الاخلاق متواضعا محبوبا عند الناس وبرع في علم الحديث حتى قصده الطلبة . ويقول الشرجي : (وإليه يرجع روايات أهل اليمن في الحديث) ودرس في (المدرسة الصلاحيه) بزبيد ، وله تعاليق مفيده على بعض الكتب الحديثة وجمع حفده أبو القسم بن سليمان مشائخ جده في مؤلف مستقل ، توفي بمدينة زبيد سنة ٧٥٢ .

العلـوي الثـاني :

هو سليمان بن ابراهيم العلوى السابق ذكره خلف والده في علم الحديث ورحل الى مكة واليه انتهت الرحلة في نواحي اليمن وسكن مدينة تعز فانتفع به جماعة من أهلها وكان يقول عن نفسه : قرأت البخاري بلفظه أكثر من خمسين مره . وقال الاهدل : إنه يقرأ البخاري في السنة مرتين فأكثر حتى أتى عليه نحو ٢٨ مره . وكان أعرف أهل عصره بعلم الحديث ودرس بالصلاحية في زبيد مدة ثم انتقل الى تدريس الحديث بالمجاهدية والافضلية بتعز واسوطها وجمع فيها مكتبه كبيرة ومن تلامذه العلامة محمد بن ابراهيم الوزير، وكنت قد وقفت

له على إجازة لتلميذه هذا بعد فراغه من قراءة كتاب (الجمع بين الصحيحين) للحميدي نوردها هنا بنصها لمعرفة صيغ تلك الاجازات التي كانت تكتب في ذلك الوقت • يقول العلوي :

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده لانحصي ثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأصهاره وأنصاره كلما ذكرهم الذاكرون وغفل عن ذكرهم الغافلون وبعد فانه شرفني الله تعالى ورحل إلي وقدم علي الى بلدي مدينة (تعز) المحروس مستقر المملكة اليمنية الرسولية عمرها الله بالعلم الشريف سيدنا الامام حقاً والمجتهد صدقاً الفائق على أقرانه من الاعصان النبوية المؤيده بالتأييد الإلهي المختار لله تعالى والموفق في اجتهاده جمال العترة النبوية محمد بن ابراهيم بن علي المرتضى بن المفضل وسمع من لفظي وقرأ علي ّ ثلث كتاب (الجمع بين صحيحي البخاري ومسلم) رحمة الله عليهما جميعا جمع الامام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن حميد الازدي الحميدي الاندلسي الظاهري المذهب من كبار تلامذة ابن حزم وأجزته بباقي الكتاب لأهليته ودينه وأمانته وعلمه وبراعته وسمع معه ماذكرته الفقيه الصالح النبيه قاسم بن سليمان بن محمد الحنبلي ثم العمري القادم معه وآخرون من بلادنا وأخبرتهم أني قرأته على شيخي الامام الحافظ المجتهد المقدم علي مقري كتاب الله تعالى أبي الحسن موفق بن علي بن أبي بكر ابن شداد المقري الهمداني المتوفى سنة ٧٧١ قال حدثنا الشيخ الامام المجتهد أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي الخير بن منصور التنوخي السعدي المتوفى سنة ٧٢٩ وأجزته لحق سماعه لذلك من لفظي هو وصاحبه المذكور بروايتي وأجزت الشريف المذكور روايه جميع ما أرويه من سائر العلوم الدينيه فليرو ذلك عني موفقا مسددا بتاريخ يوم الثلاثاء من شهر ذي القعدة سنة ٨٠٦ وكان ذلك في منزلي في مدينة تعز المحروس حرسها الله تعالى وكتبه العبد الفقير الى الله

سليمان بن ابراهيم بن عمر بن علي العلوي الحنفي خادم الحديث النبوي .

توفي العلامة سليمان بن ابراهيم العلوي بمدينة زبيد سنة ٨٢٥ (١) .

علم الفقـه :

اقتصر أهل السنه في العصر الرسولي على تقليد أصحاب المذاهب الاربعه الفقهية ولم يخرج عن هذه القاعدة أحد من علمائهم إلا فيما كان ترجيحا لبعض الاقوال وقد أنكر الناس في ذلك الوقت على الفقيه علي بن اسماعيل الحضرمي لما اجتهد في مسألة لم يجد لها نصاً في كتب الفقه المتداولة عنـدهم وظل الناس منابذين له حتى وجد تلك المسألة أحد أقربائه بعد وفاته بمدة طويلة . وقد شل التقليد حـركة الفقه وتطوره ولم يظهر فيه إلا جماعة من النقلة المؤولين للنصوص القديمة .

وقد زاده حدة وجود مؤلفات جماعة من كبار المقلدين الذين حصـروا الاجتهاد على أشخاص قلائل كالنووي رحمه الله وهو من كبار المقلدين والداعين اليه ، فوقف الناس عند تشريح الجسد وتقييده على الرغم من وجود بعض العلماء الذين يقارعون بعلمهم مؤسسي المذاهب الاربعه الكبار . ولهذا السبب نجد مذهب الامام زيد بن علي قد فاق في اليمن سائر المذاهب الاخرى باجتهاداته واختياراته المتنوعة وبرع فيه جماعة من المجتهدين كالعلامه عبد الله بن حمزة والامام يحيى بن حمزة والامام أحمد بن يحيى المرتضى وغيرهم وهذا الاخير عرف بقوله للتقليد إلا أنه تقليد لاتقيد بمذهب معين وتكثر الاقوال في هذا المذهب حتى أنها تشكل ثوره فقهية عظيمة بجانب قوله بالثـورة على الحاكم الظالم ويجدها الباحث في الكثرة الكاثرة من المصنفات العلمية التي تركها الفقهاء في ذلك الوقت وقد صرح بالاجتهاد جماعة من كبار فقهاء مذهب الامام زيد منذ تأسيس هذا المذهب حتى القرن الثالث عشر الهجري . ومع ذلك لم تظهر دعوه

---

(١) نفى ذكر ترجمه العلامه محمد بن ابراهيم الوزير ، والكلام فيه واسع ، فيحيل القارئ الى كتابنا « محمد بن ابراهيم الوزير » الذي سيظهر قريبا .

الاجتهاد صريحه إلا في القرن التاسع الهجري وقد حسن لواءها العلامة المجتهد محمد بن ابراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٤٠ ووضع في هذا الصدد رسالة فيه بعنوان (القواعد في الاجتهاد) وقد كثر الفقهاء في هذا العصر ونحن سنتعرض لهم بالاختصار في هذه العجالة العجلة ونبتدىء أولا بفقهاء مذهب الامام زيد لأخذهم بالاجتهاد وتجديدهم في الفقه :

ابن هيجسان :

سليمان بن هيجان المتوفي سنة ٦٥٢ عرف بكتابه المذاكره في الفقه .

الامــير :

ومن أشهر الفقهاء على مذهب الامام زيد بن علي العلامة الامير علي بن الحسين بن يحيى بن الناصر الحسين تلقى علومه على جماعة من فقهاء المذهب واتفق على فضله جميع العلماء توفي بعد سنة ٦٢٥ تقريبا واشتهر بكتابه (اللمع في الفقه) شهرة واسعة واعتمده الناس في كل عصر بعد زمانه وله كتب اخرى منها شرح (التحرير) للهاروني .

ابن معرف :

هو الفقيه محمد بن عبد الله بن معرف معاصر الامام أحمد بن الحسين المتوفي سنة ٦٥٦ له كتاب شرح التحرير بعنوان المنهج المنير .

ابن بدر الدين :

الحسين بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى ولد سنة ٥٨٢ وهو من كبار علماء اليمن في ذلك الوقت واشتهر شهرة واسعة بمصنفه (شفاء الاوام) وله كتب أخرى منها (الذريعة في أصول الدين) وينابيع النصيحه في العقائد الصحيحة وثمرة الافكار في حرب البغاة والكفار ، ومن مؤلفاته الفقهية كتاب التقرير لفوائد التحرير وهو من الكتب الشهيرة في بابها توفي سنة ٦٦٣ بهجرة رغافة في صعدة .

النحـــوى :

الحسن بن محمد بن الحسن النحوي كان من كبار علماء المذهب تولى القضاء بصنعاء وله عدة كتب فقهية أشهرها كتاب (التذكرة الفاخرة) وكتاب شرح الحفيظ والسراج المنير وغيره توفي سنة ٧٩١ .

فهؤلاء أشهر فقهاء مذهب الامام زيد وهم كثرة كثيرة استقصينا تراجمهم في كتابنا (مصادر الفكر الاسلامي في اليمن) فلا نعود اليها هنا .

أما فقهاء المذهب الشافعي فهم علماء الدولة الرسولية الرسوليون وعلى أيديهم قامت النهضة الفقهية بمدارس اليمن في ذلك الوقت وقد نبغ منهم عدد كبير نقتصر هنا على ذكر الأهم منهم فقط .

القلعـــي :

أبو عبد الله محمد بن علي الحسن القلعي جاء الى اليمن من الشام وكان فقيها جليلا اسمع سكنه أغلب أهل ظفار وحضرموت وعنه انتشر الفقه الشافعي في تلك النواحي ومن مصنفاته كتاب (قواعد المهذب) ومستغرب المهذب وإيضاح الغوامض في علم الفرائض وغيره توفي سنة ٦٣٠ .

الاصـــبحي :

ابو عبد الله محمد بن أبي بكر بن محمد الاصبحي كان من الفقهاء الزهاد كثير التلاوة لكتاب الله ونبغ على يديه جمع كبير من علماء اليمن منهم علي بن أحمد الاصبحي الآتي ذكره ، وكان أكثر سكونه بمصنعة (سير) ثم رحل الى مدينة (إب) بعد كثرة طلبته ، توفي سنه ٦٩١ ومـــن مصنفاته الفقهية كتـــاب (الاشراف في تصحيح الخلاف) و (الايضاح والفتوح في غرائب الشروح) و (المصباح) والوسائل والترجيح الى غير ذلك .

العمـــراني :

محمد بن عبد الله بن أسعد العمراني تلقى علومه بمصنعة سير وهو من شيوخ الجندي وكان فقيها فاضلا أجمع علماء عصره على مكانته في الفقه توفي

سنه ٦٩٥ وله كتاب شرح (التنبيه) فى الفقه و (البضاعة لمن أحب صلاة الجماعه) و (ايضاح الاضحى) و (جامع أسباب الخيرات) و (مثير العزم لأهل الكسل والفترات) .

الاصبحي :

أبو الحسن علي بن أحمد بن أسعد الاصبحي ولد سنة ٦٤٤ وتلقى علومه على ابن خاله العلامه محمد بن أبي بكر وعلى غيره وأتقن علم الفقه حتى حققه وكان علماء عصره يرجعون الى قوله ويسألونه وكان جميل الخلق دائم البشر حسن الالفه درس بالمدرسة (المظفرية) مده فسح على يديه جماعة من العلماء وكان الملك المظفر يجله ويحترمه توفي سنه ٧٠٣ ومن أشهر مصنفاته كتاب (معين أهل التقوى فى الفقه والفتوى) عرف بكتاب (المعين) وله كتاب (غرائب الشرحين) و (أسرار المهذب) وغيرها .

الحبيشي :

عبد الرحمن بن عمر بن محمد الحبيشي كان فقيها صالحا تولى القضاء بوصاب فكان فوالله بالحق لايخاف في الله لومة لائم وله مواقف مع الولاة والحكام توفي سنه ٧٨٠ ومن مصنفاته كتاب (النظم والبيان) و (الفتاوى الحبيشية) .

الريمي :

جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي من أشهر فقهاء المذهب الشافعي فى العصر الرسولي ولد سنة ٧١٠ وتلقى علومه على جمع كبير من علماء زبيد وكان فقيها صليبا عارفا محققا مشتغلا بالتدريس باذلا نفسه للطلبة فكان يقوم بمعاش المنقطعين منهم وولاه الملك الاشرف قضاء الاقضية باليمن كلها وجمع أموالا كثيرة ويصفه الخزرجي بقوله : (كان وهابا مناعا ضرارا نفاعا) ، توفي سنة ٧٩٢ ومن مصنفاته الكثيرة كتاب (التفقيه شرح التنبيه) وكتاب (عمدة الامة في اجماع الأئمة الاربعة) وكتاب (المعاني البديعة في معرفة اختلاف الشريعه) وهو من

الكتب الفريده في بابها وكتاب (نظم السبيه) وكتاب (بغية الناسك في كيفية المناسك) و(مطلع الاشراق في الاختلاف الغزالي وأبي اسحاق) و (عرائب المذهب) الى غير ذلك من لكتب الفريدة في بابها .

الازرق :

نور الدين علي بن أبي بكر الازرق ولد بأبيات حسين وهو من شيوخ الاهدل صاحب التاريخ أحد علومه بمدينة زبيد والتقى بعلماء مكه في رحلته اليها ثم عاد الى بلده ومهر في الفقه والحساب وتفرغ للدرس والمطالعة فلا يرى إلا مطالعا لكتاب أو مدرسا في مدرسة وأفتى نحو خمسين سنة ومن مصنفاته (كتاب التحقيق الوافي شرح التنبيه) وهو الشرح الكبير وكتاب (الحق شرح التنبيه المختصر) وكتاب (مختصر المهمات) للاسنوي وكتاب (نفائس الاحكام) وهو من الكتب القيمه وصفه الاهدل في تاريخه وأثنى عليه . توفي الأزرق سنه ٨٠٩ بأبيات حسين. ومن فقهاء المذهب الحنفي في عصر بني رسول جماعة من العلماء نذكر منهم :

ابن معطــن :

الفقيه أبو بكر بن محمد بن معطن من كبار الفقهاء بزبيد وعنه انتشر فقه أبي حنيفة توفي سنة ٦٨٤ .

(النحو واللغــه) :

بدأت عناية اليمن بعلوم اللغة والنحو منذ مدة مبكرة تحت عوامل دينيه بحتة اذ بواسطه العربية يمكن فهم أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية واشتدت عنايتهم بالعربية حتى كادت أن تذوب فيها الكثير من اللهجات المحلية[1] ولم يعد لها أي أثر يذكر إلا فيما كان خاصا بأسماء البلدان والاعلام ، وقد اختار أهل اليمن عربية عدنان لفهم النصوص الاسلامية ، وظهر فيهم من ألف معاجم مستقلة

---

(١) ولو بقي الآن كثير من مفردات اللهجة اليمنية لاثرت العربية بكثير من الكلمات الاصيلة الموغلة في عربيتها اذ لهجة قحطان هي أصل العربية ومهدها الاول

تعنى بغريب اللغة لعل أقدمها كتاب (نظام الغريب) لعيسى بن ابراهيم الربعي المتوفى سنة ٤٨٠ وقد اشتهر شهرة واسعة في زمنه واعتمده الطلبة في كل عصر حتى إن الجندي يقول — وهو يصف عناية الناس بهـذا الكتاب — : (ان من لايقرؤه لايعد لغويا) . وقد اقتصر فيه على ما يكثر استعماله من غريب اللغة . ولا يضارعه في الشهرة والمكانة سوى كتابه شمس العلوم لنشوان الحميري المتوفى سنة ٥٧٣ ، وهو المعجم الوحيد الذي أثر على أهل اليمن اذ لم يؤلف أحد من بعده في هذا الشأن . واكتفى الناس في اليمن بعد ذلك بكتاب (القاموس المحيط) للفيروزابادي الذي وضعه مؤلفه في مدينة (زبيد) عنـدما استقر به الترحال في هذه المدينة وأهدى نسخته الكاملة الى الملك الناصر الرسولي وصدره بأبيات في مدحه[1] :

مولى ملوك الارض من في وجهه مقبـاس نـور أيمـا مقبـاس
بدر محيـا وجهـه الاسـنى لنا مغن عن القمـرين والنبـراس

أما علم النحو فله شأن كبير في اليمن واستغرقت دراسته جل أوقاتهم العلمية حتى نجد منهم من أوقف حياته لتعلم النحو وتعليمه ، ولا يعد الفقيه مشاركا في العلوم الشرعية الا بعد أن يحقق هذا الفن ويتقن أصوله. وكان أكثر نفعه أهل اليمن في النحو قبل ظهور الكتب الكبيرة على مختصر الحسين بن عبـاد الذي عرف باسمه وتداوله الناس ، حتى إن الطالب في النحو (لايستفتح إلا به) حسب عبارة الجندي .. وقد شرحه في (القرن السادس) في اليمن الفقيه أبو السعود ابن فتح الله . وفي (القرن الثامن) شرحه العلامة عبد اللطيف بن أبي بكر الشرجي وعندما وصلت الى اليمن (مقدمة ابن بابشاذ) في النحو المعروفة بالمقدمة المحسبية ولع الناس بها غاية الولع واعتمدت في الدراسة حتى أن الملك المؤيد الرسولي كان من جملة حفاظها وشرحها في العصر الرسولي جماعة من كبار العلماء لعل أشهرهم الامام يحيى بن حمزة في كتابه (الحاصر لفوايد المقدمة) وشرحها بعده

---

(١) القاموس ج ١ ص ٤ .

العلامه النحوي أحمد بن عثمان بن بصبص المتوفي سنه ٧٦٨ ثم العلامة عبد اللطيف الشرجي المتوفي سنه ٨٠٣ ، وأخيرا شرحه العلامه علي بن محمد بن هطيل المتوفى سنة ٨١٢ المسمى (عمده ذوي الهمم) .

ثم جاء كتاب (المفصل في النحو) للزمخشري فنال الناس اليه وأعجبوا بأسلوبه حتى إن منهم من حفظه على ضخامته ، وشرحه في العصر الذي ندرسه أربعة من كبار النحاة هم : ابن عصيفير المتوفى سنة ٦١٤ تقريبا ، ومحمد بن علي ابن نعيش المتوفى سنة ٦٨٠ وعبد اللطيف الشرجي وابن هطيل . ووقفت على شرح ضخم للامام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى بعنوان (التاج المكلل) .

وأخيرا جاءت كتب ابن الحاجب النحويه وغطت على سائر كتب النحو المتداولة وأصبحت شغل العلماء الشاغل فلا يرجعون إلا اليها وقد اشتهر كتاب ابن الحاجب (الكافية) شهرة واسعه في حين لايكاد يذكر كتابه الآخر في النحو المسمى (الوافيه) الا نادرا وأقل منهما حظاً كتاب ابن الحاجب الثالث المسمى (الشافيه) وهو في التصريف . أما كتاب (الكافية) فقد دخل الدراسة النحويه في اليمن منذ زمن المصنف في القرن السابع حتى إن المؤرخ ابن أبي الرجال ينسب لابن عصيفر كتابا في شرحه وهو متقدم الزمن . وشرحه في اليمن أيضا العلامة ابن هطيل السابق الذكر في كتابه (معونة الطالب) وشرحه علي بن محمد ابن أبي القاسم المتوفى سنة ٨٣٧ﻫ في (البرود الصافية) وأحمد بن محمد الرصاص في (منهاج الطالب) ، وتكثر الشروح لهذا الكتاب بعد عصرنا هذا ويشتهر على وجه الخصوص كتاب (مصباح الراغب) لمحمد بن عز الدين المتوفى سنة ٩٧٣ وقد عرف هذا الكتاب بحاشية (السيد) وشرح عبد الملك بن دعيسن المتوفى سنة ١٠٠٦ الى غير ذلك من الشروح الكثيرة .

ومن علماء النحو في اليمن من لم يكتف بشرح المتون النحوية (الشهيرة) فشارك في التأليف فيه مستقلا وقد عرف عصر بني رسول مجموعة من هؤلاء العلماء المصنفين لعل أقدمهم جمهور بن علي بن جمهور تمهد ابن بطال الركبي

له كتاب في النحو بعنوان (المذاكرة) ومنهم أبو محمد عبد الله بن عمر العايشي المتوفى سنه ٦٩٥ وضع في النحو كتبا جيده منها كتابه (اللوامع في النحو) وغيره ومنهم عبد الله بن محمد بن أبي الرجال المتوفى سنه ٧٠٢ تقريبا له كتاب (إكسير الذهب في النحو) .

ومنهم محمد بن موسى الدؤالي المتوفى سنة ٧٩٠ له (الرد على النحاه) .
أما مشاهير النحاة في العصر الرسولي فهم أربعة رجال سنوردهم بالترجمة فيما يلي

ابن يعيش :

كنت أظن ان ابن يعيش هذا هو ذلك العالم النحوي الشامي المولد والوفاة ومصدر هذا الاشتباه أن كليهما شرح كتاب المفصل للزمخشري . ثم اتضح لي أن ابن يعيش الحلبي هو غير ابن يعيش الصنعاني فالاخير هو محمد بن علي ابن يعيش ترجم له صاحب الطبقات وذكر أنه من أهل صنعاء وأنه برع في علم النحو واللغة ومن مؤلفاته النحوية كتب (التهذيب في النحو) وشرح المفصل للزمخشري و (الياقوتة في النحو) و (الدرر المنظومة بالبيان وتقويم اللسان) وغيره . توفي سنة ٦٨٠ .

ابن بصيبص :

هو أبو العباس أحمد بن عثمان بن بصيبص عالم النحو والعروض ولد بمدينة زبيد وانتهت اليه رئاسة هذا الفن بمدينته ورحل اليه الطلبة من أماكن عدة وكان جيد الفهم شرع في شرح مقدمه ابن باشاذ فاخترمه المنية قبل اتمامه توفي سنة ٧٦٨ .

الشرجي :

تكرر ذكره في هذا الكتاب فهو سراج الدين عبد اللطيف بن أبي بكر بن أحمد الشرجي ولد بقرية الشرجه بين حيس وزبيد سنة ٧٤٠ ورحل الى زبيد لتلقي العلم على ابن بصيبص حتى برع في فنه . فعيّن مدرسا بالمدرسه الصلاحية واشتهر ذكره في اليمن فقصدته الطلبة من كل صوب وتنقل في عدة مدارس يدرس

فيها علم النحو ثم استدعاه الملك الاشرف سنة ٧٨٢ ليقرأ عليه في كتب النحو والعربية وأكرمه غاية الاكرام توفي سنة ٨٠٢ ومن مصنفاته النحوية كتاب شرح (ملحة الاعراب) ونظم (مختصر ابن عباد) ومختصر المحرر في النحو وكتاب (الاعلام لمواضع اللام في الكلام) ونظم (مقدمة ابن باشاذ) ومقدمه في علم النحو .

ابن هطيل :

علي بن محمد بن هطيل شيخ النحاة في عصره وعليه أخذ الامام علي بن صلاح الدين وكان حرياً بأن يسمى بسيبويه اليمن كما يقول ابن أبي الرجال توفي سنة ٨١٢ بمدينة صنعاء وأصله من حوث ومن مؤلفاته النحويه الكثيره كتاب (التاج المكلل في شرح المفصل) وكتاب (عمدة ذوي الهمم) شرح المقدمة المحسنية في النحو ومعونة الطلاب وشرح الجمل الى غير ذلك .

فهؤلاء أشهر مشاهير النحو في العصر الرسولي ولهذا العصر مساهمات أخرى في علوم العربية سنذكرها عند حديثنا عن الادب .

(علم التاريخ) :

ظل اليمن بعد خمود جذوه الفتوح الاسلامية منطويا على نفسه لايلوى على شيء إلا فيما كان متعلقا بقضاياه الخاصة ، وقد أمض كثيراً من المؤرخين المحليين تجاهل كتاب الموسوعات الاسلاميه لتاريخ اليمن وعابوا عليهم عدم الاطناب في تاريخهم المحلي، ولهم بعض العذر في ذلك ، حيث ساعدت هوة المسافة بين اليمن والحواضر الاسلامية الزاهرة في بغداد والشام ومصر والاندلس على جهل الناس باليمن في حين كان أهل اليمن متحزبين في أنفسهم الى أحزاب فشكل هذا عاملا في ركود الكتابة التاريخية وكل الكتب التي ظهرت في تلك الفترات الغابرة هي مؤلفات الحسن بن أحمد الهمداني المتخصصة غالبا في تاريخ ماقبل الاسلام وتبعه في هذا الكلاعي ونشوان الحميري وغيرهما .. واذا ظهرت كتب تاريخية فانما هي أجزاء مبتوره تعنى بتاريخ طوائف معينة من أصحاب المذاهب

فمسلم اللحجي المتوفى سنه ٥٤٥ هـ مثلا لا يؤرخ إلا لأتباع فرقه من الزيديه في حين كان ابن سمرة المتوفى سنة ٥٨٦ هـ يعنى في تاريخه بالدرجة الاولى بتاريخ الفقهاء من الشافعية ومنهم من اعتنى بأشخاص الحكام وحدهم دون غيرهـم فظهرت مؤلفات مستقلة عرفت بكتب السير تؤرخ لرجال من الأئمة كالهادي يحيى ابن الحسين المتوفى سنة ٢٨٢ هـ في كتاب (سيرة الامام الهادي) لعلي بن محمد العلوي (القرن الثالث) وهذه السيرة أقدم ما وضع في هـذا الباب ، ثم سيرة الناصر لعبد الله بن عمر الهمداني (فيأوائل القرن الرابع) وسيرة القاسم بن على العياني المتوفى سنة ٣٩٣ للحسين بن يعقوب وسيرة الإمام عبد الله بن حمزة وغيره كثير" جدا ومنهم جمع تراجم الأئمة في كتاب واحد كالعلامه حميد بن أحمد المحلي المتوفى سنة ٦٥٢ .

وظهرت في الكتابة التاريخية أيضا نزعة اقليمية تعنى بتاريخ مدن يمنية معينه وقد بدأ هذا الاتجاه المؤرخ اليمني اسحاق بن يحيى الزهري في القرن الرابع فوضع كتابا مستقلا في تاريخ (مدينة صنعاء) وقف عليه الجندي فقال في وصفه (لطيف الحجم صغير فيه فوائد جمة) ثم تلاه المؤرخ الكبير أبو العباس أحمد بن عبد الله الرازي المتوفى سنة ٤٦٠ تقريبا فوضع مصنفا حافلا في تاريخ صنـعاء وكأنه أراد بهذا التأليف سد النقص في تاريخ أمهات المدن الاسلامية كبغـداد ودمشق ومكه وأصفهان وجرجان وغيرها وقـد بدأت بوادر هذه الظاهرة في مؤلفات الاسلاميين أمثال الازرقي المتوفى سنة ٢٥٠ في تاريخ (مكة) وأحمد ابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ في تاريخ (بغداد) وأبو نعيم الاصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ في تاريخ (أصفهان) وغيره كثير جدا على أن مادة هذه الكتب الحديثة أكثر من مادتها التاريخيه وهذا ما نجده المطالع في تاريخ صنعاء للرازي ..

ولم تظهر هناك نزعة شاملة لتاريخ البلاد إلا عند المؤرخ أبو العباس أحمد ابن علي العرشاني المتوفى سنة ٦٠٧ في مؤلفاته الضائعة فهذا الرجل نخل التاريخ اليمني واستطرد على كتاب الموسوعات الاسلامية كالطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ

والقضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ في تجاهلهم لتاريخ اليمن ووضع كتب حافلة أقل ما يقال عنها أنها أرخت لليمن عامة . وكان من الممكن اعتبار الاديب عماره اليمني رائد الكتابه التاريخية لليمن لولا أن حسه الادبي غلب على اتجاهه التاريخي ففاتت في كتاباته فجوات كبيرة ..

على أنه يجب أن لا نظلم تلك الكتب الناقصة فان فيها من التخصيص والاحاطة بالموضوع ما فيه الكفايه . وكان العصر الرسولي رائد التخصص التاريخي ، ففيه ظهرت جوانب من ذلك التخصص كالاهتمام — مثلا — بتاريخ مجاميع في التراجم تعنى بتراجم تلك الأسر العلميه وهي مزيج" من كتب الانساب وكتب التراجم . وكان المؤرخ أبو بكر بن أحمد بن دعيسن المتوفى سنه ٧٥٢ هو أول من فتح الباب من الكتابة التاريخية،وأرخ في كتابه « لأسرته من بني مجموعة محمد بن العمم في تراجم مشاهير أسرته ، وبعدد عيسن » . ثم ظهرت ذلك كتب العلامة محمد بن عبد الله الناشري المتوفى سنه ٨٢١ كتابه غرر الدرر في تاريخ أسرته وأكمله من بعده جماعة من علماء آل ناشر ..

ومن كتب التراجم المتخصصة تلك التي تعنى بتراجم رجال (من) واحد من فنون العلم كعلم النحو الذى أرخ لرجاله في اليمن المؤرخ أبو العباس أحمد ابن علي العرشاني المتوفى سنة ٦٠٧ وتلاه ابن عبد المجيد اليماني في كتاب (اشارة التعيين في طبقات النحاة واللغويين) ومنهم من أرخ لعلماء مدينة معينة فكتب العلامة عبد الله بن زيد العنسي كتابا عن علماء سحان بعنوان « مناهج البيان » وكتب عن علماء تعز المؤرخ أبو عفان عثمان بن محمد الشرعبي المتوفى سنة ٨١٧ ومن الكتب التاريخيه ما تخصص في تاريخ البلدان وقد مر بنا كتاب الرازي في تاريخ صنعاء ثم تاريخ زبيد لمحمد بن أسير وابن الديبع ..

أما كتب التاريخ ، وأعني بها تلك الكتب المجردة من التراجم فهي نفسها قد عرفت شيئا من التخصص حيث وضع المؤرخ محمد بن حاتم المتوفى سنة ٧٠٢ أول كتاب متخصص يعنى بتاريخ دولة واحدة في اليمن ، وهي دولة

العز وأتباعهم من ملوك بني رسول . ثم تطور هذا الاتجاه على يد المؤرخ الحسن بن علي الخزرجي في كتابه « العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية » . ووضع في هذا العصر المؤرخ علي بن أبي بكر الناشري كتابا خاصا في أخبار دولة الملك الناصر بعنوان (روضة الناظر) .

وقد ساهمت كتب (السير) في تدوين سير الأئمة في ذلك الوقت فكتب فيها المؤرخ يحيى بن أبي القاسم سيرة (الامام المهدي أحمد بن الحسين) المقتول سنة ٦٥٦ . وكتب العلامة الهادي بن ابراهيم بن الوزير كتابين في سيرة الامام الناصر صلاح الدين وللامام المهدي أحمد بن يحيى المرتضي (سيرة) كتبها ولده الحسين ..

وهكذا نجد عصر بني رسول قد أسس القواعد المنهجية لكتابة التاريخ في اليمن فحذا حذوها كل من أتى بعد هذا العصر من المؤرخين . والمتأمل لما كتبناه في كتابنا (مدرسة التاريخ اليمني) يجد الكثير من هذه الاتجاهات وتأثير هذا العصر عليها .. والآن مع قسمي التاريخ الرئيسين . وهما الحوليات والتراجم .. وهنا نجد صعوبة كبيرة في التفريق بين هذين القسمين لأن كثيرا من الكتب التاريخية قد جمعت بين كتابة الحدث التاريخي وفن الترجمة . كما هو الحال عند المؤرخ الجندي والاهدل . وقليلا ما نجد من يفرق بينهما كالمؤرخ الخزرجي الذي خصص لكل منهما كتب مستقلة . ومع ذلك فإن مؤسس كتابة الحوليات في العصر الرسولي هو المؤرخ اليمني بدر الدين محمد بن حاتم اليامي صاحب كتاب السمط الغالي الثمن . وقد ساير أحداث الدولتين الايوبية والرسولية بكل عناية ودقة . ثم تلاه المؤرخ عماد الدين بن علي الحمري المتوفي سنة ٧١٤ في كتابه الضخم (كنز الاخبار في السير والاخبار) وهو من موسوعات العصر الرسولي ونادرا ما يوجد كاملا . وقد أراد أن يؤرخ فيه للعالم الاسلامي قاطبة . فبدأ أجزاءه الاولى بسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ثم سيرة الخلفاء الراشدين من بعده . وتاريخ الدولة الاموية والعباسية وغيرهم من ملوك الشام والمغرب ومصر والعراق

وفي آخر الكتاب وضع نبذة في تاريخ اليمن الى زمن المؤلف . ويقول المؤرخ « بتاره » في وصف هذا الكتاب إنه (مأخوذ من تاريخ المسعودي وابن الاثير والطبري وغيرهم) وألف في التاريخ العام بعد الجندي الاديب تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني المتوفى سنة ٧٤٤ كتابه (بهجة الزمن) الذي وضعه بإشارة من النويري وفيه نجد سعة اطلاع المؤلف ودقته في وصف الاحداث مع منهجية علمية لا تنكر وتميز بحسن التبويب وايجاز العبارة . ولا تستغرب هذا الاسلوب على المؤلف فهو صاحب ثقافة واسعة واطلاع عام . وعلى أسلوب ابن عبد المجيد في تبويبه لأحداث التاريخ اليمني حسب الدول وضع الملك الأشرف الرسولي المتوفى سنة ٨٠٣ كتابيه (العسجد المسبوك) و (فاكهة الزمن في تاريخ اليمن) وفيه من الدقة وحسن التنسيق ما يعكس عنده علم الملك الرسولي ووقته ، ومن الباحثين المعاصرين من يشك في نسبة الكتاب الاول للملك الاشرف[1] . ويرجح أنه من تأليف الخزرجي الآتي ذكره . وأخيرا بلغ علم التاريخ قمة النضج بالمؤرخ علي بن حسن الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢ . وهو أستاذ هذا الفن في اليمن وصاحب الزعامة فيه وبوجوده يذكر تاريخ دولة بني رسول وأمجادها العظيمة فهو صنيع هذه الدولة ومعرفها ..

ثم ظهرت الشمولية في تأريخ اليمن عامة والمحلي في آن واحد حيث وضع المؤرخ عبد الرحمن بن محمد الحبشي المتوفى سنة ٧٨٢ تأريخ اليمن عامة وتأريخ بلدته وصاب في كتابه (الاعتبار في التواريخ والآثار) وكتب أخرى في هذا الباب استقصيها في بحث آخر ..

وكل هذه الكتب أضافت مادة رئيسية للتأريخ إذ هي المدخل العام لفهم تاريخ البلاد حيث شكلت في عمومها ترابط الاحداث وتناسق القرائن حتى لاتكاد تقف عند زمن يفصل بينه زمن آخر .

---

(١) أنظر بحثا حول هذا الموضوع للاستاذ مصطفى جواد في مجلة المورد .

أما فن التراجم فهو الشق الآخر لعلم التاريخ ، وقد ولــع به أهل اليمن الولوع التام وارتبط بنزعة دينية خاصة حيث حفظت فيه عادات القوم ومجاهداتهم وسلوكهم الشخصي واعتبر تدوينها للعظة والاعتبار وتنشيط الهمم ، ولهــذا السبب نقف دائما في هذه التراجم على أخبار العباد والصالحين ومنهم من كتب هذه التراجم بقصد التعريف بعلماء اليمن وسد النقص العام الذي أصيبت به الموسوعات الاسلامية فيما يتعلق بعلماء اليمن وصلحائه ، وأنت تلمس هــذا الشعور منذ زمن ابن سمره في القرن السادس حتى آخر العصر الرسولي في زمن العلامه أحمد بن أحمد الشرجي المتوفى سنة ٨٩٣ هـ الذي يقول في مقدمة كتابه (طبقات الخواص) أنه (لم يرَ أحداً من المؤرخين قد تعرض لذكر أحد من أهل اليمن وانما يذكرون أهل الشام والعراق والمغرب ونحو ذلك)وبهذا الدافع القوى كتب المؤرخون في اليمن تراجم مشاهيرهم من العلماء والزهاد ..

وقد بدأت كتابة التراجم المرتبة حسب الطبقات بالمؤرخ اليمني مســلم اللحجي المتوفى سنة ٥٤٥ تقريبا في كتابه « أخبار الزيدية » الذي خصصه في تراجم علماء هذا المذهب ورتبه على خمس طبقات الطبقة الاولى في المعاصرين للامام الهادي يحيى بن الحسين وأبنائه والثانية في المعاصرين للمختار من بني الضحاك وغيرهم والثالثة في ذكر الآخذين عن الطبري القادم الى اليمن والرابعة في الآخذين عن مطرف بن شهاب شيخ المطرفية والخامسة في المعاصرين للمؤلف ...وهكذا نجد هذا الكتاب أول مؤلَّف يوضع فيطبقات علماءاليمن وأبنائه،وليس كتاب ابن سمره الآتي ذكره كما يزعم الاستاذ فؤاد سيّــد بأنه أول مؤلف في طبقات علماء اليمن .

ثم تلاه ابن سمرة ووضع كتابا حافلا في طبقات فقهاء اليمن من أهل السنة ورتبه على سبع طبقات من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الى زمنه في القرن السادس ثم ألحق بآخر الكتاب فصلا في تراجم الفقهاء حسب البلدان وهــي طريقة عجيبة توسع فيها من بعده المؤرخ الجندي والاهدل حتى أنهما سلكا في

ترتب كتابيهما ترتيب على حسب البلدان وقد أعانا في التعريف بالبلدان والقرى اليمنية عن مراجعة معاجم البلدان التي نادرا ما تشير اليها كتب البلدانيات .

وهذا الجندي هو حجة علم التاريخ في العصر الرسولي ، وقد تميز كتابه بالاستقصاء وحسن الترتيب ، وقد جعل من كتاب « طبقات فقهاء اليمن » لابن سمرة المادة الرئيسية له ثم توسع في تراجم العلماء الذين ظهروا من بعده مع استطرادات في تراجم العلماء الوارد ذكرهم في الكتاب من غير أهل اليمن وألحق أيضا بكتابه ملاحق في ذكر الدول التي حكمت اليمن من أول الاسلام الى زمنه .

أما الخزرجي فانه خرج عن قاعدة سبقه ابن سمرة والجندي وبنى كتابه في التراجم المسمى (طراز أعلام الزمن) على حروف المعجم على الرغم من تسميته هذا الكتب بالطبقات . وميزة كتب الخزرجي أنه جمع مادة كتاب ابن سمرة والجندي وأضاف اليهما العلماء المتأخرين عنهما ورتبهم حسب الحروف فسهل تناوله والرجوع اليه فأنت مثلا لاتستطيع أن ترجع الى ترجمة من تراجم الجندي إلا بعد مشقة كبيرة لعدم اتباع الطريقة المعجمية التي سار عليها الخزرجي ..

وعلى كل ، فان قاعدة ابن سمرة التي تعتمد على الطبقات والتسلسل الزمني لعصور العلماء وقاعدة الجندي التي تلتزم ذكر العلماء حسب البلدان وقاعدة الخزرجي المعجمية ، هي الطرق الثلاث التي سار عليها المؤرخون اليمنيون بعد القرن السابع . وظهرت كتب لاتخرج عن الانماط الثلاثة . فعلى القاعدة الاولى كتب المؤرخ الصوفي عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ كتابه في تراجم علماء الاسلام المسمى « مرآة الجنان » جمعه من ملخصات الذهبي وابن الجوزي وغيرهما . وعلى القاعدة الثانية كتب المؤرخ الحسين بن عبد الرحمن الاهدل المتوفى سنة ٨٥٥ كتابه « تحفة الزمن » وتبعه في أسلوبه المؤرخ شريحي في كتابه « تراجم علماء اليمن » وبدأه بذكر أهل صنعاء وسار فيه حتى وصل الى عدن وبها ختم كتابه وهو من أهل القرن التاسع وامتد عمره الى نحو سنة ٨٩٠ هـ ولم أقف على ترجمته ولا على اسمه الكامل . وتأثر بالقاعدة الثالثة

وهي قاعده الخزرجي المؤرح أحمد بن أحمد السرجي من علماء آخر العصر الرسولي وبنى كتابه على حروف المعجم ثم حسه بأهل الكسى كما فعل الخزرجي .
وفي العصر الرسولي وضعت ثلاثه كتب في التاريخ لم تحظ بالعناية والاهتمام فضاع بعضها وجهل شأنه ، والكتاب الاول من تأليف لفقيه محمد بن يوسف المزجد وهو بعنوان (تحفـة الزمن) ووقف على مخطوطته الوحيدة المـؤرخ الحسين بن عبد الرحمن الاهدل ونقل اكثر مادته في كتبه المسمى بنفس الاسم أما الكتابان الآخران فأغلب الظن أنهما وضعا بإشارة من السخاوي صاحب الضوء اللامع وهما من تأليف موسى بن أحمد الدؤالي وحمزه بن علي الناشري وللملك الافضل الرسولي كتاب في التراجم بعنوان (العطايا السنية في المناقب اليمنية) وذيله (نزهة العيون) ولمحمد بن أبي بكر الخياط كتاب في التراجم نقل عنه البريهي في تاريخه .

وبعد فان الحديث عن التأريخ في العصر الرسولي متشعب الاطراف ويكفي أن نشير هنا الى أربعة من حملة فن الكتابة التاريخية في هذا العصر حتى ندرك مدى تطور هذا الفن ورقيه ..

محمد بن حاتم :

هو بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمـد بن عمران بن الفضـل اليامي الهمداني . أقدم من دوّن التاريخ في العصر الرسولي وهو أحد فرسان القلم والسيف . سـاهم في خوض المعارك الكبـيرة مع الدولة الرسـولية وأعطي المناصب الحكومية الكبيرة وله نظم جيد أورد بعضه في تأريخه ، ويقول ناشر كتابه إنه لم نجد معلومات كافيه عن حياة محمد بن حاتم برغم التحريات الواسعة .

أما تاريخه فقد وضعه في أخبـار دولة الايوبيين في اليمن وتاريـخ دولة الرسوليين الى زمن الملك المظفر . وهو تاريخ حافل عجيب فيه من الاستقصاء والتحري في الرواية ما يبهر العقل ، وأهم مايلفت النظر في كتابه رصانة الاسلوب وتماسك العباره حتى كأنك تقرأ قطعة أدبية ، وربما أفلتت في عباراته بعـض

الكلمات العامة المستعملة في التخاطب العادي . إلا أنك اذا رجعت الى أصلها وجدتها فصيحة . ويشرح المؤلف دعته الى تأليف كتابه فيقول : إنه لم يجد أحداً من المؤرخين من صرف همته في تدوين أخبار الغسر في اليمن فأحب أن يكون السابق الى ذلك . ثم يمضي في سياق تأريخ الغسر باليمن ويتوسع في ذكر التفاصيل الدقيقة في تأريخهم بأمانة ودقة . وقد أحسن محققه بنشر هذا الكتاب القيّم .

الجنــدي :

هو شيخ المؤرخين وإمامهم في العصر الرسولي . أبو عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي عُرف بالبها ، وقد أمضى حياته متفرغا لدراسة العلوم وشغل المناصب القضائية الكبيرة ، وكان والده أحد أعيان العصر الرسولي وله مشاركة في علم الفقه والادب . وعنه نقل الابن كثيرا من معلوماته المتعلقة ببعض من يترجم لهم .. وكان والده من أكبر شيوخه في الفقه والتاريخ ، ثم تلقى بعض علومه على أكابر شيوخ عصره ، ففي الفقه درس على العلامة الكبير أبي الحسن علي بن أحمد الاصبحي وعلى الفقيه صالح بن عمر البريهي وغيرهما . ويحدثنا الجندي عن طفولته فيقول إنه كان يرحل مع والده من أقصى الجند الى (الكدرى) في تهامة على حمار له . وقد استفاد من هذه الرحلات المبكرة افادة كبيرة ساعدته في معرفة كثير ممن يترجم لهم . ثم انغمس في الوظائف الحكومية القضائية فتولى أولا إمامة المدرسة المنصورية بعدن ، ثم رتب مدرسا بالمدرسة المظفرية سنة ٧٢٣ بتعز ، وبعد ذلك كلف بحسبة مدينة عدن وهي من المناصب الحكومية الهامة التي لا يتولاها إلا من كان على درجة كبيرة من الاستقامة الخلقية والعفة حيث يشرف فيها على قضايا الناس السلوكية . ومكث في هذا المنصب أكبر مدة أمضاها في الخدمة الحكومية حيث مكث فيها من سنة ٦٨٦ الى سنة ٧٢٦ وتزوج خلالها في مدينة عدن احدى بنات الفقيه طاهر بن علي أحد تجار عدن . وقد أصيب بعد زواجه بكثرة الاولاد من البنات ولم ينجب إلا ولدا واحدا

من الذكور أسماه باسم والده ، ويعترف بفقره وكثرة عياله في كتابه مما جعله يضطر الى قبول القضاء سوزع على كراهية منه لهذا المنصب.

وفي سنة ٧٢٥ هـ تنتهي من خدمته في حسبة عدن فيرحل الى زبيد ويتولى حسبتها ويعتبر هذا المنصب محنة من المحن التي نزلت عليه ، يقول : (في سنة ٧٢٥ متحنت بحسبة زبيد لعدم قدره وكثرة عيال) . وهـذا يدل على وثوق الدولة الرسولية بهذا الرجل في تولي منصب الحسبة مرتين . وقد كاد الجندي أن يشرف على الموت قبل الفراغ من تأليف كتابه . فقد أصابه مرض شديد بمدينة حيس سنة ٧١٧ ، يقول : (شست من الحياة فضلا عن تمام الكتاب) . أما عـن تدوين تاريخه فقد حدثنا في مقدمته أنه وضعه بدافع حب الوطن والحرص على تأريخ بلاده . فقام بهذه المهمة خير قيام . وظلت مـسودات كتابه ترافقه في حله وترحاله حتى آخر لحظة من حياته . وقد حدثنا عن رحلاته الشاقة في سبيل جمع المعلومات من أفواه المسنين ولم يصده عن عزمه أن يرحل الى الاماكن المخوفة الجانب من قطاع الطرق فيحزم أمتعته المكونة في الغالب من كتبه الفقهية ويذهب بهمة قعساء . وقد حدثنا عن بعض هذه الرحلات فقال : (في شعبان سنة ٧٢٠ شمرت للرحلة وخرجت من الجند ومعي كتبي وصاحب سوق الدابة وذهبت الى وصاب بقصد الاجتماع بالفقيه محمد بن يوسف الغيثي وأخذ المعلومات التاريخية عنه وعن أهل بلدته حتى أتيته بموضع يسمى (العين) وكان أخذ في جماعة من الناس وقالوا الطريق اليه شاقة لكثرة المفاوز والمخـاوف والبعد ، وذكروا لي أن جماعة نهبوا وقتلوا فلم ألتفت الى شيء من ذلك حتى أتيت الفقيه المذكور بعدما قاسيت الشدائد خوفا على نفسي وكتبي) . انظر الى هذه المشقة الكبيرة التي لقيها مؤرخنا في سبيل جمعه لكتابه وأين هو من همم المعاصرين لنا .

ومع كثرة رحلات الجندي الفاشة في شتى أنحاء البلاد اليمنية فانه يحز في نفسه أنه لم يتمكن من الوصول الى بعض البلدان لبعد المسافة وخطورتها فهو لم يستطع مثلا دخول (مدينة الدملوه) ونواحيها فكتب الى أحد العلماء

بها يسأله أن يمده بمعلومات عن علماء مدينته .. وكذلك لم يصل حضرموت ونواحيها وانما كان يلتقط الاخبار عنها من أفراد الركبان ..

وهكذا كان تاريخ الجندي نتيجة عمل مضن وشاق تقف عنده الهمم الكبيرة ، ولولا جلد الجندي وصبره ما استطاع أن ينجز موسوعته التاريخية ، وقد أبان في مقدمة كتابه عن شيء من فلسفته حول التاريخ وكتابته و أوضح منهجه في ذلك فقال : (أما بعد لما كان علم التأريخ من العلوم المفيدة والقلايد الفريدة موصلا علم السلف الى من خلف مميزا لذوي الهداية عن أهل الضلف بعد الأعصار بعد ذهابها وبينه على خطئها وصوابها وتجديد أخبارها و آثارها ويميز أخيارها عن أشرارها وفيه يستمد الآخر عقل الاول) الخ..

ويذكر سبب تأليف الكتاب فيشير الى أن حبه للوطن هو الدافع الاول لوضعه لمصنفه . (فأحببت حينئذ وضع كتاب أجمع فيه غالب علماء اليمن وأذكر مع كل مايقت من حاله مولدا ونعتا ووفاة بعد أن أضم الى ذلك إشادة من أعتقد أن اشادته حكم وطاعته عنم) ويقول أنه صدره أولا بتراجم العلماء لفضلهم ثم ألحق به تراجم الرؤساء والملوك وغيرهم من المتعلقين بالدولة .

ولاينسى المؤرخ الجندي وهو يعرض أسلوبه في كتابه أن يرد على بعض منتقدي التأريخ فيقول : أليس (القرآن الكريم) قد قص علينا من أخبار الانبياء والصالحين والقرون الماضية والاخرى أن المتأخر متى وقف على خبر من تقدمه من الفضلاء اذا سمع كيف تشميرهم وافعالهم على العلم وطلبه تاقت نفسه الى الاقتداء بهم في مسلكهم الخ . ويحدثنا عن مصادره في الكتب فنجدها قليلة جدا لعدم وجود تلك الكتب في زمنه وهي في عمومها لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة فقد رجع الى كتاب « طبقات فقهاء اليمن » لابن سمرة واعتبره مادته الرئيسية والى كتاب « تاريخ صنعاء » للرازي والزهري و « المفيد » لعمارة اليمني و « تاريخ ابن خلكان » استعان به في تراجم العلماء من غير أهل اليمن وربما رجع الى غير ذلك من الكتب التي صرح بالاخذ عنها في مواضع مختلفة

من كتابه فهو يشير مثلا أنه نقل أكثر تراجم علماء تعز من كتاب لعمه عثمان بن محمد الشرعبي المتوفى سنة ٧١٨ وأخذ أيضا عن كتاب « السمط العالي الثمن » لمحمد بن حاتم وعن كتاب «بهجة الزمن» لابن عبد المجيد اليماني وذكر في موضع آخر أنه استفاد من تذييل المؤرخ حسن بن علي الحميري المتوفى سنة ٦٦٧ على كتاب « طبقات فقهاء اليمن » لابن سمرة • وهذه الكتب مادتها ضئيلة جدا بجانب ما استفاده من رحلاته المتعددة ••

ومن الغرائب الملفتة للانظار في حياة المؤرخين في اليمن أن الواحد منهم يظل طول عمره يرصد أخبار العلماء ووفياتهم ثم يموت فلا نجد من يكتب وفاته وهكذا مات الجندي فلم نجد من يؤرخ موته مع أنه عاش في فترة زاهرة بالعلم والعلماء • إلا أن المؤرخ الخزرجي الذي عاش مؤلفات الجندي معايشة تامة يخمن أنها وقعت سنة ٧٣٠ وله في ذلك حجته القوية فهو يقول : « الذي يظهر لي أن وفاته كانت في سنة ٧٣٠ فانه ساير أخبار الدولة المجاهدية عاما عاما وشهرا شهرا الى اثنين شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة ثم انقطع هنالك كلامه من غير إشعارنا بالفراغ مما قصد والغالب أنه بغته أجله وحضرت حينئذ وفاته رحمه الله رحمة واسعة وغفر له مغفرة جامعة » •

الخـــزرجي :

مؤرخ الدولة الرسولية وعالمها أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر ابن الحسن بن وهاس • عرف بموفق الدين الخزرجي • ولد بعد سنة ٧٣٠ حسب قول البريهي ويؤيده في ذلك قول الخزرجي عن وفاة المجاهد سنة ٧٣٧ وادراكه قول الناس عنه في ذلك الوقت • وهذا الرجل من الرجال العصاميين حيث إنه لم يشتغل في بادىء أمره بطلب العلم وانما كان يعمل صبيا عند أحد المعماريين في تبييض جدران البيوت وزخرفتها بالنقوش والكتابات • وشب على ذلك حتى أصبح (مقدم أصحاب هذه الصناعة) حسب قول الخزرجي نفسه • وقد أوكل اليه القيام بزخرفة المدارس والدور الملكية واسمه مثبت في بعض المدارس

كالمدرسة الافضلية وربما أمره السلطان نفسه بمباشرة العمارة مع حمله المزخرفين في دار الديباج • وقد استدعاه من مدينة زبيد الى تعز الوزير عمر بن أبي القاسم بن معيبد سنة ٧٧٩ لعمارة مدرسة في ناحية المحاريب ••

واكتسب من صنعته ذوق فني رفيع بجانب حسن الخط الذي تحتاجه فن الزخرفة ككتابة الآيات القرآنية والابيات الشعرية • ويبدو أن هذه المهنة كانت مهنة راقية في العصر الرسولي حيث تولاها في ذلك الوقت قاضي زبيد محمد بن مسعود بن أبي شكيل بعد نكبته في القضاء واستلائه بالديون مما اضطره أن يشغل نفسه أخيرا بالعمارة • وكانت مهنة الخزرجي بزخرفة البيوت من عوامل معرفة ملوك الدولة الرسولية له واكتشاف مواهبه التاريخية فقربه اليه الملك الافضل ووضع باسمه كتابه « العطايا السنية » وديله في أغلب الظن وهو الذي أمره بزخرفة مدرسته بزبيد وزخرفة (دار الديباج) كما أسلفنا ثم اشتغل بالتعليم ودراسة الادب والتاريخ ، وبرع في علم القراءات على وجه الخصوص، حتى إنه عين من ضمن القراء في الجامع المبارك بقرية المملاح،واستأثر به الملك الاشرف بعد وفاة الافضل وكلفه بالحج عن والدته « الآدر الكريمه » وأعطاه أربعة آلاف درهم للحج وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد رجوعه الى اليمن سامحه الاشرف في ضرائب أراضيه الزراعية « مسامحة مستمرة مؤبدة » ووضع الخزرجي للاشرف عدة كتب في التاريخ باسمه لعل أهمها كتاب « العسجد المسبوك » الذي ينسب أحيانا للخزرجي وأحيانا للاشراف ، ويبدو أن الخزرجي قد كتب الكتاب مرتين مرة في حياة الاشرف ونسبه اليه ومرة بعد وفاته سنة ٨٠٣ ونسبه الى نفسه حيث أبت نفسه أن يستأثر بهذا العمل الكبير من لم يتعب نفسه في البحث والتنقيب • وهذا ليس أول كتاب ينسبه الخزرجي الى الملك الاشرف ثم يعود في نسبته اليه فقد سبق أن نسب كتاب (العقود اللؤلؤية في تأريخ الدولة الرسولية) اليه ثم عاد في ذلك وكان السخاوي في القرن الثامن يعتقد أن هذا الكتاب من مؤلفات الملك الاشرف •

وعلى العموم فإن تعرف الخزرجي الى ملوك الدولة الرسولية كان سببا في ظهور مؤلفاته التاريخية وقد ترك في هذا الصدد مجموعة من الكتب القيمة لعل أهمها كتابه « العسجد المسبوك » في التاريخ وكتاب « طراز أعلام الزمن » في التراجم ويسمى أحيانا « العقد الفاخر الحسن » وعنه ينقل السخاوي وابن حجر العسقلاني • ومن كتبه التاريخية الاخرى كتاب « الكفاية والاعلام فيمن ولي ملك اليمن وسكنه من ملوك الاسلام » في تاريخ اليمن رتبه حسب الدول التي حكمت اليمن وكتابه « العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية » أرخ فيه للدولة الرسولية الى سنة ٨٠٣ بوفاة الاشرف وكتاب « مرآة الزمن في تاريخ زبيد وعدن » وهو من كتبه المفقوده وكتاب «المحصول في انتساب بني رسول» وهو يعترف في هذه الكتب بفضل المؤرخ الجندي عليه ويقول : « لولا جمعه وبحثه واستقصاؤه ما تصديت لتصنيفي ولا اهتديت الى شيء من ذلك ولكني هديت ما جمعه ورتبت ما وضعه وذيلته بمن بعده فهو الذي شجعني على ذلك الطريق الى ما هنالك فهو في السلم شيخي وامامي وفي الحرب ترسي وحسامي برد الله مضجعه وآنس مصرعه » وهذا بعض من اعترافه بالجميل لسلفه الجندي •• توفي الخزرجي رحمه الله بمدينة زبيد سنة ٨١٢ هـ •

الاهـــدل :

ومن أكابر العلماء والمؤرخين في العصر الرسولي العلامة حسين بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن أبي بكر بن علي الاهدل • من أسرة آل الاهدل الشهيرة بعلمائها الاجلاء وهو من أفضل علماء العصر المحققين حيث تعددت معارفه العلمية وأصبح من كبار المنتجين في الفكر اليمني على مختلف اتجاهاته • ولد سنة ٧٧٩ تقريبا بقرية القحرية عربي« الجثة » من زبيد ونشأ بها حتى حفظ القرآن الكريم وقد نبأ أهله منذ صغره بعلو شأنه فلما حفظ القرآن الكريم رغب في الفقه وانتقل الى المراوعة قبل البلوغ فقرأ كتاب التنبيه في الفقه وحفظه ومختصر الحسن في النحو (وبداية الهداية) و (التبيان في آداب القرآن)

للنووي وكانت أكثر قراءاته على نسخة العلامة علي بن آدم الزيلعي ثم رحل الى بيت الفقيه حسين في رجب سنة ٧٩٨ فأقام بحافة الشرجة عند آل العرضي وقرأ عليهم في (التنبيه) وشرحه ثم قرأ عليهم أيضا (المهذب) و (المنهاج) والاذكار للنووي وأعاد قراءة (المنهاج) على علي بن أبي بكر الازرق السابق ذكره وطالع كتابه (مختصر مهمات الاسنوي) .ويقول: إنه استفاد عنه معرفة تاريخ علماء المذهب الشافعي وأسمائهم ونسخ تحت اشرافه كتابه (النفائس) في الفقه وقرأ عليه أمهات كتب الحديث والفقه وكان ابن الازرق قد اكتشف في تلميذه بوادر النبوغ فكان يثني عليه ويقول إن عاش هذا باليمن لايكون مفتيها إلا هو وكان يوصي بأن يخلفه في الافتاء بعد موته ويأمره بالافتاء في بعض المسائل الفقهية أمامه وهكذا اشتدت عنايته بتلميذه فكان الاهدل يثني عليه كثيرا في تاريخه وغيره . ثم قرأ في سائر العلوم وكان يقول : « لم أر أحسن ولا أوثق من كتب الشرع والتفسير والفقه والحديث ولايعول على ذلك إلا كل موفق » . ومن أكابر شيوخه العلامة محمد بن علي بن نور الدين الموزعي السابق ذكره وقد نزل عنده في بيته حسين فقرأ عليه في أمهات كتب الحديث ..

وتكثر مطالعات الاهدل وشيوخه وقد أفادنا عن نفسه بالكثير من المعلومات الهامة فهو من العلماء اليمنيين القلائل الذين ترجموا لأنفسهم ، ويقول متحدثا بنعمة الله عليه (بارك الله لي في العلوم فعرفت ماهية كل علم لمشاركتي في علوم شتى وعرفت عقائد الأئمة من الاشعرية وغيرهم من الحنفية والحنابلة والسنية والحشويه وعرفت مذاهب المبتدعة من كل فريق وعرفت مصطلحات العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والاصوليين وحققت علوم الصوفية وميزت بين محققيهم وشطاحهم وميزت العلوم المحمودة والمذمومة وعرفت مذهب الفلاسفة » وهكذا تعددت مدارك الاهدل العلمية ونادرا ما يحظى بهذه السعة في العلم شخص كالاهدل ويقول إنه يسر له سبع حجات الى مكه المكرمه وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم والمجاورة مدة بالمدينة المنورة وأجازه فيها جماعة من أكابر علمائها .

ومن مؤلفاته العلمية كتاب الكفاية في تحصين الرواية فرغ من تبييضه سنة ٨١٨ وألف في نفس السنة كتابه (عدة الناسخ والمنسوخ) من الحديث وكلاهما في الحديث . وفي هذه السنة ألف كتابه الهام في الرد على الصوفية الشطاح المسمى « كشف الغطا في حقائق التوحيد وعقائد الموحدين » فرغ منه سنة ٨٢٦ وهو من مراجعنا الرئيسة في كتاب « الصوفية والفقهاء » وقد طبع في تونس ثم ألف (المسائل المرضية في نصرة مذهب الاشعرية) و (بيان فساد مذهب الحشوية) ألفه بعد سنة ٨٣٠ ثم صنف كتاب (التنبيهات على التحرر في الروايات) ووضع كتابا في شرح أسماء الله الحسنى بعنوان (الاشارة الوجيزة الى المعاني العزيزة) وكتاب (النعمة في معرفة الفرق المبتدعة) وقصيدة في الحث على طلب العلم وآدابه وشرحها وشرح دعاء أبي حربة في مجلد ضخم بعنوان (مطالب القربة) واختصر شرح البخاري للكرماني ومختصر كتاب خصائص النبي صلى الله عليه وسلم للنحوي وزاد فيه مواضيع ومختصر فتاوى ابن تيمية في مسائل الخلع و الطلاق والحسب والكفارة وكتب في نقد الناشئي وغيره من الصوفية كتابا بعنوان (تعريف السؤال) وله مجموعة فتاوى فقهية وكتاب في الرؤية وأقسامها وكتاب في طبقات الاشاعرة وكتاب (انفوف المنتصر في الدعاوى المدرعة بجياد الخصر) .

أما كتبه في التاريخ فهي قيمة في بابها وقد أعجب بها العلامة أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني واعتبرها من خير الاضافات على تأريخ الجندي . وكان قد همه أولا أن يختصر تأريخ اليافعي ويذيل عليه ثم عدل عن ذلك لعدم ذكره علماء اليمن وشرع في اختصار (تأريخ الجندي) وذيل عليه تراجم العلماء الذين ظهروا بعده فجاء كتابا حافلا . وفيه يقول في مقدمته : « أما بعد لما وقفت على تأريخ العلامة أبي عبد الله محمد بن يوسف الجندي الذي قصد به بيان تواريخ علماء اليمن وفضلائها أردت انتخابه تسهيلا على طلابه مع ما أضمه اليه ان شاء الله من زيادات مستحسنة وسمته « تحفة الزمن في تأريخ سادات اليمن » وربما

ساهلت في التحقيق تعمدا لتجدي على عباده المؤرخين في بعض الامور والغرض به وبأصله بيان بعض فضل اليمن وأهله » وهذا الكتاب من أهم ما وضع في فن التأريخ خلال العصر الرسولي • توفي الاهدل بأبيات حسين في تاسع المحرم سنة ٨٥٥ قبيل انقضاء الدولة الرسولية ثلاث سنوات فقط ..

الادب :

بعد بزوغ الاسلام في الجزيرة العربية تعددت اللهجات واللغات ولم تعد مجتمع مكه والحجاز مصدرا من مصادر البلاغة يرحل اليه طلاب اللغة والفصاحة، واذا كان هناك من مناطق قليلة احتفظت بأصالتها اللغوية في الجزيرة ، فان اليمن في مقدمة هذه المناطق اذ احتفظ اليمن بعزلته ولم يكن فيها مايغري القادمين اليه لا من الناحيه الدينية كمكة والمدينه ولا من الناحية السياسية كبغداد والشام، وهكذا فقد كان لعزلة اليمن أثر في احتفاظ البلاد بأصالتها عاداتها وتقاليدها العربية الخالصة •

وهذا لايعني أن اليمن لم يعرف العناصر الاجنبية عموما فقد دخله الفرس قبل الاسلام ومن بعدهم وقبلهم كان الاحباش • وفي عصر الاسلام دخلت جيوش بني أمية ومن جاء من بعدهم الا أن هذه الوفادات كانت ضئيلة جدا ولم تترك آثرها الى حد تغير الالسن والانساب •

ومع ذلك فان خوض اليمنيين غمرة الفتوح الاسلامية ودخولهم فيها بنفوسهم ونفيسهم لم يترك فرصة للادب اليمني أن يبرز مكنونه ، فقد انشغل الناس بحديث السيف عن انشغالهم بحديث القلم والقرطاس .. ثم استعادت الارومه اليمنية أدبها وشاعريتها بعد استقرارها في مهاجرها بعد الفراغ من الفتوحات الاسلامية ومنهم من ذكر وطنه الاول ومنهم من انشغل بوصف مباهج الحياة في البلاد المحيطة به في الشام والاندلس والمغرب • ومن الفريق الأول الشاعر يزيد بن مقسم الصدفي الذي يقول في وصف قومه من الحضارم وحكومتهم في مصر :

يا حضرموت هنيئاً ما خصصت به   من احكومه بين العجم والعرب
في الجاهليه والاسلام يعرفه   أهل الروايه والتنقيب والطلب

ولو نشير الى أدب عمرو بن معد يكرب الزبيدي فالحديث عنه يطول ، ويكفي أن نقول في هذا الصدد إنه رائد شعر الفتوح الاسلامية قاطبة وشعره يعتبر الشعله القوية في تنشيط الهمم وإلهاب النفوس .

وكانت اليمن في أوائل تاريخها الاسلامي محط الرحال لكثير من شعراء العربيه كعمر بن أبي ربيعه الذي نزل لحجا وتزوج بها ومروان بن أبي حفصه وابن الشمقمق وغيرهما .

ويحدثنا الهمداني عن الحركة الادبية في القرون الاولى فيشير الى أن صنعاء وحدها قد ضمت جماعه من الادباء والبلغاء وبعض العلماء فيقول .

(ولم يزل بصنعاء عالم وفقيه وحكيم وزاهد ، ومع ذلك فهم أهل تعبير لعارض الامور وخدمه السلطان بأهبة وتملك وتنعم في المنازل وصناعة الاطعمة ولهم الخط الصنعاني المكسر والتحسين الذي لايلحق به) . ومن بلغائهم وأدبائهم مطرف بن مازن ووهب منبه وابن الشرود وعلقمة بن ذي جدن ووضاح اليمن وأبو السمط الفيروزي وغيره .

ومن كتب النثر الادبي في عصر هارون الرشيد باليمن الاديب بشير بن أبي كبار صاحب الرسائل الادبيه العشر وهو خير من ضمن الآيات القرآنية في نثره .

ويكثر الادباء بعد عصر الهمداني فيتطور الشعر في اليمن حتى تصبح له مكانة عالية ولا يضره في ذلك اهمال الادباء له في خارج اليمن ، فالقوم قد اعتادوا تناسي اليمن في كل شيء . وقد مر بنا مثل هذا كثيرا ، ولهم بعض العذر في ذلك لبعد البلاد عنهم وهذا عام في أدباء مصر والشام في عصر نهضتها الاسلامية في زمن الفاطميين .. ونجد هذا حتى عند أكبر مؤرخيهم . فالصفدي لا يذكر أحدا من أدباء اليمن في موسوعته الا من أتى الى مصر من أدباء اليمن وقابله . وقد فيض

الله لليمن في القرن السادس رحلة الاديب عماره الى مصر فكان خير سفير لليمن وللادب اليمني، ولولاه مااستطاع العماد الاصفهاني أن يكتب فصل شعراء اليمن في موسوعته الادبية (خريده القصر وجريدة العصر) ولا استطاع القاضي الفاضل أن يكون معلومات هامة عن تاريخ اليمن عامة .

والاديب عماره هو أول من أرخ للادب اليمني بصفة جاده فقد أتحفنا في آخر كتابه المفيد بفصل قيم عن أدباء اليمن في العصور القريبه لعصره وعنه نستطيع التعرف على جماعة من أفاضل الادباء في ذلك الوقت ، وقد كتب ما كتب بدافع الحنين الى الوطن والشعور بالرابطة الادبية تجاه أدباء بلده ، فكان أن دون لنا عيوناً من الشعر اليمني البديع لم نستطع الحصول عليها لولا عمارة وحافظته القويه .

وقبل الدخول في ذكر الشعراء الذين ذكرهم عماره يجب أن نقول إن كتاب النثر الادبي كانوا قلة قبيل العصر الرسولي والذين كتبوا في هذا الصدد لاتتعدى كتاباتهم جانب الجمع والتنسيق ، فإن أول كتاب وضعه أديب يمني هو للاديب أبو محمد الحسن بن محمد بن عقامة المتوفى سنة ٤٨٠ وهو عبارة عن كناش أدبي يضم الحكاية والنادره والقصيده وأسمى مجموعه كتاب (جواهر الاخبار ونوادر الاشعار) ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب لايزال موجودا بين أيدينا ويؤثر عن الاديب الشاعر الحسين بن علي بن القم المتوفى سنه ٤٨٢ مجموعه رسائل انشائية كتبها على لسان ملوك الدولة الصليحية وتوجد غالبا بجانب مجموعة أشعاره .

وفي عصر عماره كتب ثلاثه من أدبائنا اليمنيين بضعة كتب أدبية وهم أحمد ابن محمد الاشعري من علماء القرن السادس وهو من قدماء المصنفين في اليمن وله مجموعه كتب في الانساب والحساب وغيره . أما كتابه الادبي فهو على أسلوب المقامات الادبية وهو عباره عن مقالات في الكرم والعلم والخلاعة والمصاحبه واللطف والحكايات المتعلقة بالشعراء والحكايات المتعلقه بالعشاق وأخبار النساء والاخبار المتنوعة وحكايات الصالحين . وهذه هي كل فصول كتابه المشار اليه وهو بعنوان (اللباب ونزهة الاحباب) منه نسخة خطية بدار الكتب المصريه .

وثاني أولئك الادباء عمارة اليمني نفسه وقد كتب كتابات أدبية غير شعره ككتاب (النكت العصرية) و (المفيد) ، ويتميز أسلوبه بالبسطه وجزالة التعبير .. وأخيرا نشوان الحميري ترك في النثر الادبي رسالته الحور العين وكتابا آخر تأثر فيه طريقه الاشعري السابق الذكر وأسماه (الفرائد والقلائد) ويتميز بحسن التعبير وايجازه .

فهذه كل حصيلتنا النثرية من أدباء ماقبل العصر الرسولي وأعني بها تلك التي أفردت في كتب مستقله .

أما الشعراء فهم كثيرون ، ومنهم من جمعت له دواوين كبيره كالاديب ابن أبي القم والخطاب الحجوري وأبي بكر بن عبد الله اليافعي اليمني وعلي بن محمد الوليد المتوفى سنة ٦١٢ من شعراء المذهب الاسماعيلي ، وهذا يدل على سعة الانتاج في الادب السني في ذلك الوقت .

وقد حدثنا عماره عن كثير من هؤلاء الشعراء فهذا الاديب ابن عقامة السابق من شعراء الفقهاء يصله شعر أبي العلاء المعري فينظم عليه قوله في الانكار على الشارع :

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله　　　وتزويجه ابنيه بنتيه في الدنا

علمنا بأن الخلق من أصل ربية　　　وأن جميع الناس في عصرنا زنا

فجيبه بقوله .

لعمرك أما فيك فالقول صادق　　　وتكذب في الباقين من شط أو دنا

كذلك اقرار الفتى لازم له　　　وفي غيره لغو بذا جاء شرعنا

ولابن عقامه حفيد من ابنه محمد لايذكر عمارة اسمه يعد من الشعراء الكبار وقد مدح الوزير رزيق الفاتكي بقصيده اولها :

نفسي الفداء لك كثيره الانفاس　　　لولا مقاساة الزمان القاسي

وعاصر عمارة من بني عقامة الادب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحمايلي، وكان شاعرا مترسلا واليه انتهت رئاسة الفقه الشافعي في زبيد ومن شعره من قصيدة :

تناقكم كل أرض تنزلون بها ... كأنكم لبقاع الارض أمطار

وعلى العموم فان بني عقامة من أعرق الاسر العلمية في زبيد وشأنهم في التاريخ اليمني يغني عن الاعاده هنا وما قدمت الحديث عنهم إلا لانهم من أقدم الادباء والمصنفين في اليمن .

وأدرك عمارة من شعراء اليمن ابن المكرمان من أهل برع وكان قد أسن وجاوز المائه وهو الذي مدح الامير غانم يحيى السليماني بقصيدة أجازه عنها بألف دينار وهي التي يقول فيها :

ما عسى أن يريد مني العذول ... وهو مشتم مبول
همه الهجر للغواني وقلبي ... سلبته خريدة عطبول

وتأثر بطريقة أبي النواس المجونية من الشعراء في ذلك الوقت الاديب أبو العباس أحمد بن بجارة يقول عمارة كان يحذو طريقة أبي نواس في الاشتهار بالخلاعة والمجون ، وربما مر بمنزل القاضي ابن عقامة وهو ينظم شعرا يقول فيه :

سكرات تعتادني وخمار ... وانتشاء أعتاده ونعار
فملوم من قال اني ملوم ... وحمار من قال الي حمار

ومن الامراء الشعراء السلطان حاتم بن أحمد بن عمران أحد ملوك صنعاء وله ديوان شعر ضخم من بين مافقد من الكتب اليمنية واحتفظ لنا الخزرجي في تاريخه بشيء من شعره الجزل من ذلك قوله :

أرقت وطال الليل والعقل نائمه ... وقد أفلت أشراطه ونعائمه
وأورى زناد الهم في القلب جذوة ... إذا جاش من تياره متلاطمه

وما ذاك من شـوق ولا نأي معهد ... ولا فقـد رسـم دارسات معالمه
ولكن اذا خـان الصديق صديقه ... وصارم بالاوهـام من لا يصارمه
ونكب عنـا مـن نريـد وداده ... وسـالمنا مـن لانريد سـلمه

وللسلطان حاتم شعر كبير توفي سنة ٥٥٦ .. فهذه ثلاثة أنشط من الشعراء أما مشاهيرهم فهم جماعة نشير الى بعض منهم فيما يلي .

أولهم الشاعر أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي اسم . وقد ترجم لـه ابن خلكان نقلا عن عماره وكان شاعرا ناثرا كتب في دست الملكة الحرة أروى الصليحية مده طويلة ومن شعره قصيدته التي وصلت الى العراق وهي قوله فيها:

الليل يعلم انـي لسـت أرقـده ... فلا يغـرنك مـن قلبـي تجلـده
فان دمعي كصـوب المـاء أيسره ... وان وجدي كحـر النـار أبرده
لي في هوادجكـم قلـب أصر به ... فيممسوه وإلا قمـت أنشـده
وبـان للناس ما قد كنـت أكتمه ... من الهوى وبـدا ما كنت أجحده

وكان يمدح الداعي سبأ بن أحمد الصليحي والمكرم زوج الملكه الحـرة ومدح الملكة الحرة أيضا ووفاته سنه ٤٨٢ .

وقبل ظهور الدولة الرسولية ظهر ثلاثة من فحول الشعراء باليمن هم اليافعي وعمارة والعبدي .

فأما الاول فهو أبو العتيق أبو بكر بن عبد الله بن محمد اليافعي من أهل الجند ولد سنة ٤٩٠ وكان ممن أدركه عماره وأثنى عليه في كتابه وتولى القضاء في الدولة الزريعية ، ولما وصل الى اليمن الرشيد الاسواني اتصل به وأخذ عنه علوم الادب وسائر العلوم وكان يقول : منذ بلغت عشرين سنة لم أقلد أحـدا في مسـألة فقهية واتصل بالفقيه يحيـى بن أبي الخير العمراني صاحب كتـاب (البيان) . ويقول عمارة: أدركته مقربا للامير المنصور بن المفضل والاميرالداعي محمد بن سبأ وغالب ديوانه في مدحهم وديوانه مجلدان معتدلان وشعره حسن

رائق يحوي على الجد والهزل والرقيق ويقول في مقدمة ديوانه (لا يظن ظان أن ذلك جهدي وكل ما عندي بل هنالك همم تسمو الى أرفع من الشعر رتبة ومذاكره للعلم هي أقدم منه محبه وأمور يبطن في عراها لا ترام قواها وهذه صناعة لها من أفكاري الفضلات فألى منها بحال السغب من زوال الطعام وحظها مني كحظ الموافق من طيف المنام) الى آخر قوله الذي يم مسه عدم اكتراثه بالشعر . ومن شعره قوله :

استودع الله الذي ودعا	ونحن للفرقة نبكي معا
أسيل من أجفانه أدمعا	لما رآني مسبلا أدمعا
وقال لي عند فراقي له	ما أعظم البين وما أوجعا
ما أنت بعدي بالنوى صانع	فقلت لا أقدر أن أصنعا
ما يصنع الصب المعنى اذا	فارق إلفا غير أن يجزعا

توفي اليافعي سنه ٥٥٢ .

وعماره هو نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكمي من أشهر شعراء العربية في عصره ولد باليمن في قرية الزرائب ونشأ في أسره عربية لا تتكلم إلا بالفصحى وخرج من بلده الى مدينة زبيد لطلب العلم سنه ٥٣١ فأخذ العلم على عبد الله بن الأبار وكان في أثناء ذلك يتعاطى التجارة واجتمع بالاديب ابن الحيدي فأكرمه وأمره بمدح الداعي محمد بن سبا لأجل الجائزه ولم يكن في ذلك الوقت يستطيع نظم الشعر فساعده على إتمام القصيده وقدمها للداعي فأثابه عليها بجائزة وهو الذي شجعه على دراسه الادب ونظم الشعر . يقول : ولما أزمعت السفر من عند الاديب ابن العيدي قال لي ياهذا قد تسميت عند القوم بسمة الشاعر فطالع كتب الادب ولا تجمد على دراسة الفقه ، فكان هذا سبب تعلمي له واشتغالي به . ولما برع عماره في علم الادب والشعر صار من أعيان زمانه طلب وده ملوك آل زريع فكان يمدحهم بالقصائد العديده . ثم رحل الى مكه واستعمل في الكتابة بين ملكها ابن فليته وملوك الدولة الفاطمية

في مصر،حتى اشتهر شأنه،فرحل الى مصر واجتمع بأدبائها،وبلغ مكانه كبيرة عند ملوكها من الفاطميين . وبعد سقوط دولتهم ظل على وفائه لهم ولم يستفزه تغير الاوضاع من حال الى حال ، حتى إن صلاح الدين وجد عليه لهذا السبب فأمر بشنقه في سجن خزانة البنود وهو ثاني أديب يمني يلقى مصرعه في هذا السجن الرهيب بعد الادب علي بن محمد اليامي المتوفى سنة ٤١٦ . وشعر عمارة كله جيد وهو مستقصى في كتب الادب التي أرخت لنجاة الادبية في مصر وغيرها ووضع أحد المعاصرين كتاباً مستقلا في أدبه .

وثالث الثلاثة الادب أبو بكر بن أحمد العيدى كان من شيوخ عماره وعلى يديه برع في علم الادب ووفد الى ملوك الدولة الزريعية فولوه كتابة الانشاء في دواوينهم وكانت قبله ضعيفة الاسلوب فأخذها وطورها وكان عندما يصل أديب الى اليمن يكون أول من يأخذ بيده وربما أعان الادباء على نظم قصائدهم ومنهم من ينتحل قصيدة لأحد الشعراء ويقدمها أمام أحد ملوك الدولة فيعلم بها العيدي فلا يعترض عليه ويعتذر له في بعض الاحيان.ومن شعره الجزل قوله:

حيــاك يا عـــدن الحيــا حيـــاك ... وجرى رضـــاب لمـــاه فوق لمـــاك

افترّ ثغـــرُ الروض فيك مضاحكا ... دلـيـثـر رونق ثغـرك الضحّاك

ووشـت حدائقـــهُ عليك مطارفاً ... يختال في حبراتها عطفاك

وقد امتد عمر العيدى الى أن أدرك مقتل تلميذه عمارة،وقد أسنّ وانقطع عن نظم الشعر . توفي سنة ٥٨٠ .. وفي زمن عمارة والعيـــدي قدم الرشيـــد الاسواني واتصل بأدباء اليمن فكان لقدومه أثر كبير بين الادباء واتصل به جماعة منهم ويقال إنه وضع باسم زبيد مقامته (الحصيبية) . توفي سنة ٥٦٢ ..وقدم الى اليمن في ذلك الوقت الاديب نصر بن عبد الله اللخمي الشـــهير بابن قلاقس المتوفى سنة ٥٦٧ ودخل عدن سنة ٥٦٥ واتصل بالادب العيدي وجرت بينهمـــا مكاتبات ومراسلات أدبية طريفة أوردها في كتابه (مواطر الخواطر) .

تلك اطلاله سريعة على الادب اليمني حتى بروغ الدوله الايوبيه واطاحتها بكل الدويلات الصغيره التي قامت في اليمن • وكانت هذه الدويلات بكثرتها خير معين للادباء اليمنيين ففقدوا بسقوطها موارد ماديه عديدة كانوا يستعينون بها في حياتهم المعيشية • في حين فقد الشعراء في ممدوحيهم ذلك الذوق العربي الخالص الذي كانوا يجدونه عند رؤساء القبائل والدول •••

ومع ذلك فان الدولة الايوبيه قد أدخلت الى اليمن أدبا اسلاميا حضاريا يعتمد في أسلوبه على تلك المستحدثات التي تفنن في ابتكارها أدباء مصر والشام وكادت تختفي من الادب اليمني صبغته المحلية التي يغلب عليها الطابع العربي الخالص •• ومع ذلك لم تكن لهذه الدوله أثر كبير في وجود نهضة أدبية كبرى واذا كان هناك من شيء يذكر في هذا الصدد فهو تلك الوفادات الادبية التي استقبلوا فيها جماعة من أدباء العالم الاسلامي كالاديب ابن عنين المتوفي سنة ٦٣٠ الذي دخل اليمن ومدح سيف الاسلام طغتكين •• والاديب ابن الدلال المصري وكان قد صحب الملك المعز اسماعيل بن طغتكين وقد اشتهر بين الناس بهجائه المقذع وهجا في اليمن القاضي الاسعد فقال :

حمـــل الاســـعدُ رمحـــاً قـــرنهُ أطـــول منـــهُ
وتمـــادى ينبغـــي مـــا قـــدرُهُ يقصـــرُ عنـــهُ

وأدرك الاديب العيدي شطرا من أول الدولة الايوبية ومدح ملكهم الاول توران شاه بقصيدة أولها :

أعســاكر ســيّرتها وجنــودا أم أنجمــا أطلعتهن سعودا

وهذا كل ما يقال عن الادب اليمني في عصر بني أيوب ، إلا أنهم أرشدوا الادباء في اليمن الى أساليب غريبة عليهم من الحياة والحضارة لم يكن لهم بها عهد فكان لهم من هذا زاد ثقافي استفادوا منه في شعرهم وأدبهم •

وبعد استمرار الوضع للدولة الرسولية كان أول ما قام به ملوكها هو

تفقد الوضع العلمي للبلاد . وقد رأينا ذلك فيما سبق في الزيارات المتكررة للعلماء والمساعدات المالية للادباء وقد جذبوا اليهم الشعراء باحسانهم المتواصل وربما قدموا اليهم فأكرموهم بالعديد من الجوائز التي لم يحصل عليها أحد من فئة العلماء سواهم حتى أصبح الشعر في ذلك الوقت مصدر تكسب وثراء كبير ثم فتحوا لهم صدورهم وقصورهم وحضروا معهم مجالسهم السرية التي كانوا يتكتمون عليها أمام الناس بما يدار فيها من مزح ومسة ينكرها عليهم رجال الدين .

وكثيرا ما كان الملك المظفر يستشهد أمام الأدباء بأبيات من الشعر حتى إنه استشهد ذات يوم ببيت نسي ما بعده واحتار في ذلك فدله أحدهم على الفقيه محمد بن أبي بكر الروقري وكان حافظة للشعر فأتوا به الى مجلسه وقد أسن وضعف ذهنه فسأله المظفر عن آخر البيت المطلوب وهو قول الشاعر :

« راحة الانسان جسما . بين حصني والديه »

فأجاب الفقيه على الفور بتتمة البيتين وهي :

« فـإذا ماتا أحالا . الشـقاء عليـه »

فقال المظفر هما والله البيتان وسر بهما سرورا عظيما . فهذا نموذج مما كان يدور في تلك المجالس من مناقشات أدبية وربما اقترح بعض ملوكهم على الادباء أن يصفوا له شيئا مما كان في المجلس فيتبارى الادباء في وصف ذلك الشيء وقد اقترح الملك الناصر على الحاضرين في مجلسه أن يصفوا له (العنبا) فقال ابن المقـــري :

أشرت من العنبـاء نحوي محبة   موردة ذات اصفـرار وحمـــرة
تروق بلون بين لونين مثلما   يروقك فجر بين يوم وليلة

ومن الشعر البديهي في تلك المجالس أن الامير شمس الدين علي بن يحيى العنسي أقام مأدبة كبيرة للادباء والعلماء فبعث الصحفة على الاديب عثمان بن يحيى ابن فضل فقال الامير مخاطبا الاديب .

بعد التحـــوح عن الفقيـــه الاوحـــــد عثمان بل خبر البرية عن يد

فأجابه الاديب مرتجلا :

ترد المراســـم ان أردت سفلـــه ويطول منك الباع ان قصرت يدي

فقام الامير مسرعا من مكانه واحتمل الصحفه بما فيها ووضعها بين يدي الاديب بن فضل .. أما الادباء أنفسهم فكانت تدار بينهم منافشات أدبيه حادة ولا تغيب هذه المناقشات في بعض الاحيان عن أنظار ملوك الدوله الرسوليه وربما شجعوهم على ذلك . فقد حدث أن اجتمع الادباء عند الملك الاشرف الثاني فثار الجدل بين أدباء الجبـــال وأدباء تهامه في تفضيـــل كل من العنب والتمر فتحزب للاول أهل تعز ونواحيها وتحزب للتمر أهل تهامه .. وكان أدباء تهامة يتعصبون دائما للسواد ويفضلونه على البياض فيرد عليهم في ذلك أهل تعـــز ونواحيها وقد تزعم أدباء تهامة في ذلك الاديب يحيى بن ابراهيم بن العمك المتوفى سنة ٦٧٠ تقريبا الذي يقول في تفضيل السواد :

أعيـــدي حديثـــك يوم الكثيـــب وسلّـي به عـــن فؤادي الكئيب
عشيـــة ســـوداء قد أقبلـــت تسـارقني لحظهـــا مـــن قـــريب
وقد أمنـــت رقيبـــة الكاشحين وســـمع الوشـــاة وعـــين الرقيب
بدت تنثني من خـــلال البيوت تجـــرر فضـــل الرداء القشيـــب
فخاطبتهـــا فرصـــة العاشقين بلفـــظ البـــريء ولحظ المريـــب
أرتنـــا القنـــا والنقـــا مائـــلا قـــوام القضيـــب وردف الكثيب
مولّدة من بنات الموالي كمثـــل الغـــزال الغرير الربيب
فان لامني النـــاس في حبّهـــا فمـــا لائمـــي أبـــداً بالمصيـــب
يقولون ســـودا وما أنصـــفوا وما ذاك لـــو نصـــفوا بالمعيب
فلو لا الســـواد وما خصّـــه به الله من حســـن ســـر عجيـــب
لما كـــان يسكن وســـط العيون ولا كـــان يســـكن وسط القلوب
ولا زيّن الخـــال خـــد الفتـــى ولا حســـن النقـــش طرز الاديب

أما حجر الركن خير الحجار | أما المسك أطيب من كل طيب
أما شغف الناس في دهرهم | بحسد الشباب وذم المشيب
ولا يحسن العين مرهى الجفون | ولا الكف ان لم تكن بالخضيب
ولا كل عين كعين المحب | ولا كل قلب كقلب الحبيب

ويكثر بين الادباء مدح البلدان أو ذمها ومنهم من يتعصب لبلاده ويذم سواها ، وقد تطور هذا الفن بعد ذلك فعرف بأدب(المفاخرات) وخير شاهد عليه مقامه (أقراط الذهب في المفاخرة بين الروضه وبئر العزب) وقد دخل الاديب عبد الباقي عبد المجيد اليماني مدينة عدن فلم تعجبه الاقامة بها لحرها فقال يذمها:

عدن اذا رمتَ المقام بربعها | فلقد أقمتَ على لهيب الهاويه
بلد خلا عن فاضل فصدوره | أعجازُ نخلٍ خاويه

ويفاضل الاديب عثمان بن عمر الناشري المتوفى سنه ٨٤٤ هـ بين الجبال والتهايم فيفضل الاخيرة يقول :

تذكرت في نفسي فلم أرَ زلة | كزلة من باع التهايم بالجبل
وأصبح عن ربع الأحبة نازحا | يسائل عن هذا وعن ذاك ما فعل

ومن هذا الفريق الذي يفضل التهايم على الجبال الشاعر ابن المقري يقول في ذم الجبال :

متى تدع الجبال على أناسٍ | حلو دهم وأعظُمهُم حديد
ففيهما يؤكل الانسان حيّاً | وان هو ضمّه برج مشيد
يبيت وجسمه للبق مرعى | وللحشرات من دمه ورود
اذا ما جُنّ فيها الليل أمست | تمزق في نواحيها الجلود
وبرد يرقص الانسان منه | بلا طرب ويرتعد الجليد

ويقول في ذم جبلة وبردها :

يا ليل جبلة هل لفجرك مطلعُ | هيهات قد ناديت من لايسمع

يمتي لهويسا نحو جبله صحبها — كرهـا وحين يسير عنهـا يسرع
ويقيم منها ساعه متلمسا — ويعيب ناوي دهره لا يرجع
لا يسكرن عليه قطع وصالها — فوصال أرض مثل حبه شمطع
واذا تهامي شكتي ضيعة — سمسر فهو بأرض حنة أجمع

أما الاديب عبد الله بن جعفر فانه يتكر على كل من يدم الجبل ويقول .

قالوا انحال بها ضيق فقلت لهم — «سم انخياط مع الاحباب ميدان»

وكانت هذه المجادلات الادبيه تدار بين الادباء فتنشط هممهم وتصقل قرائحهم فهم يسعون بها في اثاره مواضيع محليه بحته لا يقلدون فيها أحدا من أدباء العالم الاسلامي . وقد انسربت بينهم الثقافه الادبيه على أكمل وجوهها وولع الادباء باستجلاب الدواوين الشهيره على مختلف عصورها وكان اهتمامهم بشعر الجاهليين الا في النادر وقد أحب الناس في ذلك الوقت شعراء العصر العباسي أمثال بشار بن برد وأبي تمام والبحتري وأبي نواس وغيرهم ومنهم من عني عناية خاصة بشعر المتنبي واستظهره عن ظهر قلب حتى أن الجندي يصف جماعه من أدباء عصره فيقول إنهم سلكوا طريقة المتنبي في الشعر . أما أبو نواس فقد انتشرت أشعاره في صنعاء منذ زمن الهمداني وتناقلها الادباء على مختلف طبقاتهم ومنهم من اتبع طريقته في الغزل والخمريات كما سنبينه فيما بعد .

وتناقل الادباء كتاب (الحماسة) وحفظوا أكثر ما فيه وهو كتاب في الشعر يحتوي على أجود ما في الشعر الجاهلي والاسلامي من مقطعات والمتتبع للمكتبات الخطيه في اليمن يجد نسخا كثيرة من هذا الكتاب منها مايعود الى ما قبل زمن بني رسول بسنوات عديده . ولا يزاحمه في هذه الشهرة سوى كتاب (مقامات الحريري) والذي ولع به الادباء وتناقلوه فيما بينهم منذ زمن الامام الصغاني وقدومه الى اليمن في القرن السابع وعنه ينقل الادباء روايته لهذا الكتاب ومن الادباء في اليمن من أدرك الحريري وأخذ عنه مقاماته كالاديب عبد الله بن العباس

الشاكري . والمقامات هو الكتاب الادبي الوحيد الذي قام الادباء بشرحه وحل ألفاظه في العصر الرسولي ثلاثة من الادباء هم الاديب محمد بن أبي القاسم الجبائي المعروف بابن المعلم وقد عرف شرحه بشرح الجبائي وتوفي دون اكماله ثم شرحه في عصره في القرن السابع الاديب علي بن عجيل المتوفى سنة ٦٤٠ الذي أكمل فيه (شرح لجبائي) وكان هذا الكتاب من الكتب المحببة عند جميع الناس بما فيهم الفقهاء الذين كانوا غالب ما يسروحون الى مطالعته وينهلون من فوائده وكان الفقيه أحمد بن عمر المرحد السيفي المتوفى سنة ٩٣٠ اذا سئم من القراءة والمطالعة استدعى بمقامات الحريري فيطالع فيها ويسميها (طبق الحلوى) .

ولا غرابة في ذلك فكتاب مقامات الحريري جذب اليه كل فئات المثقفين بتنوع علومه ، وقد صاغه في أسلوب قصصي محبب الى النفوس، وبقي أمام الادباء تحدي الحريري في مقاماته على أن يأتوا ببيت ثالث لبيتيه التجنيسيين الآتيين.

سم سمة تحمد آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه
والمكر مهما اسطعت لا تأته لتقتني السؤدد والمكرمه

فتصدى لتحديه جماعة من الادباء في مصر والشام كالاديب عثمان البلطي الذي يقول :

محلمة العاقل عن ذي الخنا توقظه ان كان في محلمه
مكملة الخائض في جهله تصيب من يردعه مكمه

وغير هذه الابيات .. أما في اليمن فنجد ابن المقري قد تحدى الحريري في أبياته وأضاف عليها خمسين بيتا جعلها في مدح الملك الناصر يقول فيها بعد بيتي الحريري:

والمن لمهوى أحمد طاعة يرضى بها المسلم والمسلمه
والمحك مهواة قدعه لمن يرى القضا للسيف والمحكمه
من لسج مهيوجا تراءى له من ابن اسماعيل من لجمه ..الخ

وهكذا كان تأثير الحريري على الادباء مستمرا وقد استفادوا منه طريقته البديعة العجيبة وحاولوا تقليده في نظمهم ونثرهم .

ومع ذلك فان مدرسة البديع قد تأخر ظهورها في اليمن على الرغم من انتشار مقامات الحريري عندهم ولم تظهر الا في زمن ابن المقرى وأمثاله وليس هذا قصورا عند الادباء وانما في أغلب الظن عدم استساغة لما آتى به البديعيون من تكلف تمجه الأذواق السليمة وقد أنكر عليهم بديعهم في القرن الثالث عشر العلامة محمد بن علي الشوكاني. وكان ابن عبد المجيد يعيب على القاضي الفاضل بديعه ويفضل عليه نصر الدين بن الاثير في كتابه " المثل السائر .

واخترع الادباء في اليمن وغيره أساليب أدبية أخرى ولدتها لهم طريقة الحريري من ذلك التلاعب بالحروف والاعراب والجناس الى غير ذلك مثلا تقرأ رسالة للحريري التزم في كل كلمة منها حرف السين فقال .

باسم القدوس استفتح وباسعاده أستنجح سجية سيدنا سيف السلطان سدده سيدنا الاسفهسلار السيد النفيس سيد الرؤساء حرست نفسه واستنارت شمسه وبسق غرسه . الخ .

وعندما قرأ الادباء هذه الرسالة أعجبوا بها في مصر والشام ووصفها الاصفهاني بشيء من التقدير والدهشة حتى ما انتهى الوضع الادبي في اليمن الى الازدهار حاكى أسلوب الحريري جماعة من الادباء منهم الاديب علي بن محمد الناشري المتوفى سنة ٨١٢ الذي كتب رسالة الى الملك الاشرف التزم فيها الحروف المهملة فقال :

(أعلا الله سماء سمو علاك ورعاك صدورا وورودا وحماك وأسمى أسماك على السماك وكلاك مدى الدهور وعمرك لكل معمور وأكمل لك عددك وسدد أودك وملكك على هام الملوك وسهل لك وعر السلوك كم عدو سالك وكم سؤول أملك دام مدى السعود لك ما ملك الله ملك ومحررها أحال الدهر حاله فحرر

سؤاله وأعلم رحاله مؤملا الإمال ولا عمل الا المدح وهو أعلى الاعمال ومراده العود مسرورا وطوالع أعداه حولا وعود)[1] .

وكان الناشري أول من استعمل هذه الطريقة الحرفية في نثره وجاراه في أسلوبه جماعة من الادباء حتى كادت هذه الطريقة أن تشمل انتاج كثير من الادباء وتحوله الى كتلة من الالفاظ العقيمة وقد بلي بهذا المسلك العقيم الاديب ابن المقري على عظم قدره ومكانته الادبية . ومن يتأمل كتابه (عنوان الشرف الوافي) يجد الحد النهائي الذي وصلته سيطرة الحروف الهجائية على النثر بل تعدت هذه السيطرة مجالها الطبيعي وهو النثر الى الشعر وظهر جماعة من الشعراء ولعوا بتجميع تلك الاحرف ووضعها في شعرهم فهذا الاديب أبو الحسن علي ابن موسى الهاملي المتوفي سنة ٧٢٠ هـ يذكر عنه المؤرخ الخزرجي أنه استطاع أن ينظم قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أورد في كل بيت منه منها حروف المعجم كلها وفيها يقول :

المصطفى الهاشمي غوث الخلايق نذ	يسعدك تربح تفض بظفر بحسن تعن
نشب وتجز بمدح الهاشمي على	فصغ قريضك خذ سمط النظام هني
ثواك طيبة غير الارض حملها	قد حص بلحظ مشغوفا بذي الحسن
خلاصة المجد ثبت العز سطوته	كشافة الظلم أضحى غير ذي قتن
دعا يحج هلا بلغت كي يشفي ضني	طل مزري السخط ودق وضن
ذو الحوض يقصده العطشى بغيثهم	يروى فيجزى ضما حاشا كلا البدن
رسول ذي العرش دمث الخلق لاضجر	كن بعض حظ هذا الطول بالمدني

رد في الشا تحظ واستصف القريض تعش بالابلج الثغر مغبوطا هنالك غني

صف المدثر بالتقريض جهدك لا	تخلط تزغ عن حفاظ والتذي الحسن

الى آخر هذه القصيدة العجيبة .

---

(١) الخزرجي طراز أعلام الزمن ونقلها عنه السخاوي في الضوء اللامع ج٥ ص٢٩١

أما ابن المقري فانتاجه الادبي بدع أخرى من ذلك التلاعب بالالفاظ وهو لم يكتف بأن جمع حروفا معنة وانما استطاع بجانب ذلك أن يكتب قصائد تقرأ طولا وعرضا وأولا وآخرا . انظر الى قصيدته هذه التي تقرأ طولا وعرضا:

الملك الناصر سلطاننا ... سامي الذرى المدره مروي الصدا
الناصر ابن الملك الاشرف المرتجى ... أحمد المحمود بحر الندا
سلطاننا المرتجى ذو العلى ... نبب السرى رب العطا والجدا الخ

وهذه قصيدة للمقري يقول الخزرجي أنها تقرأ من مواضع مختلفة :

ملك سما ذو كمال زانه كرم ... أعنى الورى من كريم الطبع والشيم
به الغنا ورده بصمو مشاربه ... سا العلا في يديه وابل النعم
له سنا طال من في فرعه شمم ... كماترى فاق كل العرب والعجم الخ

وقصائد أخرى من هذا القبيل .. بل لم يكتف بالتلاعب بالاحرف فأنت تجده قد استعمل الكلمات لهذه التسليه فقد كتب قصيدة تقرأ في المدح واذا عكستها أصبحت ذماً يقول :

طلبوا الذي نالوا فما منعوا ... رفعت فما حطت لهم رتب
وهبوا وما منت لهم خلق ... سلموا فلا أودى بهم عطب
جلبوا الذي يرضي فما كسدوا ... حمدت لهم شيم وما كسبوا الخ

فاذا عكست كلمات البيت الاول مثلا يكون هكذا :

رتب لهم حطت فما رفعت ... منعوا فما نالوا الذي طلبوا الخ

ودخلت لعبة أيضا جانب الإعراب فكتب قصيدة تقرأ بالرفع والنصب والخفض وهي هذه :

من يعط كنز رضاك يجن ويغنم ... ويجل قدرا في العيون ويعظم
عتبات بابك للاماني كعبة ... من لايطوف بها رجاء يندم

فصح السـول لوال كملك اد هما	والريح والالـواء حتى الحصرم
واذا المواسـم أغلقـت أبـوابها	فنداك أحـسب عند داك موسم
سـدت الملوك وصلتهم جودا فما	متملـك نأسر مسـك وأرحـم
وحميـت أهل الارض حتى مافتى	في الناس مهضـوما ولا متظلم

الى آخر القصيدة

والحديث عن هذه الطرق العجيبة في النظم والنثر يطول . ولولا أننا بنينا كتابنا على الاختصار لتوسعنا في نقل الكثير من ذلك . وأظن أنها ختمت بالاديب ابن المقري اذ لا نعرف أحداً بعده من برز في تلك التسالي الغريبة وهو لم يكن بدعاً في هذا فقد أراد أن يقلد أدباء اخترعوا تلك الطرق في مصر والشام والعراق حتى قيل إن البديع الهمداني استطاع أن يكتب رسالة تقرأ جوانبها من خلالها . ويقول الدكتور شوقي ضيف وهو يذكر هذه الطرق العجيبة . (يظهر أن ذلك كان عند كتاب العصر وشعرائه الافـق الاعلى في البلاغة والفصـاحة فانطلق الشعراء ينظمون قصائد كل ألفاظها من الحروف المعجمة أو من الحروف المهملة أو الحروف المهموزة او مما لاتنطبق معه الشفتان وكاد الشعر يستحيل الى عمل لغوي فاذا الشعراء يصنعون صنيع عمال المطابع إذ يرصون الاحرف بعضها الى بعض فتكون صناديق من الحروف ولكن لا تكون أبياتاً من الشعر إلا اذا أردنا بهذا الشعر الافصاح عن صعوبات في التعبير وطرق الاداء) .

ومن أنماط التلاعب بالالفاظ قول شاعرهم في مصر

إني امرؤ لم يصبني الشادن الحسن القوام

فرفع القوام بالحسن صفة مشبهة باسم الفاعل والتقدير الحسن القـوام ونصبه الحسن القواما على التشبه بالمفعول به وخفضـه بالاضافة .. ويقول الدكتور محمد زغلول سلام . (وكل هذه ألوان يغلب عليها المغالاة والتكلـف وهي أقصى ما وصل اليه الفن من تطرف واغراق) . وتتصل بهم النوع الغريب

من حيث الاعجاز الذهني جاتب (الالغز) وكان المجدد لها في اليمن بعد ركود الاديب المصري محمد بن أبي بكر الدماميني الذي دخل اليمن سنه ٨١٨ هـ واتصل بأدبائها • وكان ابن المقري أشهر من كاتب الدماميني وبعث اليه برسالة طويلة يمدح فيها ابن المقرى وأدبه الى أن وصل الى ذكر رحلته فقال واصفا نفسه (الى أن أتاح له القدر حمل عصا التسيار والدخول من أبواب اليمن الى هذه الدار فقالت الآمال لناظر عينيه قد نلت أيها الانسان ما تتمنى وحصلت من يمن اليمن على معنى كنت به متعنّى وقادته الايام ها قد أتحفتك من هذه البلاد بأحسن الطرق وأحللتك بدار ابن المقري وماذا يريد البدر (يعني نفسه) بعد حلوله منازل الشرف (يعني ابن المقري) مولى خص بالفضائل التي عم بها الانتفاع وارتفع عن درجة النظير بحسن السمت •• هنالك تمنى المملوك أن يقف بباب المطارحة الادبية فأقعده العلم بقدره وعزم على مباكهه الحضرة الكريمة فدفعت يد العجز الذي حصر فكرته فتجاهل وقال عم وطمعت القريحة في إذره معنى بيديه وكلفت باقتناص وجه حسن يقدمه ويهديه •• فتحامل المملوك على ضلعه وصبر على هول هذا الموقف ومطلعه واعتمد على كرم الاخلاق التي لاتزال تلطف وترق وطهارة الشيم التي يدور على مثلها النيل وتحترق وتهجم بهدين اللغزين وأومأ لاستمطار سحب الجوب ببيان هدين الرمزين • وأخيرا بعد المزيد من التواضع والاستحقار لنفسه يصرح بأن القصد من مكاتبته هو سؤاله عن معنى لغزين يذكرهما نظماً ونثراً •• ومن هذه الالغاز التي سأل عنها الدماميني ابن المقري لغز فى (مدينة) :

يا أيها الفاضل ما … مدينة لا تنكر
أو روضة أو مده … يحمد فيها المطر
أولا فقل قبلة … عندك منها خبر
كذاك لي بها شعور … فانظروا واعتبروا
أربعة تشابهت … في الخط منها الصور

تمثيـــــل عكس لفظها	مصـــحفا لا يعســـر
لا أكــــــم انصـــافه	فهــــو خــلاف يظهـــر

فأجابه ابن المقرى بقوله :

يا بحـــر عـــلم يــــزخر	يغـــرق فيــــه الابحـــر
حاجيـــــت في أربعـــــه	منهـــا اشتبهـــن الصــور
تصـــحيف عكس لفظهـا	مثـــل خـــلاف يظهـــر
وتلـــك عنـــدي تســـعه	أعـــــدها وأكثـــــر
بـــل ربمـــا ركبتهــــا	فكــــان ما لا يحصـــر
مدينــــــــة قديمــــــــة	فيهـــا الشمول تعصـر
وروضـــــــه أريضـــــه	بســــاتنها مـــــــور
ومـــــــدة لمتلهـــــــف	الروم تعـــرى أشــــهر
ومغـــــرس شـــيخ أشـــب	وجـــــده مـــن يذكـــر

وطارح أدباء اليمن في الألغاز عالم إسلامي كبير هو العلامة شمس الدين الجزري المتوفى سنة ٨٣٢ واشتهر لغزه شهرة كبيرة بين الأدباء في ذلك الوقت وقلما ينبغ أديب في اليمن دون أن يساهم بحله ، وكان هذا الأديب قد دخل زبيد سنة ٨٢٨ كما مر فيما مضى واتصل بابن المقري فراسله بهذا اللغز في القرآن بقوله :

يا واحـــدا قد شـــاع فينا ذكـــره	وشـــرف الدين وشبـــح وقتـــه
وقد عـــلا في العالمـــين قـــــدره	من فاق نظمـــه الورى ونـــثره
ما اســـم رباعي يكـــون خمسه	ونصـــفه تقـــير سبك عشـــره
في قلبـــه نـــار وطـــود شـــامخ	وقـــد يرى مصحفـــا مقـــره
ورفعـــه حتـــم وجـــار نصبـــه	في فحصــــة ولا يجـــور جـــره
واللوح فيـــه مع يـــراع ظاهـــر	وقـــد أبيـــح طيـــبه ونشـــره
وقفه لـــلباري مديـــح وثـــب	وفيـــه حمـــده وفيـــه شـــكره

يجوز عند الشافعي نقله   وعند كل مسنده ومعسره
ولا يجوز نقله في موضع   بلا خلاف فلة وكثره الخ

فيجيبه ابن المقري بقصيده شعرية طويله يقول فيها :

أهلا به من بحر علم صدره   كقلبه رحب الفناء برثه
أعيا على الغائص نيل دسره   فغاض بالدر النظيم بحره
وسول العلم على طلابه   فلم يكد الغائصين دره
إمام أهل الارض علما وتقى   وسيره يعجب منها دهره
خاطب كلا بالذي يفهمه   صونا له عن خجلة تعسره
يبدي لكل قدر ما في وسعه   ليثنني عنه بما يسره
ألقى لحسن ظنه في عبده   أحجيه فحار فيها فكره
دل على علم عظيم وذكا   والصبح قد ينبيك عنه فجره
في اسم رباعي يكون خمسه   فما اقتضاه وزنه لا زبره
أنبأتموني عنه ان نصفه   في العد ان جزأسوه عشره
فبان أن ربعه كعشر خمس   سبع ما ينفيه منه قدره
وقلبه نار ولكن ربعه   طود تولى كل وجه شطره
مكرر في نفسه تكراره   مصحف مصحفا مقسره
وكل شيء رفعه كسرامة   فرض علينا فحرام جسره
اللوح فيه ظاهر لأنه   منه وفيه وعليه ذكره
فيه على الله الثنا من نفسه   وحمده وحمده وشكره ..الخ

وممن أجاب على لغز ابن الجزري السابق العلامة أحمد بن محمد البريهي الموفى سنة ٨٢٣ والاديب أحمد بن محمد الريمي السلمي المتوفى سنة ٨٣٢ ويبدو أن الجزري كتب أكثر من لغز حينما كان في زبيد فقد ذكر البريهي أن الجزري كتب الى طلبته في زبيد لغزا شعريا في حب وهو قوله :

أخي ان رمت تدري من حبيبي   وتعرف ما اسمه وتحيط علما

حذ اسما من أسامي الموب واقلب وصغـر ذلك المقلوب حتـ
وصحّف ذلك التصغـير واجعل لمن أحبـه من ضده اسـما

فأجابه تلميذه القاضي تقي الدين عمر بن محمد البريمي فقال :

أتت أحجيـة مـن بحر عـلم لتعريف الحبيب ومن يسمى
باسـم الموب واقلب ثـم صغـر وصغـر ذلـك التصغـير حتما
فتـح قلـب حمـ ثم صغـر وصحّفه فيـبح حرب عسا
وما هـذا القبـيح سوى مليـح وذاك القصد للحب المسمى

وتكثر الالغاز بين الادباء في ذلك الوقت وغالب استعانتهم فيها بالشعر وكان ابن المقري أشهر من برز في كتابتها ولعله من المفيد أن نعود الى بعض ألغـازه الشعرية لتتضح لنا الصورة الكاملة لهذا الاتجاه في أدبه • فمن ذلك ألغازه في (السكين) يقول :

أحاجيك في شـيء اذا ما سرقـه وفيه نصاب ليـس يلزمني القطع
على أن فيـه القطـع والحد ثابت ولا حد فيه هكذا حكـم الشرع

وتعاطى الالغاز كل فئات المثقفـين وربما شارك فيها الفقهاء على وجـه الخصوص وضمنوا مسائلهم الفقهية على شكل ألغاز تلقى على الطلبة ، وكان ابن المقري واحداً من أولئك الذين شاركوا في موضوع اللغز الفقهي فقد كتب اليه أحدهم لغزا في مسألة فقهية تتعلق بالعتق يقول :

يا سيـداً أكـرم به مـن سيد عمومـه كثـيرة كثـهرته
ومـن عـلا في وقتـه بعلمـه وحكمـه وفضـله وسيرته
قد اعترانا قاصـداً من مصـره محولقـاً محسـبلا من عجلته
ثم امتحنـ بسـؤال يشتهي لـه جـوابه شـافيا لبغيتـه
قال امـرؤ أعتـق مملوكـاً لـه لعمـو ربـي وابتغاء جنتـه
كان يحـق شـكره من عنـده اذ فكـه من رقـه وخدمتـه

بل أدعى العنبسى عند حاكم   محله فى العلم أعلى رتبه
على الذى أعتقه تفضلا   بسبب العتق خصم فيه
من غير بيع لا ولا جنايه   بل أوجب الاحسان شغل ذمه
فحكم القاضي على سيده   تسليمها موزونة بحضرته
ثم ادعى عتق شخص آخر   قصته شبيهة بقصته
فلم ير القاضي له في حكمه   أن يلزم السيد كل قيمته
من قال للسيد سلم نصفها   من غير مطل طائعا في سلعته
وقال د الحكم الجلي ابتغى   به من الله حصول رحمته
فترك السائل كل منتب   حيران في تصويره وفكرته
فألهم الله الكريم رحمه   للعالم البارع وبن نجدته

فيأتي جواب ابن المقري على هذا اللغز المعقد فيقول :

أهلا بطرس من إمام مدرسه   من بحر علم فائض بحكمه
من لم يزل مشمرا عن ساقه   لله في طاعته وخدمه

ثم يمضي جواب ابن المقري شرح تلك المسألة الغامضة فلا يبدع حاله شيئا أكثر من الفائدة الفقهية ومن هنا يتلاشى الابداع الادبي في كثير من هذه الالغاز حتى عدها بعض العلماء من جملة المسائل المتعلقة بالفقه ، وربما ألف فيها بعض العلماء كتب مستقلة تعد من بين كتب الفقه .

وقد كان الادب في اليمن خلال هذه الفترة يساير ركب التطور في مصر فلا نضيف اليه شيئا يذكر إلا ما كان تقليدا ومحاكاة ومن عسى أن يأتي به الاديب في اليمن وهذه مصر والشام قد غصت بمئات الادباء والعلماء من الذين لا يشق لهم غبار . وقد اعترف العلماء في اليمن بتبعيتهم لأولئك المطاحل . وقد رأينا ذلك في الشروح العديدة التي وضعوها لمؤلفاتهم الفقهية والنحوية . أما الادباء والشعراء فان ظاهرة التقليد عندهم انحصرت في جوانب التأثر بالمدارس الشعرية المعروفة كطريقة أبي نواس وطريقة أبي تمام أو طريقة المتنبي الحكمية .

وهاهي المدرسة الشعرية تبدو جلية واضحة في عصر بني رسول منذ ظهور الشاعر ابن حمير المتوفى سنة ٦٥١ وأخذه بالشعر جانبا من الرقي والتطور عن مألوف قبله وقد ظهر أثر أبي تمام واضحا عليه وربما تجمعت المدارس الشعرية التقليدية في كثير من شعراء اليمن الكبار خلال ذلك الوقت كالشاعر ابن هتيمل الذي تأثر بالمتنبي والشاعر ابن فليته الذي سلك طريقة أبي نواس المجونية وهاتان مدرستان لا يخرج عنهما أحد من شعراء اليمـــن الا ماكان اضافة عليهما كتلك المدرسة البديعية التي ظهرت في العصر الايوبي والمملوكي في مصر ونهج أساليبهم المصنعة جماعة من أدباء اليمن سنذكرهم فيما بعد .

أدب الفقهـــــاء

على أنه من المفيد أن نقدم الحديث هنا على أدب واقعي أقرب الى الصدق منه الى الصنعة وذلك ما عرف عند النقاد بأدب (الفقهاء) إنتقاصا لرتبته عن أدب الادباء ، وهذا لايضر في شيء ، حيث أن الفقهاء يعترفون بأنفسهم بعدم مجاراتهم للادباء في شعرهم وإن جاءت مقطعات منه على ألســـنتهم تعلو بتخصصهم الاول وهو الفقه وقد خفضوا بها من جناح هذا العلم وربما جاءت مقطعاتهم عن معاناة شديدة وتكلف كبير فاستحقوا بهما خلود الذكر . وأهم صفة يمكن أن يوصف بها هذا الادب هو الاستقامة والمحافظة على قوانين الاخلاق والآداب . فلا تجد مايخرج عن هذه القوانين إلا نادرا . ومن الادباء الفقهاء في اليمن من بلغ الاجادة حتى اعترف له أدباء عصره بالشعر .. كما هو الحال عند ابن المقرى الذي لم يكن سوى فقيه مارس الشعر وتعاطاه بصورة مستمرة فما كان من أهل عصره إلا أن اعترفوا له به ومع ذلك فان الفقهاء لم يكونوا جميعهم أصحاب شعر . وربمــا مقته كثير منهـــم .

وقد ذكر لنا الاديب أبو بكر الناقعي أن كثيرا من الفقهاء كانوا يلومونه على قول الشعر حتى رد عليهم بقوله .

وكم حاسد لي في الانـام وعابط — على منطقي اد كان مسطقه رحوى
بعيرني بالشـعر قـوم وبعضـهم — يوبحي والكل نخبـط في عشوى
أرادوا به عيبـي وهل هو ناقـص — ادا ما جمعت الشعر والفقه والنحوا
وأصبحت في علم العروض مجودا — وقدم قوبي في احكومه والفتوى
وما كنـت مداحا لنفسـي وانما — لأجعل آكباد العدا بالعصا تكوى

وكان والد ابن المقري لما علم ميل ولده الى الشعر تأثر كثيرا وكتب يحثه على الاخذ بالفقه والتبحر فيه قبل دخوله جانب الشعر(١) .

وكثير من الفقهاء من أحجم عن قول الشعر لا عن عجز وعدم مقدره ، وانما حفظا لأوقاته (والاشتغال بما هو أولى وأهم من أمر دينه وخويصة نفسه)(٢) . وحتى هده الاشعار التي قالوها لاتكـاد تخرج عن دائرة الفقه فهـي إما مدح لأساتذة أو تحريض على طلب العلم وحفظ الاوقات أو ثناء على متون الفقه ومنهم من مال الى جانب الوعظ والتفكر فمال بشعره الى جانب التصوف .

ومن الفريق الاول الفقيه الشاعر ابن المقري الذي مدح شيخه جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي بقصيدة طويلة يقول فيها .

خذا بي نحو الصوت لاتتبعا الصدى — فما كل نار عندها توجد الهدى
ولا تدعواني للفكاهة بعدها — فقد دهبت أيام عمري بها سدى
ثنيت عنـاني قارعا سن نـادم — لأقرع ما فرطت اد فاتني الأدا
ومن جـد في تحصيـل هاد يدله — الى الرشد لم يعدم دليلا ومرشدا
ألا ان بي للعلم علـة حـائم — يموت ويرد الماء في فيه صـدا
سـأهدي من التسهيد ميلا لمقلتي — ومن صبغة الظلماء ما عشت أسدا
ومن كان كسـب العلم أكبر همه — سـوى بردة الليـل التمام مسهدا

(١) تاريخ البريهي ص ٢٢٣
(٢) طبقات الخواص ص ٣٢

اذا كنت في دعواك أصدق طالب ... لعلم فلا تستمسل الا محمــــدا
وأعرض عن المظنون من فضل غيره ... ولا تعد عينــاك اليقين وقــد بدا
فما يسقط المكـــي فرض صـــلاته ... بظـن ولا بعد التحـــري فقد؛
وعند وجـــود الماء التيمـــم بطل ... ولا ســما ان طاب قسرنا وموردا
لقد نشر (الريمي) بالدرس دارسا ... من العلم قد أودى وطال به المدى
وأنقــد باقيه وقـــد عكفت بـــه ... صروف الليالي شاحنات له المدى
فكم من عويص حل معنــاه فهمه ... وقد كان في أسر الرموز مقيــدا
وحلى ظـــلام المشكلات بواضـــح ... من القول حلى ناظر الشمس أرمدا
يباهي (ابن ادريس) به كل قدوه ... فأسف اذ لم يقتديه كما اقتــدا
وصار عليهم حجـــة حـــين خالفوا ... ووافقه في القـــول أطوعهم يــدا
نصرت مقال الشافعي ولو نشــا ... سلكت طريقا كنت فيهــا مقلدا
وكم حجـــة أبرزتهـــا لمخالـــف ... سعــت بها أنفاسه أن تصــعدا
اليك زجرت العزم والشوق مزعج ... وفي القلب منه ما أقام وأقعـــــدا
أتيتك عطشـــانا وبحــرك زاخــر ... يفيض بموج قــد تلاطم مزبـــدا
فدونك من قد جاء يعرض نفسه ... فإن ترض بي عبدا رضيتك سيدا

الى آخرها .. وفيها نجد نموذجا متكاملا مما كان يمدح به التلاميذ شيوخهم . فالشاعر هنا يضع مقدمة قصيرة لقصيدته لا يتغزل فيها بليلى أو لبنى كما هي عادة الشعراء في مقدماتهم الشعريه وانما تحدث بأمر أصحابه أن يأخذوه نحو ذلك الصوت لا الصدى وأن لا يسلكوا به طرق الغوايه والمجون فقد مرت عليه سنوات أضاع فيها أيامه سدى ثم يذكر تشوقه للعلم ومقدار مايعانيه الطالب من التعب والسهر في تحصيله العلم ، وأخيرا يصل الى غرض القصيد وهو المدح فيذكر شمائل شيخه وعلمه وفيه يستعمل أسلوب الفقهاء ويشير الى العبارة الفقهية الشهيرة (اذا حضر الماء بطل التيمم) وأن شيخه مورد صاف وأنه يباهي بعلمه علم (الشافعي) ويعيب على أهل عصره أنهم لم يقلدوه كما قلدوا (الشافعي)

وأخيرا يذكر شيخه بهمته لطلب العلم وشوقه الى ما عنده وهي قصيدة توحي لنا أن ابن المقري قالها أثناء دراسته على شيخه الممدوح .

ومن شعر الفقهاء في هذا الجانب كثير من القصائد التي قيلت في مدح الشيوخ لعل أقدمها قصيدة الفقيه هارون السرددي الذي يعدد فيها مناقب شيخه علي بن أحمد الاصبحي المتوفى سنة ٧٠٣ وهي طويلة أورد نماذج منها المؤرخ الجندي في تاريخــه .

وكما مدح الفقهاء شيوخهم نجدهم قد مدحوا كتبهم العلميه وأثنوا عليها ثناء لايقل عن مدحهم لشيوخهم وهي ظاهرة ينفرد بها أدب الفقهاء وحده فنادرا ماتجد أديبا يمدح كتابا إلا اذا جاء هذا الكتاب عرضا . وقد كانت الكتب من أهم ما يحرص عليه الفقهاء وقد عايشوها معايشة تامة حتى أصبحت جــزءا من حياتهم لذا لا نستغرب اذا رأيناهم يمدحونها بالعديد من القصائد ، فهذا الفقيه داود بن أحمد الهمداني المتوفى سنة ٨٢٩ يمدح (البيان) بأبيات يقول فيها[1] :

إن (البيــان) بيــان للعلوم وقد — خص المذاهب ما قالوا وما سطروا
جمــع الامــام العــدل صنعــه — لله يحيــى فأحيــا كل ما ذكــروا
وقلد (الشافعي) واختــار مذهبه — لما رأى قوله يعلو اذ افتخروا الخ

ويجمع الشيخ يعلى بن أبي بكر الكدراوي كتبه الفقهية ويمدحها بهــذه الابيــات :

نقرا (المهذب) للتهذب دائمــا — ونراجع (التنبيــه) للتنبيــه
وكذا (الوسيط) نروم فيه توسطا — علما صحيحــا ليــس بالتمويــه
واذا قرأنــا في (الوجيز) فموجز — لجــوابنا قطعــا لكــل نبيــه
وكذا (البيــان) الشرع فيه مبين — يدري بما قد قلــت كل فقيــه

وحض الفقهاء على طلب العلم والتمسك به فقال الفقيــه عباس المساميري المتوفى سنة ٦٩٩ :

لا يطلب العلم إلا الحر ذو الكرم — او من له حسب الآباء والشيم
أو لوذعي أبي سيد فطن — مقبل يقظ مستقل الفهم
أما ذوو الصد ممن قد ذكرتهم — فالمس عندهم من أشرف الهمم
أفٍ لهم ولدنياهم وما جمعوا — وحبذا الجهبذ النقاد للكلم
كل امرىء راسخ في العلم عنصره — فانه في اقتباس العلم ذو قدم

أما الفقيه يحيى بن عمران بن ثواب فيحدثنا عن شغفه بطلب العلم فيقول:

شيئان أحلى من عناق الخرد — وألذ من شهد القراح الاسود
وأجل من رتب الملوك عليهم — وشي الحرير مطرزاً بالعسجد
سود الدفاتر أن أكون نديمها — طول النهار وبرد ظل المسجد
فاذا هما اجتمعا لشخص فارغ — عن كل هم نال أبعد مقصد
وعلا المفاخر كلها وحوى المحا — مد والمحاسن في الحياة وفي العد

وهي على منوال قصيدة (الزمخشري) الشهيرة في الحث على طلب العلوم .. وكان الفقيه أحمد بن أبي بكر الناشري دائما ما يردد الابيات الآتية التي قالها في عراض بيتي السبكي في مدح دار الحديث وهي قول السبكي :

وفي دار الحديث لطيف معنى — أصلّي في جوانبه وآوي
لعلي أن امس بحر وجهي — مكانا مسه قدم (النواوي)

فحولها الناشري الى مدح مسجد (الاشاعر) فقال ٠

وفي هذا (الاشاعر) لطف معنى — به بين الانام أطل ساجد
لعلي أن أمس بحر وجهي — مكانا مسه قدم لعابد

وتردد على ألسنة الفقهاء شعر الحكمة والتأمل وسنعرض له عند حديثنا عن أدب الصوفية والمتكلمين .. ومن الفقهاء من عني بنظم العلوم تسهيلا لحفظها فكتبوا فيه الشعر المزدوج والاراجيز العديدة حتى وصل بهم الامر الى أن ينظموا كتبا فقهية كبيرة فنظم الفقيه محمد بن عبد القدوس الازدي المتوفى سنة ٦٩٣

كتاب (التنبيه في الفقه) بأكمله ، ونظم الفقيه محمد بن أحمد المبارك المتوفى سنة ٧٢٧ كتاب (أبي شجاع في الفقه) المسمى (غاية الاختصار) وغيرهما كثير ومن هذا النظم الذي يقرب المسائل العلمية لأذهان الطلبة قول الفقيه يحيى بن ابراهيم العمك المتوفى سنة ٦٧٠ في حصر مسائل الزحاف الواقع في آخر العروض:

يا طالبا لزحاف الشعر معرفة	أنا الذي عنده منه جوامعه
حذ السواكن في الاسباب أربعة	من كل حرف وما تخفى مواقعه
الخبن ثانيه ثم الطي رابعه	والقبض خامسه والكف سابعه
وكل ما سكنوه للزحاف به	ثلاثة كلها سمى مواضعه
فثاني الجزء اضمار وخامسه	عصب وسابعه الاسكان مانعه الخ

وكان من أشهر من نظم العلوم في اليمن الفقيه الشاعر اسماعيل أبي بكر المقري الذي سهل نظمه كثيرا من مسائل العلم المعقدة ، وقد ذكر السخاوي أنه وضع أرجوزة طويلة في مسألة الماء المشمس بلغت مسائلها نحو ثلاثمائة ألف مسألة وسبعة وخمسون ألفا ومائة وعشرون مسألة وله قصيدة في نظم دماء الحاج شرحها كثير من العلماء ومن نماذج نظمه في هذا الفن قوله في معرفة الوقفة من كل سنة .

ما بين كل وقفة ووقفة	ثلاثة تكمل بين خمسة
فبعد الاثنين ووقف الجمعة	ثم الثلاثا ثم سبت المست
فأربعا فأحد ثم أتيت	خميسها للسنة المقبلة
وعد الى الاثنين بعد السبعة	وغير هذا نادر في العدة

ولابن المقري وغيره قصائد كثيرة في نظم العلوم لا مجال لذكرها هنا وقد عرفت هذه الطريقة منذ عصر النهضة الادبية في زمن بني العباس وبرع فيها من الشعراء المجيدين أبان بن عبد الحميد اللاحقي الذي وضع للبرامكة (نظم كليلة ودمنة) ثم تلاه بشر بن المعتمر وأبو العتاهية بأبياته الحكيمة السهلة (وغالبا

ما ينظمون شعرهم هذا على فعلين فعلين) وقد عرف عند النقاد بالشعر التعليمي إلا أنه لم يدخل ضمن دراساتهم لبعده عن الخيال الادبي والصور الفنية ومن ثم أهملوه الاهمال التام . ولولا أن هذا الشعر عرف في التراث الاسلامي في اليمن بصورة واسعة لما عرضنا له هنا .

ابن روبك :

واذا كان لابد أن تقف عند شاعر من شعراء الفقهاء في العصر الرسولي فلابد أن نقف عند الفقيه يحيى بن روبك شيخ النحاة في زبيد وكان قد استوطن مدينة تعز وحدثت بينه وبين ابن المقري خصومة كبيرة بسبب الصوفية ذكرناها في كتابنا (الصوفية والفقهاء في اليمن) وهو من الفقهاء القلائل الذين مدحوا ملوك الدولة (الرسولية) حتى كاد أن يزاحم بمدائحه الشاعر (ابن المقري) نفسه إلا أن شعره لم يجمع ولم أظفر بشيء من قصائده غير قصيدة واحدة قالها في مدح الملك الناصر يقــــول :

سود العيون هي السيوف البيض	تومى الى نفسي بها فتفيض
مقــل تضــاعف سقمها فتفضه	فــرى بجســمي سقمها المنفوض
مرض الجفون يصح بين جوانحي	وحوى فؤادي من جواه مريض
من لم يغض الطرف عن ألحاظها	أرضاه طرف من (سعاد) غضيض
تفتــر عن بــرد تسرف غــروبه	أو عن أقاح روضــهن أريـــض
وتهــز عصـــا حمله في خــدها	ورد وبــين شـــفاهها اعريـــض
قد زيّـــن الخـــدين تذهيب بلا	ذهــب وزيــن ثغــرها تفضيض
ان خمت في ظلـــم العـــداثر ظله	يهديك للثغــر الضحــوك وميض
يا عاذل الولهـــان دعـــه فلومـــه	من لائميه على الهـــوى تحريض
حسَّنْتَ فاتلنــي إلــيَّ بعيبهــا	عنــدي وكان مرادك التبغيــض
وحسبت لي عقــل وعقلي غائب	معها وروحــي عـــدها مقبوض
ان كان مسـتوتا فنــاء متيــم	ففناي في شرع الهـــوى مفروض

تلك التي هي جنتي وبخدها نار عليها ناظري معروض
وهناك تفاح يزيد عصاصة ان زاد فيه اللثم والتعضيض

الى آخر القصيدة ، وهي محكمة البناء متماسكة الاجزاء وقد أشار الى أدبه المؤرخ (السخاوي) فقال : (مدح الملوك وقامت له رئاسة معهم وكان على طريقة العرب في ارتجال الشعر ، توفي بنخل (زبيد) سنة ٨٣٥) .

البديعيون

وبقدر ما حول الفقهاء أغراض الشعر لخدمة الفقه وسائر العلوم الاخرى نجد شعراء البديع قد جونوا كل العلوم لأغراض الشعر حتى إنهم جعلوا (الفن للفن) كما يقال ، ومن هنا جاء إفراطهم وتكلفهم .

ولم ترج مدرستهم في الادب اليمني إلا في فترات متأخرة حتى عدت هذه الطرق (البديعية) من آخر ما وصل الادب اليمني من أساليب مستحدثة لم يتأثر بها إلا فئة قليلة من الادباء لعل أقدمهم حسب علمي الاديب وجيه الدين العلوي المتوفى سنة ٨٠٣ وكان أحد وزراء الدولة الرسولية ومحن بنكسات عديدة جعلته يميل الى (التصوف) وقد نظم قصيدة (بديعية) في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أسماها (الجوهر الرفيع ودوحة المعاني في معرفة أنواع البديع ومدح النبي العدناني) يقول الخزرجي في وصفها (أودع فيها سائر فنون البديع من التجنيس والترصيع والتوشيح وغير ذلك) . وقد اشتهرت بديعته شهرة واسعة وتناقلها الادباء وممن مدحها الاديب المحدث ابن حجر العسقلاني فقال :

لله درك فاضل مبرز جاء أخيرا فتجلى سابقا
والبلغاء عن مداه قصروا فما رأينا للوجيه لاحقا

ومدحها مجد الدين الفيروز ابادي بقوله :

هذا القصيد حوى البدائع كلها فسمى على نظم الرفاق وفاقا

حتـى أقـرّ الحاسدون بحسنه فأبان من أهـل الخـلاف وفاقا
و ذا نظـرت رأيـت فيه جوهرا من بحر فضــل أودعت أوراقـا
ورقى بباطنـه درى لم يرقهــا من رق لفظـا في الورى أو راقا

وقد تناقلها الناس عنه فتصدى المؤلف لشرحها بعد ذلك في مجلد مستقل ويوجد هذا الشرح بين مخطوطات مكتبة الجامع بصنعاء •

وسار على نهج الوجيه العلوي في نظم البديع الشاعر اسمعيل ابن أبي بكر ابن المقرى ووضع قصيدته في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وضمنها سائر أنواع البديع وهي بعنوان (الجمانات البديعية) وشرحها في جزء مختصر •

وكان ابن المقري أشهر من استعمل نظم البديع • ولا غرابة في ذلك فالرجل قد كلف بكل غريب وأراد أن يبهر أهل عصره وعلى الاخص ممدوحيه من ملوك الدولة الرسولية بتلك الاعاجيب التي يوردها في شعره • ويكثر استعمال أنواع البديع كالجناس والطباق والتورية والاستعارة في مدائحه خاصة فكان هذا مصدر اعجاب ملوك الدولة الرسولية بشاعريته •

ومن نماذج البديع في شعر ابن المقرى قوله في (الجناس المركب) وهـو أن يأتي الشاعر بكلمات تتشابه حروفها مع الكلمات التي تليها مع اختلاف المعنى وهو من عيوب الشعر ان كان عن تكلف • يقول ابن المقرى في مدح الملك الاشرف:

سيعصيني في الحب من ولهـي به بالقرب عن وجدي بـه ولهيبـه
وتعود أيـام الوصـال وتنقضي من مدمعـي وصبيبه وصبـي به
لا تيأســن وان أضرّ بك الهوى وطففت من ترى به تشربيه • الخ

والتوريه وهي من ألطف ماني شعر البديع من أساليب فنيه وهي أن يأتي الشاعر بلفظ يحتمل معنيين إما حقيقة أو مجازا • وفي هذا النوع يقول ابن المقري في تهنئة الملك الناصر بعيد النحر :

يـوم سـرور وصـفاء صـدر أنجزت في الأعدا وعيد نحـر

عبـد به سـعد علاك خد بـدا حجسـرا وبـان أنـه عن سـر

ودولة السـن بيض هـدهـ قد أصبحت تروي حديث بشر

ومنـزل يسافر اللحظ به في قطعـه مسافة للقصر • الخ

فهي البيت الاول يعني بعيد النحر العيد المعروف ووعده بسحر أعدائه •وفي البيت الثاني (السر) بمعناه المعروف والسر بمعنى الصلاح و في البيت الثالث حديث (بشر) يعني حبر المسرة وبشر صاحب هند من عشاق العرب له ذكر في كتاب (مصارع العشاق) (ج٢ ص ١٤٨) وفي البيت الرابع مسافة القصر بمعنى مسافة قصر الصلاة المقرره عند الفقهاء للمسافر ومسافه القصر مدة سيره الى قصر ممدوحه ، والقصيدة طويله وشرحها يحتاج الى بحث واسع من هذا ، وكان ابن المقري من الشعراء القلائل الذين تمردوا بعلم (البديع) واستعملوه في شعرهم وربما لا نعدم من يستعمل البديع من شعراء العصر الرسولي غير ابن المقري إلا أن هذا قليل جدا في شعرهم وذكر (البريهي) في تاريخه أديبا واحدا هو الاديب محمد بن محمد بن ادريس العلوي المتوفى سنة ٨٢٧ كان قد نظم قصيدة عارض بها (بديعية) الصفي الحلي • ولم تظهر موجة البديع الحقيقيه إلا عنـد ادباء القرنين الحادي عشر والثاني عشر وبرز فيه من أدباء اليمن أحمد بن حسن حميد الدين المتوفى سنة ١٠٨٠ في كتاب (ترويح المشوق) ويوسف بن علي بن علي الهادي المتوفى سنة ١١١٦ في كتاب (طوق الصادح) والحسن بن أحمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥٢ في مؤلفاته الكثيرة وغيرهم كثير جدا •

اتجاهات الشعر

موضوعات الشعر في الأدب اليمني خلال عصر بني رسول موضوعات عادية لا تخرج عن الحدود التي سنها لها فحول الشعراء في العربية وهم أن ذكروا بشيء جديد فهو ذلك الالتزام الذي لايخرج عن حدود الادب بمفهومه الخلقي فقد حافظ الشعراء في اليمن على قوانين الاخلاق ولم نجد ذلك الاسفاف الذي عهدناه في شعراء العصر العباسي والعصر المملوكي في مصر من الغزل بالمذكر والاباحة التي تخرجهم عن القواعد الاساسية للآداب فالادب هنا أدب خلق ومروءة وكثير منهم من سن لنفسه منهجا دينيا صارما لايكاد يحيد عنه ومنهم من ولع بمدح (الصوفية) والاولياء كما هو الحال عند الشاعر ابن حمير والبرعي.

ومع ذلك فلا بد من مسايرة الاتجاهات الادبية السائدة في عصورهم فرأيناهم يولعون بمحاكاة الجيل الاول من شعراء المولدين في العصر العباسي ورأينا شيئا من سعر الخمريات يفشو بينهم وكان شاعر الخمرة في اليمن الاديب أحمد بن محمد بن فليته المتوفى سنة ٧٣٤ يجاهر بشربها في شعره ويقول .

أدرها بالبمني وباليسار ... وداو القلب من داء الخمار
يطوف بها على الندمان ظبي ... يشبه خده في الاحمرار

وربما حلت الخمرة مكان الغزل العادي في مفتتح قصائد ابن حمير وابن هيمل وكان الاخير من الشعراء القلائل الذين جمعوا بين الغزل والخمر في آن واحد فقال في بعض قصائده :

أعصرتها من مقلتيك رحيقا ... ومزجتها من مقلتيك رحيقا

وأدرت ابريقين ابريقا لها ... من جوهر ومن اللما ابريقا
وهي مزاج كان ثغرك دنها ... سكرا وكان شماهك الراووقا[1]
صعقت احدى حمرتيك فلم نجد ... بالرشف في احداهما تصفيقا
وجليت وجهك والمدامة فانجلت ... الشمس والمريخ والعيوقا
وكأن كفك تحمل القدح الذي ... طليت طهارته طلا وخلوقا
حسبي بظلمك والسلافة نشوة ... بهما صبوحا دائما وغبوقا

وكان ملوك الدولة الرسولية قد شجعوا هذا النوع من الشعر حتى قال شاعرهم وهو الملك المؤيد داود بن يوسف :

خذها تراه ودع عنك الذي عابا ... واقطع زمانك أفراحا واطرابا
قالوا أتاك نذير بالمشيب فتب ... أما قضيت من العصيان آدابا
فقلت كيف يبالي بالمشيب فتى ... لم يدر من طول سكر أنه شابا

وربما ورد ذكر الخمر في مفتتح قصائد شعراء العصر (الصليحي) كالاديب أحمد بن محمد العثماني الذي تفنن في وصف الخمر • فقال في مفتتح بعض قصائده :

ما العيش الا كاعب وعقار ... وأكارم نادمتهم أخبار
قم فاسقني بالكاس من تلك التي ... أهل النهى في وصفها قد حاروا
واشرب ولا يحففك خوف عقوبة ... فيها ، فشرب حسابها غفار
خذها فان حلت أصبت وان تكن ... حرمت فمحو ذنوبها استغفار
لاتصرفوا عني الكبير فانما ... في شرب كاس كبيرها اكبار

لكن وصف الخمر اختفى من شعر كثير من أدباء العصر الرسولي فلا تجد له ذكر في شعر (ابن المقري) على كثرته ولا في شعر عبد الله بن جعفر أو ابن عبد المجيد اليماني وغيرهم • وهذا يعود أساسا الى التزام أدباء اليمن بقواعد الدين

(١) الراووق : الكاس •

والمحافظة على الاخلاق حتى إن هذا الالتزام يكاد يخرج بأدبهم الى حظيرة أدب الفقهاء والعلماء لولا جزالة التعبير وتماسك الاسلوب .

وكانت أكثر الاتجاهات الوارده في شعرهم غالبا ما تأتي في مدائحهم لملوك الدوله الرسولية لغلبة هذا النوع على شعرهم حتى لاتكاد تجد شاعرا واحدا ينظم قصيدة لذات الشعر نفسه وانما ينظمها في مدح الملوك ليحظى عندهم بجائزة ومن ثم أتت المواضيع المردده في شعرهم فاترة الاسلوب مكررة المعاني حتى لاتكاد تظفر بجديد عن ما أتى به شعراء العربية الأول .

فشعر الغزل والخمر ووصف الطبيعة والوصف كل ذلك لم يأت لذات المعاني نفسها وانما قدم وسيله الى مدح من يمدحونهم . وهذا عام في الشعراء المحترفين لتكسبهم بالشعر وجعله تجارة يعرضونها أمام الملوك ، وهذا الشاعر (ابن هتيمل) لم يكتف بأن يلمح لممدوحه بمطالبه المادية فيصرح لهم بذلك صراحه ويقول في احدى قصائده للملك المظفر :

لا رزق ما لم أعط منك برحمة قد أعمت المحروم والمرزوقا
من أين ترمى بالكساد بضائع أضحت لها عكاظ جودك سوقا

ويقول في أخرى :

وانظر الي بعين منك راحمة لاتقصدن غير وجه الله في النظر

وقد بلغ الامر بالشاعر محمد بن حمير أن يضايق ممدوحه بمطالبه الشرهة وكان يقصد الامراء والمشائخ ويرغمهم على إكرامه وقد قصد الشيخ عمران القطبي المقصري فطلب منه الشيخ أن يمهله شهرا حتى يجمع له مايطلبه ثم لم يستطع ذلك وأرسل اليه رجلا شاعرا يعتذر اليه فكتب بن حمير الى ممدوحه يقول:

حاشاك يا عمران تنقص صحبتي وتضيع حق مودتي ووفائي
ووعدتني بالخير شهرا كاملا وقطعت بعد الشهر حبل رجائي
وبعثت نحوي شاعرا يعتاذر في رحم أخت الشعر والشعراء

والله ما يثنـــون عنك بمـــثل ما   أثني ولا يهجـــون مثل هجـــائي

فما كان من (القطيبي) إلا أن أخذ حصانه وقدمه اليه هدية وهكذا فــإن مفهوم الصحبة عند ابن حمير يقدر بالعطاء المستمر وربما أدى حرص ابن حمير على أخذ عطايا ممدوحيه الى توتر سياسي تحدثت عنه كتب التاريخ فقد حدث أن قصد الشيخ عمار الشيباني فأقام عند بابه مدة ولم يأذن له بالدخول فكتب اليه رقعه يقول فيها :

بالباب أصلحك الله امرؤ لَسِنٌ   أمضـّــه السير والإدلاج والسهر
وافى الى أرض خولان فصادفها   مثل القتادة لا ظــل ولا ثمــــر

فلما وقف عمار على كتابه كتب على ظهره (بل العمامه فيها الظل والثمر) وأدخل ابن حمير وأتى به وبينما هو عائد في الطريق تعرض له بعض غلمان الشيخ عمار ونهبوا مامعه فاتهم ابن حمير عماراً وقصد الملك المظفر يحرضه على غزو عمار الشيباني في قصيدة يقول فيها :

ما شاق قلبـــي احـراج واكوار   ولا شـــجتني أعـــــلام وآثار
مررت باليمن الخضراء حين صمت   لابن الرســـول مما في تلك أكدار
وكان فيها غطـــاريف زعانقـــــة   فما بقي مـــن بني الظراء ديـــار
لكن بقي فــرد ثولول نعاب بــه   والنار أسهل مركوب ولا العـــار
ان قلت لم يبق سلطان سوى عمر   قالوا بلى بل بقي السلطان عمار
أو قلت لا قصر الا قصر (دملوة)   قالوا (براش) يمين القصر والدار
أو قلت ما أحسن المعشار منجوه   قالوا وليس الى (ذبحان) معشار
فحذ يمينك ولا تقبـــل معـــادرة   فالكلب حيـــث خلا بالعظم جبار
لم يتفـــق قط سلطانان في بلـــد   هل يدخل الغمـــد بتـــار وبتـــار
ما عبث إلا رمى بالعين (دملوة)   وظل ينشــــد والاقـــــداح دوّار
مولاي لا تحتقـــره فابن منجم قد   عدى بحيـــدر والغـــدار غـــدار
بئس الخبيثــة تحت الفرش مهملة   والسد شر كمين تحته الفـــار

وكان ابن المقري على الرغم من عطايا ملوك الدولة الرسولية الكثيرة له حتى إنه كف عن أخذ بعضها استكثارا تحده يتسول إلى الملك الظاهر ان يجدد بناء بيته المنهدم يقول بعد سماعه بناء الظاهر (قصر السدير) :

اجعل زكاة (سديرك) المعمور اصلاح بيتي فهو أي فقير
تجب (الزكاة) على بيوتك كلها غير البيوت لمصلك المشهور
وأحق من أدت اليه زكاتها سي لانك من هوى لصيري
ست بناه لي المهد منعما وأسال فيه بشرتي وسروري
ونزلت من أعلى لاسفل روعه نا وحشتاه لمنزلي المعمور
يحيى بيحيى ما شكوت خرابه ويعود أحسن منزل معمور

ويكثر شعر (الكدية) في أدب ابن المقري فهو يقول على لسان أحد الفقراء في قصيدة بعثها الى الملك الناصر :

ولقد وردت على مناهل جودكم واذا الزحام بها كما وصفوه
دا صادر راو وهذا وارد ولو ارتوى الثقلان ما نزفوه
فأقمت والاولاد ينتظروني من مسرة بين بيوتهم سألوه
عشرون من ولدي ومن أولادهم حتى عسى الله ما لبسوه
قد ساء حالهم وضاعوا عيلة يا رحما للطفل غاب أبوه
يشجي كبيرهم بكاء صغيرهم فاذا بكى هذا بكى وأخوه
وتكاد أحشائي تمضت حسرة مهما أعاد حديثهم راووه
ما في يدي نفع ولا لي حمة إلاّ صنيعكم الذي أرجوه
يا واضع المعروف في أربابه أنت الملبي دفع ما أشكوه
فامنن عليّ بأن تقر عيونهم واعطف عليهم بالذي فقدوه
حتى أراهم أجمعين بموقف يدعون ربهم وقد حمدوه
يدعونه لك بالبقا وأكفهم مبسوطة والدمع قد ذرفوه

وشعر من هذا القبيل كثير .

وما عسى أن تكون عطايا الدولة الرسولية حتى تحول الشعر من أغراض أدبية بحتة الى مدح خالص يعدد أمجاد الملوك ومآثرهم • هنا سنجد أن الدولة الرسولية لم تنفرد وحدها في إثابة الشعراء وانما سبقتها دول كثيرة وكان القوم يعتزون الى الشعر والشعراء ويقربونهم اليهم وكيف لايكون ذلك وفيهم بقية من فصاحة وفخر عربي ، وكانت دولة بني حاتم العربية الخالصة تكرم الشعراء وتجيزهم بآلاف الدنانير فقد كرم ملكهم المفضل بن أبي بركات الحميري الشاعر محمد بن زياد المأربي بألف دينار فقال الشاعر :

ووهبت لي الالف التي لو أنها   وزنت بصم الصخر كانت أبهرا

وكذلك فعل هذا الملك مع الشاعر موهوب بن حديد المعربي •

وكان الشاعر ابن القسم يقول في مدح الداعي سبا بن أحمد الصليحي صاحب أشيح :

ان صامك الدهر فاستعصم بأشيح أو   أزرى بك الفقر فاستمطربنان(سبا)

أما في الدولة الرسولية فان عطاياهم للشعراء قد تعددت وكثرت ولهذا السبب مال الشعراء الى مدحهم وانهالوا عليهم بالعديد من القصائد حتى أطمعوا فيهم من ليس له دراية بنظم الشعر • وكان ملوكهم يقدرون الشعر ويساهمون في فحص جيده من رديئه بالعديد من العبارات الانتقادية • فهذا الملك المظفر يفضل شعر (ابن دعاس) على شعر (ابن حمير) ويقول . (انما ابن حمير صاحب خلاعه[1] وربما تدخل الملوك في صيغ مدح الشعراء لهم واقترحوا عليهم اضافات أخرى فهذا الشاعر ابن المقري يطلب منه الملك المنصور أن يطول قصائده في المديح الى نحو خمسين بيتا[2] وطلب منه الملك الظاهر أن يكتب له مديحه على منوال قصيدة ابن حمير في مدح الملك المنصور عمر بن علي الرسولي التي أولها :

(هل عندكم من أناس باللوى خبر) •

---

(١) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٨٢ •

(٢) ديوان ابن المقرى ص ٣٦١ •

فدل هذا وذلك على اقبال ملوك الدولة الرسوليه على مدائح الشعراء وتمحيص قصائدهم بالنقد والافتراح وربما وقفوا عند القصائد الجيدة وأثابوا الشعراء عليها بآلاف الدنانير حتى بلغ الامر بالملك الظاهر أن يكافيء الشاعر ابن المقري على قصيدة قالها في مدحه لكل بيت منها ألف دينار وهو شيء كبير في ذلك الوقت . ولهذا السبب كان تحول الشعر في اليمن الى المديح واغراقه فيه وهو جانب يقل فيه التجديد والتطور كما يقول الاستاذ شوقي ضيف : (وما عسى أن يقول الشاعر في رجل كالرجل لا يتميز بصفات خلقية أو حسمية فالامر سيان وكل مافي الامر أنه يرمي من مديحه الجائزه والعطاء ولولا اهتمام الادباء بهذا الجانب من الشعر لضربنا عنه جانباً . وكان أقدم من استعمل المديح في العصر الرسولي الشاعر محمد بن حمير وهو رجل طبع خلقه على التكسب بشعره وعدم الانحراف بغيره فطبع الشعر بطابعه . فنادراً ما يظهر شاعر ولم يمدح الملوك ومن حسن الحظ أن الشعراء هنا لايمحضون على مدائحهم هجوما وانما يمهدون لها بمقدمات تدور حول مواضيع انسانية أو غزلية ومن هنا كانت لنا حصيلة شعرية في هذا الجانب نستطيع أن نستخلصه من مدائحهم . وقد مر بنا كيف أنهم استطاعوا وصف الخمر والتغزل بها من خلال مدائحهم لملوك الدوله الرسوليه.

وربما وجدنا لهم مقطعات شعرية في أغراض مختلفه غير المديح إلا أن هذه المقطعات قليله ومما زاد في ندرتها عدم التصدي لجمع أشعار الادباء في ذلك الوقت وما جمع منه فقد أكثره وضاعت دواوين كبار شعراء العصر الرسولي كالشاعر محمد بن حمير والشاعر عبد الله بن جعفر والشاعر ابن عبد المجيد اليماني وغيرهم والذي بقي منه نجده مفرقاً في كتب التراجم وغيرها من الكتب غير المتخصصة في فن الادب وربما أتت قصائدهم في مناسبات تاريخية يجد الباحث بعضها في كتب الخزرجي مؤرخ الدولة الرسولية .

ومن هنا فالحكم على اتجاهات الشعر في العصر الرسولي بقول صارم يصعب على الباحث المدقق اذ لايتأتى هذا الحكم الا باستيعاب كل نصوص الشعر في

عصر بني رسول وهذا ما يستحيل في عصرنا الحاضر . ولابد من إلقاء نظرة على الشعر في ذلك العصر بما يكتنفه من صعوبة وسنجد فنونه قد انحصرت في الفنون الشعرية المعتادة وظهرت له اتجاهات غير الفنون التقليديه نستطيع أن نستخلص منها سمات محلية وربما وجدنا فيها من الابتكار والتجديد ما لانجده في الشعر الرفيع المعتاد لكبار شعراء العصر ، كما سنفصله فيما بعد .

وكان المديح بوتقة الشعر وكيانه العام . وقد شجع الادباء في خوض بحره بريق الجائزه واغداق الملوك وقد تعددت مصادر المدح في اليمن لا من حيث المعاني المطروقة وانما من حيث كثرة الممدوحين من الملوك ورؤساء القبائل وصغار الامراء . والمتصفح لديوان الشاعر ابن هتيمل مثلا يجده قد مدح جماعة من الاعيان على مختلف اتجاهاتهم ووجهاتهم ، حتى بلغ به الامر أن يمدح الملك المظفر الرسولي ، في حين يمدح أعداءه من أمراء المخلاف السليماني ، والإمام أحمد بن الحسين ، ونادرا ما يكون الشاعر صادقا في مدحه،حتى تكاد تلمس برودة العبارات وتكلفها في كثير من مديحهم ولم يخرجوا فيه عن القاعدة المتبعة عند شعراء الجاهلية والاسلام الا في مواد خاصة يغلب عليها طابع المحلية وسنشير اليها فيما بعد كما لم يخرجوا في مديحهم عن قاعدة الدين فلا تجد في شعرائهم من يصف ممدوحه بذلك الوصف الذي قاله ابن هاني في الحاكم بأمر الله :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وانما تجد شعراء يضعون نصب أعينهم مخافة الله وتقدير رجال الدين وان كنا نجد فلتات قليلة ليست بذات أهمية توحي لنا بالغلو في المديح كقول ابن هتيمل في وصف ممدوحه :

ملك اذا رويت منه رأيته ملكا يسري في صورة السلطان
وتراه انسانا وفيه فضائل تعليه عن بشرية الانسان

فهو هنا جعله فوق درجة الانسانية لكن مثل هذا قليل في شعر العصر

الرسولي وهذا غية ماوصل اليه الشعر في هذا المجال.. وهم وصفوا الممدوح بخصال معروفة في الخلق الانساني كالشجاعة والحكم والبصر الى غير ذلك وركزوا على وصفهم بالكرم لحاجة في نفس يعقوب . فقال الشاعر ابن حمير يصف الملك المنصور عمر بن علي :

وبحصن (دملوة) المنيع دماره ملك تسمى أكرم الكرماء
ميلوا لى المنصور لا تحدثوا عن برمك وأبي عدي الطائي

ويصف ابن فلينه ممدوحه الملك المجاهد فشبه أصابع يده الخمسه بخمس سحائب يقول :

وفي كفه للجود خمس سحائب تجود بلا برق يروع ولا رعد

ويقول ابن المقري في مدح الظاهر يحيى بن اسماعيل :

فلو أدركت أيام جودك (حاتما) صمت اسمه طمس الدجى بالطهيرة

ويفاخر الشاعر ابن هتيمل ملوك الدولة الاموية والعباسية بالملك المظفر فيقول :

نسخت ملوك الدولتين بدوله عربيهم مستهلك في تليدها
فأفة على مروانيها وهشامها وأف على مهديها ورشيدها

كما أشاد الشعراء بنسب ملوك الدولة الرسولية وعراقتهم في الملك من زمن الغساسنة فقال الشاعر ابن هتيمل في مدح المظفر :

ملك اذا انتسب الملوك فانه يكفيه شهرة فضله أن ينسبا

وقال ابن المقري :

لهم في الجاهلية كل ملك وجد دوخ الدنيا حروبا

وقال في موضع آخر :

أفكم فتى في الملك قد عد مثله ثمانين جدا في القبور هم أحيا

وهذا يكثر في شعر العصر الرسولي ولا غرابة في تركيز الشعراء على نسب ملوك الدولة الرسولية إرضاء لهم فان خصومهم يلزمونهم في نسبهم الى الغساسنة ولا يعتبرونهم إلا من أحفاد التركمان وهذا واضح في كتابات مؤرخي مصر وغيرهم وكان النويري يؤكد على نسبتهم الى التركمان . أما خصومهم من الأئمة فلا يطلقون على الدولة الرسولية إلا دولة التركمان ويقول المؤرخ أحمد بن محمد الشرفي في شرح البسامة أنهم من بقايا الاتراك ولعل هذه الشائعات وغيرها دفعت المؤرخ الخزرجي الى أن يضع كتابا مستقلا في هذا الصدد بعنوان (المحصول في انساب بني رسول) . ولانحب الخوض في مثل هذا البحث العقيم . إذ أمر الانساب من الامور التي لاتأتي الا بالتواتر والنقل عن الناس ، وربما فرضت بعض الدول نسبا معينا كما رأينا في نسب الخلفاء الفاطميين .

وأشاد الشعراء بفتوح الدولة الرسولية حتى وصلت في زمن المنصور والمظفر الى أطراف مكة المكرمة والهند فقال الشاعر ابن حمير :

نادوا أبا الفتح الذي فتحت له ... (عدن) الدعاة ومكة البطحاء
والهند والسند البعيد ثناؤه ... فيهم وأيم الله خير ثناء

ويقول ابن هنبمل للمظفر :

بنيت على فرى اليمنين دربا ... بحد المشرفية لا دروبا

ويصور أبهة الدولة في عهد المظفر فيقول :

وكسوت بيت الله أشرف كسوة ... نشرت عليه وكان كالعريان
ويشت في الحرمين من صدقاتك الـ ... حسنات ما يغني عن الحرمان
وعميد (مصر) منك تطلب نصرة ... وأخوه في السر والاعلان
والبر والبحر استتب خراجه ... بضمان وال أو بغير ضمان

ومواضيع أخرى تطرقها الشعراء في مدحهم لملوك الدولة الرسولية سيجدها القارىء أثناء عرضنا لشعرهم فيما بعد . وكأن الشعراء استكثروا ما قالوه في

مدح الرسوليين فكان ابن هتيمل يثني صراحة على غرر قصائده أمام ممدوحه الملك المظفر فمن ذلك قوله في آخر قصيدة له .

فدونك حــرة الاعـــراف تحـــلو بقلـــب حليلها بكـــرا عــروبا
تبرج ان تحجبت القــــوافي ولم تخف (الوليد) ولا (حبيبا)

ويشبه نفسه بأبي نواس وممدوحه بالخصيب والي (مصر) الذي قصده أبو نواس :

اذا زرت المظفـــر في زبيـــد فقلـــت أبـــا نواس والخصيبا

ويصف الشاعر رحلته الى ممدوحه فيقول أنه سئم البقاء في بلدته وهذا المتصور يملأ مدينة الجند باحسانه فيقول ابن حمير في هذا المعنى :

ولقد سئمت على الزمان تغيبـــي وملـــت في أرض الهوان ثوائي
وأدرت طرفي في البلاد فلم أجـــد حـــرا اذا أدعو يجيـــب دعائـــي
يا ركـــب بالجنـــد الخصيبة بارق تهمـــي ســـحائبه صباح مســـاء

ولم يقتصر الشعراء على مدح الملوك والامراء وحدهم فقد حظي عمـــال الدولة الرسولية ووزراؤها بنصيب وافر من غرر القصائد في مدحهم بل نجد من الشعراء الكبار من مدح العلماء والفقهاء من الصـــوفية والمتعبدين ولم يحصر شعره على مدح أرباب الرياسات وهذا الشاعر ابن حمير على حرصه في الكسب من شعره يمدح الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبي بكر الحكمي وصاحبه محمد بن الحسين البجلي صاحب عواجة وله فيهما غرر القصائد وكذلك الشاعر عبدالرحيم البرعي مدح جماعة من آكابر العلماء والفقهاءفيعصره كالفقيه علي الاهدلوالعرابي وغيرهما وأغلب الظن أن مدح الشعراء للعلماء أتى بدافع الاخلاص والحب ولم يكن لغرض مادي . وربما اختلفت المضامين المطروقة في مدحهم عن مدح ملوك الدولة الرسولية فرأينا صورا تختلف تماما عن تلك الصور السابقة وربما اقترن بعض من مديحهم للعلماء بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم . وهذا ماستتعرض له بالبحث عند حديثنا عن هذا الجانب من الشعر .

أما مدح الوزراء فقد انفرد به الشاعر ابن هتيمل وكانت له قرابة أسرية ببعضهم فكان يتقرب اليهم لهذا السبب ولغيره • وممن مدحهم الكاتب (خطاب) أحد وزراء الدولة الرسولية في عهد المظفر وقد وصفه بسلامة الضمير وطهارة ثوبه من الدنس فقال .

وإذا الخطوب طغت فلم تر موئلا أوفى وامنع من يدي (خطاب)
رجل اذا دنس الرجال فعرضه عفه لضمائر طاهر الاثواب

ثم عرج الى مهنة الممدوح وهي الكتابة والامارة فوصف قلمه بأنه يدير مراسم الدولة من (مصر) الى (عدن) الى (عيذاب) وأنه في مهنته نمير برئاسة السيف والقلم .

وفتى اذا غاض السماح وجدته بحر السماح ومعدن الآداب
قلما يدبر سائر الاقليم من (مصر) الى (عدن) الى (عيذاب)
ورئاستانِ اذا انتضى سيفيهما مصبا على الامراء والكتاب

ويمدحه بقصيدة أخرى فيصفه بأنه قلب الامير وعين السلطان وزند الدولة•

وفتى للامير قلب وللسلطان عين وللخلافة زند

وكان الشاعر ابن المقري قد اتصل ببني معيبد وزراء الدولة الرسولية وشاركهم في شؤونهم الحكومية حتى امتزج بهم وروحوه منهم فكان يمدحهم بالعديد من القصائد كقوله في احداها يمدح الوزير نور الدين علي بن عمر بن معيبد يصف شجاعته وتواضعه وكرمه :

فتى يستقل البحر ورداً لشارب ويستصغر الدنيا مناخاً لقادم
مكارمه تغشى محط عفاته وآراؤه تغشى مقيل الضراغم
اذا اقتسمته نشوة الباس واندى تموج موج اللجة الملاطم
فأعداؤه من كرهه في مآتم وأضيافه من جوده في مواسم
فتى لا تراه ساحبا ذيل عزه ولا راكبا إلا ظهور العزائم
ولا اختال إلا في مجال القنا ولا تبختر الا في وجوه العظائم

أما ابن حمير فيتجه بمدائحه الى رؤساء القبائل فيحظى عندهم بالمديد من الجوائز وكان المشائخ رؤساء القبائل يكونون طبقة عسكرية قويه لا تخضع في قوتها لسلطان الدولة ولهذا اعتبر مدحهم والتقرب اليهم نوعا من التمرد على الدولة • وقد حرمت الدوله على كثير منهم دخول المدن الكبيرة فكان الشيخ منهم اذا أراد حاجة خاصة له وقف عند سور المدينه وبعث من يأتي اليه بطلبه • وقد تميزت قبيلة الاشاعر والمعازبة بكثرة مشائخها وتمرداتهم على الدولة حتى كادوا أن يسقطوا الدولة الرسولية في أحد الايام لولا اعتمادها على العنصر الاجنبي من المماليك ، فكانوا يصارعونهم من حين لآخر • وكان تقرب ابن حمير الى المشائخ في إبان تكون الدولة الرسوليه وعدم التفاتها لأمراء المشائخ وقد مدح منهم جماعه كالشيخ معيبد بن عبد الله الاشعري الذي يقول في مدحه يصفه ويصف قومه ومدينته :

الحصب لي والحصيب في (زمع) ... ومصر بل نيلها لمن يرد
ومذ كساني (الحسام) نعمته ... لم أبك للبرمكيين اذ فقدوا
ومذ كفاني أبو العميد فلا ... يملأ عيني من الورى أحد
ذي (زمع) والحما وذاك معي ... بد وهذا العديد والعدد
ان سار ساروا وراء رايته ... أو هو أومى بكفه سجدوا

وقد وجد ابن حمير في مدح مشائخ العرب متنفسا لنزعته العربية التي ماكاد يظهرها الا من خلال المدح لهؤلاء •

وامتزج شعرهم بنوع آخر من الفن هو ماعرف بفن الغزل ، وقلما تخلو قصيدة واحدة منه • اذ كان هذا النوع ضرورة من ضرورات الشاعر في ذلك الوقت • وانساق وراءه جماعة الشعراء على مختلف اتجاهاتهم بما فيهم أولئك الصوفية وهم في غزلهم أصحاب صنعة وذوق ومع ذلك فلا تكاد تظفر بشيء جديد في هذا الباب وكل ما في الامر هذه الصور المعتادة في أدب الجاهلية والاسلام • ومنهم من أغرق في التقليد وتشبه بالقدماء الجاهليين ولم يخرج عن قاعدتهم حتى

في أسماء النساء ، فهنا نلتقي بسمية وليلى وزينب والرباب وغيرها . وكان ابن هتيمل واحداً من أولئك الذين ولعوا بذكر النساء في شعرهم وقلده في ذلك الشاعر عبد الرحيم البرعي وأنت تقرأ شعر ابن حمير فتجد فيه هذا النفس الجاهلي كقــوله :

ما لي حفظت العهــد من أسمائي   وهوى ابنة البكـري عبر هوائي
ما رمت صــاحبه ســواها انمــا   أســماء حولــت البديل سوائي
أبدا أحوط لها الهــوى وأصونه   وتخــون فانظــر غدرها ووفائي
ميــالة الأعطــاف بــل منهالة الـ   أرداف بل مهضومة الاحشاء

الى آخرها ...

فنحن نقف في هذه المقطوعة على وفاء الشاعر لمحبوبته وصدها عنه ثم وصفه لها بالصور الحسية المتادة في شعر الجاهليين والاسلاميين ولا نظفر بشيء غير هذا .

وقد تفنن الشعراء في وصف ملامح الحبيب والعناية بحسن التشبيه فلا تحال نفسك إلا أمام لوحات فنية أبدع في رسمها رسام ماهر . انظر الى محبوبة الشاعر ابن هتمل في هذا الوصف الرائع :

أغرّ في البــدر شكل من محاسنه   وللقضب نصيــب من تثنيــه
كأنمــا الصعــدة السمراء عاسلة   في بــردة ومجاج النحــل في فيه
اذا تحــرك فارتجــت أســافله   تحــت الغــلالة واهتزّت أعاليه

فنحن أمام لوحة متحركة لمرأة كاملة الوصف .

وهذه صوره أخرى :

متجلبــب بغــلالة مــن شــعره   كشبي الملاحــة حاســرا ومنقبــا
قمــر توشــح خصره ســواره   فيجــول من هيــف عليــه لولبا

وفي شعر البرعي شيء من هذه الصور الحسية كقوله :

ذهبية القسمات رائعة الصبا   ترنو فيحسدها الغزال الأغيد

ففي هذه الصورة وغيرها يكثر تشبيه الشاعر محبوبه بأشياء حسية أو معنوية . وكأن قرائحهم قد توقفت عن الاتيان بشيء غير هذا الاسلوب ، فلا يخرج الشاعر في وصف محبوبته من ذاتها وانما يشبهها بما هو أقل منها مكانة وقيمة من حيوان وجماد حتى كأنك تخاله وهو يصفها انما يصف حيوانا أو متاعا جميلا يعرضه للبيع . ولا أدري هل انحطت مكانة المرأة عند الشعراء الى هذا الحد أم مجرد خيالات يتوسل بها الشاعر الى ممدوحه ، اذ أغلب شعرهم في الغزل انما ورد في مدائحهم لأعيان عصرهم .

وكان ابن المقري قد ساءه كثرة استعمال الشعراء للجماد والحيوان في وصف الحبيب فشبه محبوبه بشيء آخر غير مألوف عندهم كقوله :

ما كنت أول طامح في جامح ... محل اللحاظ مؤقت الاجفان

فاستعمل الذكوره بقوة الابصار والانوثة لفتور الاجفان . ومثل هذا قليل في شعر ابن المقري والا فهو واحد من كبار الشعراء المعرقين في تشبيه الحبيب بالجماد والحيوان . انظر الى هذه التشبيهات الكثيرة في هذه المقطوعة :

قوامك مثل معتدل القناة ... ووجهك قد أضاء على الجهات
وريق لماك خمر سلسبيل ... سلاسل من لآلي باهرات
ومن عجب جفونك فاترات ... وتفعل مثل فعل المرهفات
وسيف اللحظ في الوجنات يحمي ... جنى الورد عن الايدي الجناة
وشعر مثل ليل البحر داج ... على المتنان مسود الشبات
وجيدك جيد ريم في التفات ... الى القناص يعدو في الفلاة

وابن المقري على فقهه وتوليه أحكام الندس الشرعية فانه أكثر شعراء اليمن انغماسا في الغزل والهوى . وقد فلسف الحب في شعره ودعا الى الانخراط فيه بل ذهب الى أنه من الحمق مغالبة الهوى ومخالفته . يقول مخاطبا العشاق :

فيامعشر العشاق مهلا عن الإبا ... فليس لكم في قتل أنفسكم عذر

ولا تطمعوا في الصبر من بعد هذه — فأول قتلى هذه الوقعة الصبر
أرحني أرحني يا عذول فمسمعي — به عن مقالات ترددها وقر
عن الحزن تنهاني وتأمر بالعزا — فقلت أما هذا وفاء وذا غدر
وهل أنا بدع ان سهرت لنائم — وواصلت جاف حظ زائره الهجر
فقد خضعت قبلي الخلائق للهوى — خضوعا شكته الخيزرانة والكبر
وما الحمق الا أن تغالب غادة — ويرضيك أن يعطيك مقودها القبر

ومن مبالغاته في هذا الصدد :

وقال يعيش بعدي وهو يدري — بأن عليه في بقياه عارا
فقلت وأي يوم عاب عني — فعشت ولم أمت فيه مرارا
فها أنا ميت لولا عيوني — تدور لكنت أول من يوارى
وقالوا خذ بنفسك في هواها — رويدا فالسقام عليك جارا
ولولا فرط سقمي لم يكن لي — عدا وجه يقابله جهارا
حملت السقم أوله اضطرارا — واكراها وآخره اختيارا
وقد يخشى المسيء شيئا فيضحي — له ما خاف مما خاف جارا
سلوها هل بجفنيه منام — يجود به علي ولو غرارا
فاني لو ظفرت ببعض نوم — لخطت عليه أجفاني القصارا
وأين طريق نومي من دموعي — أيسبح أم يخوض بها بحارا

وربما سلكت مبالغاته الغرامية طريقة نواسية كقوله في قصيدة .

وجسم محاه السقم لولا قميصه — بدا شبحا كالظل كاد يزول

وكان ابن المقري مدرسة مستقلة في الغزل سلكت طريقا جديدا لم يسلكه أحد قبله من شعراء اليمن وفيها من الاصالة ماتجعله يقارع أكابر شعراء العربية من المتأخرين . وربما نعود الى شيء من هذا عند حديثنا عن ابن المقري .

أما ابن فليته فان مفهوم الحب عنده يرتبط ببقاء المحب على اخلاصه لحبيبه في جميع الحالات :

وليس محبا من يدوم وداده على الوصل لكن من يدوم على الصدا

وابن هتيمل يربط الحب بالهوى والشهوه فيقول : لولا الشهوة لم تخدم الرجال النساء :

للهوى عزة ولولاه والشهوة لم تخدم الرجال النساء
فتعجب من ذلة السيف للسيف ومن خيفة الاسود الظباء

وعند البرعي أن الحب ليس الا لوعة وصبابة :

وما الحب الا لوعة وصبابة ومهجور يحن لهاجر

ويشرح رأيه في هذا فيقول .

ولو كان الهوى العذرى عدلا لحمل كل قلب ما أطاق

ولشعراء الغزل آراء كثيرة حول الحب فكأنهم حولوا الشعر من دائرة التكرار والجمود الى دائرة الحركه والحيويه فهما عواطف صادقة تحس فيهما معاناة الشاعر وصدقه .

وتبقى هذه الاساليب التقليدية في شعر الحب ، وهي كثيرة يزخر بها أدب الشعراء في العصر الرسولي فلا يمكننا تجاوزه الا بالبحث في جوانبها . فمن هذه الاساليب حديث الشعراء عن زورة الحبيب في خلسة الليل ، وكان أبرز من صور هذا الجانب من شعراء العصر الاديب ابن هتيمل . يقول :

ومختف في ظلام الليل نم به تنفس الريح والخلخال والعبق
وافى ليحدث بي عهدا وأحدثه وصاحبي في حلال الركب مرتفق
فقمت والخوف يدنيه ويبعده أضمه بين أحشائي واعتنق

فقد أبدع الشاعر في وصف تلك الزيارة المختلسة من الرقيب . وأنت تحس بروعة التصوير في ذلك التردد من قبل الحبيب في قول الشاعر : (فقمت والخوف يدنيه ويبعده) .

ثم تتحول تلك الزيارة المختلسة عند ابن هتيمل الى غرام مفرط :

طرقت (نوار) وللظلام بقية ... نصف الظلام وللصباح شواهد
وتجلببت ورق الشباب فذائب ... للحسن في ورق الشباب وجامد
بتنا وطوق (المالكية) ساعدي ... تلوي ذوائبها وطوقي ساعد
أفرشتها جسدي فبات مضاجعي ... قمر عليه من النجوم قلائد
حتى اذا نصل الدجى وتعلت ... جزعا وهب من الهجود الهاجد
قامت تغالطني الكلام فطائش ... لا يستقيم من الكلام وقاصد

انها زيارة متأخرة جعلت الحبيب يمر مذعورا تحت ضوء الصباح فلا يلوي على شيء الا الهروب . ويطنب ابن المقري في وصف تلك الزيارة ويقول : (لم ينهها الا طلوع النهار) .

لله ليلة هب نحوي زائرا ... يدعوه نحوي ما اليه دعاني
فرعا يجر إليّ أذيال الدجى ... كالغصن مضطربا من الخفقان
(فاذا فنا) طعم الحياة لقاؤه ... فأدار خمره ريقه وسقاني
فازددت من ظمئي اليه كأنما ... بالري أعطشني الذي أرواني
وافى به نحو الدجى فاستله ... مني ومنه الصبح رأي عيان

وتنتهي هذه الزيارة بالوداع والبكاء :

عهدي به عند الوداع كأنما ... في خده انتثرت عقود جمان
خجلا يعاود لي هواتر صرفه ... واليه أشكو حلي تعاني
والصبح يطلع راسه بين الدجى ... وكأنه نار خلال دخان
والورق فوق الايك تصدح والضيا ... في الافق يمشي مشية السكران
والليل قد ركب النهار فقاؤه ... والنجم يكسر صرفه ويداني
مضى وأليـ ـي السقام وانما ... من كلما أحببته أعراني

وتنتهي الزيارة بانتهاء الليل وطلوع النهار .

وفي شعر ابن المقري كثير من الاساليب الفنية المتبعة عند الشعراء في ذلك الوقت سنعود الى ذكرها في ترجمته .

وقد احتفظ الغزل بسماته التقليدية عند شعراء العربية ولم ينحدر الى هاوية الشذوذ والمجون كما عهدناه عند جيل المولدين من شعراء العصر العباسي والعصور المتأخرة والشام . ولكن الشاعر اليمني الوحيد الذي خرج عن حدود الادب والاخلاق في شعره هو الاديب أحمد بن محمد فلبته الذي تجد له قطعاً ماجنة في الغزل بالمذكر والاستهتار بالاخلاق بل أنه لايتحاشى في شعره عن ذكر الاتصال الجنسي الشاذ . وهذا الشاعر نسيج وحده في الادب اليمني وهو صاحب ثقافة تأثر فيها بالادباء المعاصرين له من أهل مصر والاتراك الذين قدموا مع الدولة الرسولية .

وفي شعر الرثاء امتزجت العواطف بالاحساس الشعري الرقيق ولم تعدم الصنعة الفنية فيه . وربما اختفى طابع التكسب من هذا الشعر ، ووجدنا جماعة من أدباء اليمن يرثون أقاربهم لا بدافع الكسب والتجارة وانما بدافع الاحساس بالالم والمعاناة . وفي الادب اليمني جماعة من أولئك الادباء الذين رثوا زوجاتهم ووجدنا في هذا العصر من رثا ابنه وأخاه . في حين تمثل في شعر الرثاء الرسمي — وأعني به رثاء أعيان الدولة — وحدة الموضوع وتكامل الصنعة . وكان أشهر من بكى الاموات في اليمن الشاعر عبد الرحيم البرعي ، وقد أهله لذلك طبيعة وجدانية رقيقة . وشعره في هذا مما تسير به الركبان . وقد بلغت به الصنعة في هذا الفن درجة يختلط فيها بين الرثاء والمديح فلا تكاد تفصل أحدهما عن الآخر . انظر اليه يصف ضريح أحد الأموات الذين رثاهم :

ألوذ بالمشهد المحروس منتصرا ... كأنني منه في ركن وملتزم
حيث الجلالة مضروب سرادقها ... والنور متتسم يجلو دجى الظلم
لله دا الطود المنيف ذرا ... ذا العالم ابن العالم العلم

فهذا مديح خالص لا رثاء كما أردنا . ولو أنه يرثي أشخاصا ماتوا لقلنا إنه يمدحهم .

وهذا الشاعر ابن هتيمل يرثي زوجته بحرقة وألم ونسمعه يقول :

بنفسي عصر يوم الست نعش تداوله المناكب والرقاب
تسل الى الحفيرة منه شمس تبلج في جوانبها شهاب

وتنتهي مراسيم الجنازة ويبقى قبرها ماثلا أمامه فيجدد في نفسه الحزن والألم :

يجدد قبرك المعهود حزني مطاوله ومنزلك الخراب
وعز علي أن أمسي وبيني وبينك من سوى الدنيا حجاب
أحيي بالسلام فلا أحيا وأعلن بالكلام فلا أجاب

ثم يشتط الخيال بالشاعر فيتخيل زوجته وقد أكل البلى جمال وجهها وتخللها التراب من كل صوب وهي التي كان يؤلمها مسيس الثوب :

وأصبح للبلى بجمال وجهه يؤثر في محاسنه النقاب
فما فعل الثرى ويد الليالي بجسم كان تؤلمه الثياب

ويعود الى هذه الخاطرة فيقول في مفتتح قصيدة أخرى في رثاء زوجته :

على مثل من ودعته ووساده على المضجع الارضي كف ومعصم

ثم يصور أيام الوحدة ويخاطب زوجته الراحلة فيقول :

أبيت على جنب الفراش كأنني ضجيعي من بعد المليحة أرقم
أتاركتي فردا بدون قرينة وما كل موجود القرينة توأم

وفي بكائه لزوجته يكثر تمنيه الموت ويعتبر تأخر موته من سوء حظه .

فمن لي أنني في مكانك أرمل وأنك مني في مكاني أيم
ومن ضعف حظي أنني متأخر فيردها لو أنني متقدم

ويقول في قصيدة اخرى :

ولو أني فديت عليك نفسي لكان خطاي في الفعل الصواب

وهذه النغمة تتردد في أكثر مراثيه فيقول في رثاء الفقيه علي بن حسين الجلي:

فما أنا في طيب الحياة براغب ولا أنا عن حب الممات بزاهد

وكان ابن المقري قد رثا ابنته زينب فقال :

تولت فما من مطمع في لقائها أمني به الباكين يوم اقتوائها

ويذكر من محاسنها محافظتها على الحجاب وعدم تبرجها وخروجها من البيت:

ولا برزت من خدرها لتنزه ولا راودت جاراتها من خبائها
ولا امتدت الايدي اليها مشيرة ولا قيل هذي زينب في نسائها
ولو لم أنوه باسمها بعد موتها لكان خفي مثله في بقائها
لقد كنت أخفي في الحجاب من السها على مقله والشمس حال استوائها

ويلقي نظرة على أولادها الذين تركتهم وراءها فيقول :

وخلفت أولادا كزغب من القطا تدافعهم بالكره أيدي إمائها
لقد ضاع طفل غاب عن عين أمه وان خلفتها غيرها في اعتنائها

وكما رثى الشعراء أقاربهم وذويهم تجدهم قد رثوا الشيوخ والعلماء وهذا الشاعر ابن المقري يصور حسرة الطلبة على فقدهم العلامة النحوي عبد اللطيف ابن أبي بكر الشرجي فيقول على لسانهم :

يا شيخنا في كل علم اننا مثل التلامذة اليتامى في وصب
الضائعون اليوم والباكون من أخذ لشخصك مغتصب

ويعدد مناقبه فيقول :

العالمُ الوضاح والبحر العباب الزاخر الامواج والغدق الصبب
والفذ في العلماء والمصلاه في تصوير مسألة بمفظ أو كتب
الناسك الأواب والوهاب والرغاب في بذل الرغائب والقرب

ويرثى الشاعر محمد بن حمير الفقيه محمد بن حسين البجلي بقصائد كثيره منها هذه القصيدة الرائعة :

لله آيـــه ســـؤدد وجـــلال ... حملوه من فوق الســرير العالـي
ماذا تــداولت الرقــاب عشــة ... من بدر أنديــة وبحـر نـــوال
كسب الجمال كل دهـــر عاطل ... فاليوم عطــل كــل دهــر حالي
من للعظايم ان فقــدن تزيلهــا ... عن حالهـــا ويمسك كل عقـــال
من صاحب الوجه الجسيم وصاحب ال ... جـاه الجسيـم وكعبة النــزال
يا بن الحســين لكم أجبت قبيلها ... صوتي وكم أصغيت عند مقالـي
كانت بك الاوقات وهــي منيره ... فاليــوم أيــام العــوير ليالــي
فقدت (سهام) سهولها وسجودها ... بك ذروتـي جبل مــن الاجبال
كان اللهـــف الى ظلالك يتجـي ... فاليوم قد أضحـى بغير ظلال
قد كنت برا بالجميع ووالــدا ... للشيــب والشبان والاطفـــال
فاليــوم ضاع السرب بعد وفاته ... سلفت وبت الحبل بعد وصال
لا الاثل في شطي (سهام) بمعشب ... والمــاء حتـى المــاء غـير زلال
والارض غير الارض والدنيــا سوى ... ما كنت أعهــد في الزمان الخالي
كنت الهـــلال لغورها ولنجدها ... فاليـــوم مغربها بغير هـــلال
طود تصدع من (تجبلة) بعدما ... قد شاد أي معالـــم ومعـــالى
ان يحملوك الى الضريح فطالما ... قد كنت عنهم حامل الاثقـــال

الى آخر قصيده ابن حمير في هذا الموضوع .

وامتزج رثاء الشعراء للملوك بنوع آخر من الابتكار والجوده في النظم حيث تدخلت فيه عده عوامل مادية ومعنويه لامجال لذكرها هنا . وكان ابن هتيل واحداً من أولئك الشعراء الذين أجادوا في رثاء الملوك والامراء وهو أقدم من صور الاغتيالات في شعره . كقوله في رثاء الامير محمد بن قاسم الذروي الذي مات قتيلا وكان قد قتله شخص يسمى (ابن عاطف) .

اذا استعرضته من حانبيه أجلت الفكر في العجب العجاب
ترى البازي والاسد العفري صريعا بابن آوى والغراب
وكم قد يب دا ظمسر وناب بسائمة بلا ظفر وناب
تمرد بالقرود بني (قصي) وأفني بالكلاب بني (كلاب)
(كوحش) أو (كنسر) أو كأشقى (مراد) وعاقف ابن أبي التباب

ويجيل نظره الى تلك النوادب فيراها مما تزيد في شجوه :

ومما زاد في عمسي وشجوي وفي كمدي وحزني واكتئاب
نوادب من نوائح ذكرنني بريب أو (سكينة) أو (رباب)

ومن رثاء الشعراء للملوك قول الشاعر ابن المقري في قصيدة يرثي فيها الملك الناصر عبد الله بن أحمد بن اسماعيل الرسولي أولها :

ما لي أرى العاب عن وجه الهزبر جلا وما لبدر الدجى عن برجه أفلا

ثم يصل الى بيت القصيد ويصور الفاجعة بموت الفقيد:

ما كان أفجعه خطبا وأفظعه سلبا وأسرعه في أمه خللا

ثم أنه يتقمص شخصية المرثي ويقول على لسان معزيه:

أموت بينكم وحدي وما أحد منكم يموت معي حزنا ولا وجلا
أين المفدون لي جا أما رجل منهم اذا قال قولا بالفدا فعلا
لا هم فدوني ولاقى الموت شاركني منهم صديق ولا في حفرتي دخلا

فيجيب الشاعر عن استفساره ذلك بأن موت النفوس حزنا عليه أمر هين لولا خشية الشارع الحكيم •

ولو أجبنا لقلنا قتل أنفسنا عليك هين ولكنا نسي عملا

ويفلسف ابن المري في رثائه مسألة الموت والحياة فيقول إن الموت يروعنا أول قدومه ثم ما نلبث أن نستسلم له :

يروعنا الموت عظما عند هجمته ... وننكر الامر حينا ثم نعترف
كالشاء قد روعت سربا فثاب لها ... رعبا وألهاه عنها الروضة الانف
والدهر ما زال يبكينا ويضحكنا ... بصرفه وعلى هذا مضى السلف

ويعاهم الناس قد أقاموا طيلة أوقاتهم في مأتم لهذا الموت :

راجع سلوك تسلى الناس قصبة ... فقد أقاموا على الاحزان واعتكفوا
فلا ترى غير ذي قلب به حرق ... وغير ذي مقلة انسانها يكف

واذا تجاوزنا هذا النوع من الشعر سنجد فن الوصف قد زاحم سائر الفنون الشعرية ودخل في اتجاهاته واشتهر من شعراء الوصف في ذلك الوقت الاديب عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني والاديب ابن هتيمل الذي كان كثيرا مايصف المعارك ويصف أبطالها فمن ذلك وصفه بعض الابطال يقول :

بكل سميدع يصحي خضابا ... بأنمله التجسع عن اليسرنا(١)
اذا عقد الحبى أبصرت أنسا ... وان شهدوا الوعى أبصرت جنا

ويصف ابن المقري معركة فيقول :

اذا ما غزا في موكب سار قبله ... من النصر والفتح المبين مواكب
وحفت به تحت العجاج كتائب ... أسنتها فيه نجوم ثواقب
قد اطردت أرسانها وتناسقت ... كما اطردت في السمهري الانابب
تراها جبالا من حديد وراءه ... تدافع مما صفن عنها السباسب
تظل عوالبها تظل كأنها ... اذا ذبن من حر الهجير الدوائب
وان حفظت في مشرع الطعن أرخيت ... عليهم من النقع المثار مصارب

(١) اليرنا الحنا

وضلت تعادي الخيل فيه كأنها ... كواسر عقبان لوكسر طوالب
هنالك لا روح تصان عن الردى ... ولا دم الا في فم السيف ساكب
ولا نحر الا فيه بالرمح طاعن ... ولا رأس الا فيه بالسيف ضارب

وكما وصفوا المعركة والابطال نجدهم قد وصفوا الهزيمة .. فابن هتيمل لايصور المنهزمين الا في صور الفارين من الموت :

حصوا بسيفهم فلما أيقنوا ... بالموت طاروا عنه كل مطار
صبوا السياط على قوارح خيلهم ... هربا من المهراب والامهار
فكأنهم شهب البزاة تبلبلت ... بالغيث فانقضت الى الاوكار

ومن الشعراء من مال بشعره الى وصف الرياض والحدائق والقصور وكان ابن فلينه واحداً من أولئك الادباء الذين برعوا في هذا الجانب فقال في وصف بركة مـاء :

الزهر يبسم عن ثغر بتبديد ... والطير يطبع أصناف الاغاريد
وللنسيم على الاشجار نحنحة ... فكل غصن عليها مأيس الجيد
وللجداول بين الروض رقرقة ... والماء ما بين تخدير وتصعيد
في بركه لعبت أيدي الرياح بها ... حتى غدت بين تسليس وتجعيد
دارت تماثيل طير في جوانبها ... تسمع ماء ولم تنطق بتغريد
كالبحر أضحت عليه الطير واقعة ... تبدد الدر فيه أى تبديد
وجاذب القصب الاوتار اد نطقت ... فأطربا بين ترجيع وترديد
وكان أعجب من هذا وذلك في ... صوت الطبول مع الناقوس والعود
فكل نفس بحمد الله من طرب ... ترتاح ما بين مسموع ومشهود

ويصف ابن المقري احدى النزه فيدقق في وصف ما فيها من أثمار ومباهج:

ونحن في روضة يجري النسيم بها ... فيلبس الماء درعا ضيق الحلق
تحكي الغصون بها الاحباب ناحلة ... ما بين مفترف منها ومعتنق

والورد فيها خدود ضرجت خجلا — والنرجس الغض كالاجفان في الحدق
وللرياحين والازهار اذ شربت — لون الزبرجد والياقوت والورق
راقت ورق جلابيب النسيم بها — لما بدا الغيم في أبراده الصفق
وغردت خطباء الطير ساجعة — على الغصون بلحن مطرب أنق
فالطير تشدو لتصفيق الغدير لها — والدوح يرقص رقص الناشئه الملق
والكاس تلثم ثغرا عن لآلئها — عجيبا وتلبس جلبابا من الشفق

وصفوا القصور فقال ابن عبد المجيد يصف قصر (المعقلي) :

تلك الجنان أما ترى أنهارها — قد أعربت بالطيب عن ثمراتها
تجلى زواهرها ويشرق زهرها — فكأنها الاقمار في هالاتها
مثل المجرة في انتظام قصورها — أيس المجرة من سنا زهراتها
برزت بها الاغصان شبه عرائس — نظمت عقود الدر في لباتها
في كل عود من سواجع طيرها — عود يرنك اللحن من نغماتها

ويقول الشاعر عبد الله بن جعفر يصف نفس القصر السابق الذكر :

هل في الخلافة آيات تشاهدها — وقوف سقف ولا شيء به دعما
وابصر التبر مبذولا لطالبه — فنال من دونه دونا به رقما
بين الحدائق والاعناب قد نشرت — منها نبات تلف الوهد والاكما
كأنما عاد عمدان كمدته — وأظهر الله من أستاره إرما
كأن أربعة الجوزا رواشنه — و (الجركتان) كأن الفرقدين هما
بين الشبيهين (شادرمان) قبلته — هما الجناحان وهو القصر بينهما
تظل منه صفوف الماء ساجده — مؤديات لسلطان الورى خدما
الى سواقي رخام فوق (فسقية) — فاعجب لجامد ماء فيه ذائب ما

وأنت تجد في هذه القصيدة مدى تأثير الكلمات الحضارية على أدباء اليمن في ذلك الوقت وقد جاءتهم مع دخول الدولة الايوبية . فنحن هنا نجد أسماء

أعجمية غريبة على الشعر اليمني كلفظة (رواشن) جمع روشن وهي كلمةفارسية معناها الكوة ، ولفظة (جركتان) لم أقف لها على معنى ، و (فستقية) ومعناها الحوض باللاتينة الى غير ذلك .

أما ابن المقري فانه يصف قصرا عجيبا بناه السلطان الناصر ويضمن فيوصفه بعض الآيات القرآنية :

(مقعد صدق لمليك مقتدر)　　كأنه من جنة الخلد اختصر
منمنم الارجاء طاووشيها　　يقيد اللحظ بمنظر نضر
سامي المباني بكواكب السماء　　متوج وبالسحاب مؤتزر
كأن وشيَ الطرس في حيطانه　　رقم يذوب التبر في طرس سطر
سقف نضاري يسر من رأى　　على أواوين بها العين تقر
قد أبرز « الابريز » من مرقومه　　في طرزها محاسن لا تستتر
وبركة تقابلت عقودها　　عرائسا مجلوة للمبتكر
تظلها قبة تبر زخرفت　　متى تجل في وشيها الطرف أسر
مترعة ماء يظل ينطوي　　فيها على حكم الهوى وينتشر
وكلما مر النسيم فوقها　　فاضت على الطروق بماء منهمر
بين رياض يشكر الصاحي بها　　ظل مديد وهواء مستمر
سخونة الجو وبرد ظلها　　كسى النسيم لذة لا تنحصر
تنتشر الروح اذا جرى الصبا　　فيها عشيا فضل ذيله العطر
حدائق خضر الربا أنهارها　　من تحتها تجري بماء منهمر
دانيه قطوفها للمجتني　　طائعة أغصانها للمهتصر
بديعة أوصافها رحيبة　　أكنافها نعم مقر المستقر
قد صاحت الورق على أغصانها　　يا معشر العشاق هل من مدكر
هذي غصون كالقدود تجتلى　　و (جلنار) كالخدود يستمر
ونرجس مفتتح جفونه　　محدق عيونه كالمنتظر

فنحن أمام وصف كامل جمع بين وصف الرياض والقصور ، قد صحبنا الشاعر في أول القصيدة الى داخل القصر ووصف حيطانه وسقوفه ثم خرج بنا الى الحديقة ووقف وقفة متأنية عند « بركة » القصر ووصف ماحولها من عجائب كتلك القبة التي وضعت فوقها وزخرفت بنقوش هندسية جميلة وهذا الماء الذي يتحرك بتحرك النسيم ، وأخيرا ألقى نظرة على الحديقة وما فيها من جو عليل وورود وأزهار متنوعة .

ومن الشعراء من مال في شعره الى وصف الخمر ويعتبر الاديب ابن فلته شاعر الخمره فى الادب اليمني خلال عصر بني رسول ومع ذلك فاننا نجد لابن هتيمل مقطوعات شعرية جيدة في وصف الخمر سنذكرها في ترجمته .

ودخل في الشعر اليمني في ذلك الوقت اتجاهات أدبية جديدة استحدثوها فيه من الشعر المعاصر لهم في مصر والشام . وكان من أهمها شعر « الموشح » الذي دخل الى اليمن عن طريق مصر وليس عن الاندلس كما يظن البعض . فقد نشط في مصر خلال ذلك الوقت شعر الموشحات وبرع فيه من أدبائها جماعة نذكر منهم الاديب ابن سناء الملك صاحب « دار الطراز » وهو أول مصنف وضع في أصول هذا الفن . وفي هذا الصدد يقول الاديب محمد كامل حسين إن « المصريين هم أول من صنف في فن الموشحات بالرغم انه فن دخيل عليهم[1] » . والاصل في الموشح الاندلسي انه كلام منظوم على وزن مخصوص يتألف في الاكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات تتردد في الموشح ويقال له الموشح التام وفي الاقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له « الاقرع » ، أما في الموشح المصري فانهم لم يتقيدوا بهذا العدد أو ذاك والتام يبتدىء بأقفاله والاقرع يبتدىء بأبياته أما الاقفال فهي أجزاء مؤلفة يجب أن يكون كل قفل منها متفقا مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزائها والابيات أجزاء مفردة أو مركبة يلزم في كل بيت منها أن يكون متفقا مع بقية أبيات الموشح فى وزنها وعدد أجزائها لا في قوافيها بل

(١) محمد كامل حسين دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ص ١١٤

يحسن أن تكون قوافيها في كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر وأقل ما يتركب القفل من جزئين الى ثمانية أجزاء والبيت ثلاثة أجزاء .

ومن أمثلة الموشح عند المصريين هذا الموشح التام لابن سناء الملك :

أهوى قمـــر أحوى أغـــر حلو الرضاب ألمـــــى
وعــــــاذلي لمــــا نهى عن التصـــابي أعمـــــى
البس ثيابك جهـــرا واكتم هـــواك سرا
وادر للدمـــوع سرا وارم العـــذول بــرا . الخ

وكانت صلة اليمنيين بالمصريين قوية في ذلك الوقت فلا غرابة اذا استحدثوا عنهم « فن الموشح » وكان مؤسس هذا الفن في الادب اليمني هو الاديب أحمد ابن محمد بن فليتة وقد وصف المؤرخ الخزرجي ديوانه بأنه اشتمل على عدة أنماط من الشعر كالموشح والساحلي والدوبيت والبلبال والحميني . ومن حسن الحظ أن ديوانه الحميني قد وجد أخيرا عند أحد الادباء وهو غير ديوانه الفصيح المحفوظ بمكتبة الجامع بصنعاء .

ودخل الشعر الملحون المعروف في اليمن بالحميني سائر فنون الشعر وان كان تميز على وجه الخصوص بشعر الموشحات والمسمطات فان ذلك كان لاستعماله في الغناء والموسيقى وأقدم قصيدة ملحونة غناها المطربون في اليمن كانت للشاعر ابن فليتة صاحب هذا النمط من الشعر وهي التي أولها :

لي في ربى حاجــر غــزيل أغيد ســـاجي الرنــا(١)

وحسب قول المؤرخ يحيى بن الحسين أن أول من قال الشعر الحميني في اليمن هو الاديب ابن فليتة والمزاح(٢) . وهذا أقرب الى الواقع لان هذا الفن من الشعر لم يعرف إلا في العصر الرسولي وهما من أدباء هذا العصر .

---

(١) من مقال للاستاذ عبد الله البردوني في مجلة الغد .

(٢) يحيى بن الحسين غاية الاماني ص ٥٧٢

ومع ذلك فان شعر العامية لم يكن حكرا على فئة من المتأدبين بل زاحمهم في ذلك شعراء الصوفية وكان الصوفي محمد بن عمر النهاري يقول شعرا ملحونا من ذلك قوله :

سمعت الناس في رنه　　　يقولوا باكسر العيدي
وعيد الناس ذبحاهم　　　وعيدي أنت يا سيدي

وهذا الشعر وغيره يسميه الشرجي بالكلام المسجوع[٣] . أما الشعر الهزلي فهو نوع آخر من الفنون العربية التي عرفها الادب اليمني في عصر بني رسول وشهر فيه خلال ذلك الوقت الاديب أحمد بن محمد بن سالم بن الامام الذي خصص حياته لاضحاك الناس شعره وسلوكه حتى عرف اسمه بين الناس بالمجن ومن شعره الهزلي قصيدة في هجاء فأر كان قد أتى على كتبه :

مديح الفار خير من هجاه　　　رجا شيئا فأدرك ما رجاه
وأعطي ما أراد وما تمنى　　　وأخطى الخلق من يعطى مناه
بدار الشيخ أسعد حيث كانت　　　اكيبتي وقد عظموا وتاهوا
وقالوا قط ليس لنا معاند　　　من المحراب فهو لنا بناه
اذا ما الهر وافى فرد يوم　　　أغاروا كلهم وجروا وراه
وأطبق وهو في وجل عظيم　　　وولى ولم يلفت وأعطاهم قفاه
وجيش لو استقام لهم قاتلي　　　لطاح وأطعموه اذا أذاه

وبلغ الامر بأدباء العصر الرسولي أن يسخروا حتى من أنفسهم فهذا الاديب محمد بن حمير ينظم قصيدة في هجاء نفسه ويبعثها الى الملك المنصور بعد أن أصدر أمره بأخذ خيول العرب بما فيها خيل ابن حمير فقال :

مولاي نور الدين لا　　　لاقيت صرف النشوى
وعشت ألفي سنة　　　في خفض عيش خصب

(١) الشرجي طبقات الخواص ص

سمعت منكم خبرا ... أطلقت فيه عجبي
إن كان من قصدكم ... أخذ خيول العرب
فإنني من ساعتي ... أخلع منهم نسبي
أكون زنجيا ولا ... أدخل في ذا السبب
وما اختلاطي بهم ... هذا أشد التعب
والمرء معذور إذا ... جانب أهل الريب
لأن عندي فرسا ... من خيل أهل الأدب
أبغي التسحادات به ... ليس يطعم السرب
ولا لحمل الدرع لا ... بل للعصي والجرب
أحسكته في (صفر) ... ومرة في (رجب)
ولم أزل أوعده ... بكل وعد كذب
لجامه من سلب ... وسرجه من خشب
ولو تراني فوقه ... كمثل جعس الكلب
فتارة يعثر بي ... وتارة يربض بي
وتارة أضربه ... وتارة يضرب بي
وليس عندي غيره ... والله من مرتكب
لا أبتغي لا نقري ... لا فضتي لا ذهبي
ولا كسرا عندي ولا ... رمحي طويل العذب
لست « ابن كلثوم » ولا ... « عمرو بن معد يكرب »
إن أنا إلا شاعر ... أطلب فضل العرب
كالطير يسترزق من ... خيول أهل الحرب
كالفار يمشي ليلة ... حول رغيفه تلب
لا تخلطوني بهم ... فقد عرفتم نسبي
إن آدم جدهم ... فإن إبليس أبي

يكفيك عن ذا فرسي ... كل جواد سلهب
وكل جردا أعطل ... وكل طرف مقرب
كتائب معقوده ... مثل الخضم اللجب
ما جبنه من حشف ... بين سلال الرطب
ومن رأى الرأس فلا ... يرضى بأخذ الذنب
بالله محفوظ أنا ... والمدح منذ كنت صبي

انظر الى هذه السخرية التي بلغت بالادب حتى أنه تجرد من نسبه بل ومن آدميته ليحظى بفرسه . وهذه غاية السخرية فهو لم يكتف بأن سخر من نفسه بل صور حيله ذلك التصور المضحك وانه ليس لحمل سلاح أو درع وانما يسعى به للتسول عند الناس وانه يعلقه في صفر وتارة في رجب ولايزال يوعده بوعود كذب وتارة يعثر وتارة يربض به الى آخر شعر ابن حمير الهزلي .

ويكثر في شعر الادباء في ذلك الوقت استعمال الحوار والقصص وكان أشهر من برز في هذا النوع من الادب الشاعر ابن المقري الذي يقدم لنا في شعره قصصاً طريفة من ذلك قوله :

أتاها رسولي فاسمعوا ما جرى له ... لقد رابني لما سمعت مقاله
رأته فقالت أنت من بعض رسله ... فقال نعم قالت فصف لي حاله
فقال كئيب القلب قالت فجسمه ... فقال نحيل من رآه رثى له
فقالت وزدني قال أما نهاره ... فيبكي وأما ليله لا كرى له
فلما وعت ما قال قالت قتلته ... وان دام هذا راح لا لي ولا له
ووالله ما فارقته عن ملالة ... ومن ذاك يمناه تمل شماله
ولكن وشاة كثروا في حديثهم ... فبعدا لقوم أحرموني وصاله

فنحن أمام قصة متكاملة الاحداث تبتدي بوصول رسول الشاعر الى صاحبته واستفسارها عن حاله ثم تنتهي بأمر الوشاة وعيب الحبيبة لهم .

وحدثنا البرعي عن فراقه للحبيب فصور ذلك في قصة حوارية نقول فيها:

بأبـي مودعة تخافـت صـوتها ... خوف الرقيـب وعيبهـا تسـالا
سارقتها طـرف الحديث وربمـا ... التفتت يمنـا والمحـتدّ شـمالا
قالـت تفارقني فقلـت لها نعـم ... قالـت فنسـاناً فقلـت لهـا لا
قالت فأيـن تـريد قلـت مسـ ... ـم يخش زائـر سـوحه اهمالا

وهذه قصة أخرى نجدها في شعر البرعي :

لله موقفنـا بمنعـرج اللـوى ... في الشعب من دون الفريق المنجد
حادثتهـا طرف العتاب فأعرضت ... عني وقالـت ما أراك بمسـعدي
فطمعت أنّنـي عطفهـا متغـزلا ... بالأبرقـين وبالعذيـب وثمهـد
وطمعـت منها بالحديث وقلت هل ... من شربة يا أهـل هذا المـورد
فأت بـه مـن جيبهـا وكأنهـا ... شمس ‥ تمـد بكوكب متوقد
فسرقـت من حسن المليحة لمحـة ... فطعن عـرى كبدي بغير مهنـد

تلك قصة طريفة يطلب فيها الشاعر الماء لا لظمأ ولكن ليرى صاحبته. ويكثر مثل هذا القصص في قصائد الشعراء وربما عرفها الشعر العامي بشكل أوسع كما هو الحال عند الخفنجي في قصيدته (تعرطه ببيت البسيس)(١) .

---

(١) انظر بحثنا في مجلة الثقافة الجديدة سنة ١٩٧١ .

شعراء العصر الرسولي

حظي الشعر في عصر بني رسول بمكانة عالية فلا غرابة اذا كثر الشعراء في ذلك العصر وأصبح شعاطاه جماعه من فئات الادباء على مختلف مستوياتهم الاجتماعية والعلمية ولم يكن محصورا على الادباء المحترفين فقد قال الشعر من طبقة الفرسان وشيوخ القبائل الشيخ علوان الجحدري والامير ادريس بن علي وغيرهما • ومن طبقه الفقهاء والعلماء الشاعر عبد الله بن جعفر وابن المقري وشعراء آخرون ليسوا أصلا من أصحاب حرفة الادب وانما جرهم الى قوله مواهبهم الفطرية وميولهم الى هذا النوع من الفن حتى أصبح الشعر يتردد على ألسنة الملوك من سلاطين الدوله الرسولية وهذا الملك المجاهد ينظم شعرا جيدا في الفخر يقول فيه :

ملت أنا بالعز أطراف القنا   لبس بالفخر المعالي تجتنى   نحن بالسيف ملكنا اليمنا
كل فخر يدعي الناس لنا   أعرق العالم بالملك أنا

أنا شبل الملك زين الكتب   يوسف جدي وداود أبي   والشهيد القرم زاكي الحسب
وعلى القيل عالي المنصب   جدنا بعد رسول جدنا

ان تكن أضحت علاهم خبرا   فاعملا مني بالعين يرى   أنا كالليث اذا ما زأرا
أنا كالبحر اذا ما زخرا   المنايا في يميني والمنا

ابذل المال فلا أجمعه   كل عاف نحونا منجعه   واذا القرن سعى آصرعه
واذا ولى فلا أتبعه   واذا لاذ بعفوي أمنا

شيم شبه تلك الشيما   بس لي من جدودي القدما   ثم ملك الشام من ماء السما
يعشرون الناس طرا أرغما   من هنا أو من هنا أو من هنا

ويقول الخزرجي ان للملك المجاهد ديوان شعر ••

والآن مع شعراء العصر الرسولي على أننا سنرجىء الحديث عن كبار الشعراء في فصول مستقلة سنأتي فيما بعد .

ابن العليف

من شعراء الطبقة الاولى عاصر ابن حمير وجرت بينهما منافسه كبيرة وكان من الشعراء الرحل الذين يقصدون الملوك والرؤساء بالمدائح وقد لقي عناية كبيره عند بني معيبد رؤساء الأشاعر بوادي « رمع » فأكرموه بعطاياهم الجزيلة حتى حسده ابن حمير على ذلك وذهب الى ممدوحيه يغري به .

ورغم ان ابن العليف انما هجاهم في معرض المدح ثم استأذنهم في هجوه فقال قصيدة طويله أجاب عليها ابن العليف ونحن نوردهما هنا لنعرف نوع ذلك الهجاء المتبادل بين الادباء في ذلك الوقت . يقول ابن حمير :

غيري تغيره امتاة العيطل ... ويشوقه الحادون حيث تحملوا
وسواي يشديه الحمام اذ شدا ... ويهيج لوعته الصبا والشمأل
أقصرت عن غي الساقي وكان لي ... منه الترسل والعنان المرسل
أيام ما كان الشباب عسراتق ... بوصال من أهوى وسعدي مقبل
لكني أبكي علي ومن مضى ... بالرقمتين مدمع عيني يهمل
ولقد جريت مع الصب جري الصب ... وسقاني الصهباء أحور أكحل
وأحق خلق بالملامة شاعر ... يلحي على البخل الرجال ويبخل
هيهات لي نفس تعز وهمة ... من دونها يدنو السماك الاعزل
أبلغ مسلم أن بلغت مسلما ... فالكسب ليس بفاعل ما يفعل
واردد عليه مروة من شعره ... فالزبل في وسط المزابل يجعل
أتلوم قوما كنت يا صبح الملا ... بالامس بين بيوتهم تتظلل
أغنوك اذ لم يدر كفك ما الغنى ... وسقوك اذ لا ماء قومك سلسل
ورأوك في«حوك» بساوي درهما ... فبنوك تخطوك في النسيج وترفل
وقدحت في مدح «السهيلي»الذي ... د بانه من هسام قومك أجول

وزعمت أن الجمح أكبر حفنة من حاتم ومن اسموءل يهدل
لو كنت حاضرها غداه رويتها يا بن العليف لرض ّ فاك الجندل
ولينك وصحبك صواعق مني نحل اذا حللت وترحل
لكن خلوت وحشو أرصك سوه فوقفت بين بيوتهم تتعزل
واذا الاجادل غيبت من بلدة وقف الغراب بها يصيح ويحجل
واذا الحمار بأرض قوم لم يرى خيلا بها قالوا أغر محجل
شعر كجوف الطبل مافي جوفه شيء ولكن للسامع يشغل
والله ما أعطوك آلك معلق في الشعر لكن في المواصل توصل
وعجبت اذ قالوا فلان شاعر وتغامزوا فعجبت ألا تخجل

فأجابه مسلم بن العليف مخاطبا الشيخ بن معيد :

لأية شيء بعدكم أتعلل ومن أي وجه نحوكم أتجمل
وما العذر حتى لا آلام على البكا عليكم ولا فما أجد وأهزل
أحاول بعد الظاعنين تجملا وحسبك يوم البين من يتجمل
فما لي والريحين أبكي لهذه ومن هذه من لوعة أتململ
اذا أحببت أحببت عن أحسن العزا وتشمل جسمي رعدة حين تشمل
وتهمل عيني بالبكا وأكفها محاذرة من أن ترى وهي تهمل
أفي كل يوم انني متغزل أمثلي شيخ أشيب يتغزل
يليق التصابي بالشباب وانما ولا حرج أن يعشق المتكهل
مناقله لا جسرأة السير إن مشت ولا يبطي خطوها حين ترفل
ألكني الى أشياخ يعرب كلها ألوكة من يألو ومن يتمثل
وقيل نشان النصح الندب أنها أحل شان للسماح تقبل
وأهدي له مني سلاما كأنه فتيت من المسك الذكي ومندل
أسركم ما قال في ابن حميير وان كان في أقواله لا يطول
ومن بعض ما يرويه أبي هجونكم وذلك مكر ظاهر وتحيل

هلا وانی لاجبرت نسبه — بأني فما ساءكم أنتصل
وما الليث اذ لم يفترس الست أرنبا — على الخيبر المشهور فما يدل
تعيرني في لبس حوك كسبه — فقل لي لـه لا درّ درّك حل
وكان لباسي الروح عسى مسوحا — عليه فما أزرى بـه وهو مرسل
فما فضل أصحاب النبي مجانب — بعلمك في ثوب العناء مرمل
وأشياخ قحطان وأشياخ يعرب — يعصر كل فرده ويعمل
وما الفخر في لبس الحرير وانما — فخار الفتى فيما يقول ويفعل

والقصيدة طويلة • ولولا سقم النسخة التي بحوزتي لأكثرت من نقلها • ولابن العليف قصائد شهيرة في المفاخرة بين قحطان وعدنان من أشهرها قصيدته (العليفيه) •

أخو كنده

ذكره المؤرخ محمد بن حاتم في تاريخه السمط الغالي الثمن ولم يؤرخ لحياته أحد من المؤرخين بل لم يصرحوا حتى باسمه الكامل واكتفوا بنسبه الى قومه كنده ولاشك أنه من كبار شعراء عصره وقد مدح الملك المظفر بعدة قصائد يهنئه فيها بانتصاره على خصمه صاحب ظفار الملك سليمان الحبوظي • ومن شعره :

هو في انتقاد البيض طب صيرف — فسح عينه قريبة هو أعرف
يرتاح مـن كل الملاح الى التي — في ثغرها بـرد رقيق وقرقف
واسأله عما شئت من ألم الهوى — يخبرك فهو المستهام المدنف
ما فارق العلمين حتى علمت — أجفانه كيف المدامع تذرف
أبدا ولا عنت بعسفان المها — الا وعنّ له هـوى معسف
ولطالما سارت غرائب نظمه — وسمت فكاد لها اليفاع المشرف
مدح اذا روست أنشاد بذكرها — عمر وشرفها المليك الاشرف
عقل به وسمت ومن تنكيرها — أصبحت بطيب ثنائه تتعرف
وبضاعة جلبت فشتى ربحها — فيما لديه مخضب ومعرف

ملك سمن قدومه تلث الرجا ... فتح وسحب الجود جود وكف
عرم تنذر في الوغى مشبوبه ... والخيل تعدو والركائب توجف
وممدود للنصر مشهور به ... راياته بدم الفوارس ترعف
واخي ولي العهد جاد عهادنا ... وأماننا مس كل ما نتخوف
وافي الخمسة بعد نص نصه ... في عنوان حياته المستخلف
رد تمصه المهد خصه ... بلباسه الملك المظفر يوسف
قل للأُلي زعموا بأن عنادهم ... ما كان حتى كلموا فتكلفوا
لعد الى المحبوب كل مكلف ... فلديه منك بالرضا متعطف
أو فليثق ان لجّ في طغيانه ... بعقاب يوم ليس فيه منصف
هذا ملاذ الخائفين وهذه ... عين الحياة فمن أحب فيعرف
هذا ابن سيد يعرب ومليكها ... هذا الجواد السيد المتغطرف

الى آخر هذه القصيدة الفريدة .

ابن عقبه

الحسن علي بن عقبه الزبادي الخولاني من أهل الهجرين بحضرموت وفد الى الملك المظفر ومدحه بعدة قصائد وله منه مرتب سنوي يعتاده ثم سجن وأفرج عنه ومن قصائده الشهيرة قصيدته الفخرية التي أولها :

أصبر نفس السوء أم لم تصبري ... بيني وما تهوين يوم المحشر
اني امرؤ عف الإزار عن الخنا ... لم أغش منذ نشأت باب المنكر
والله ما صفحت كف بعنة ... كلا ولا نادمت شارب معصر
الا على كسب العلوم محبيا ... وبكاي في طلب العلا وتحسري
ما هي الا انشاء مكارم ... قصر الزمان وهمتي لم تقصر
وقست خلالي ثلاثا دونها ... يكبو الهمام المضرحي السُري
كرما تدين له العفاة وخاله ... ظهر الجواد وخاله للمنبر
فكفى بذا فخرا على كل امرىء ... يسعى على أثري ليدرك مفخري

الى آخر هذه القصيدة وكلها في الفخر . وله في الحكم قصائد أخرى ذكر بعضها المؤرخ الجندي في تاريخه .

ابو حنيفة النقيب

كان هذا الشاعر من كبار أدباء العصر الرسولي إلا أن أغلب شعره ضاع ولم يبق منه إلا نتف يسيرة أوردها الجندي في معرض كلامه عن السلطان عبد الوحش بن راشد صاحب حضرموت ويقول إن له ديوان شعر أغلبه في المدائح، من ذلك قوله في مدح السلطان المذكور :

أنا أشهد شهادة حق ... أن ابن راشد من احدى المعجزات
هيكل الملك حرز المملكة ... فارس الخيل معدوم الصفات
نعمت عبس وعاده ومن ... أتعبه العطايا والهبات
أنت قولك خذوا والغير ... هاتوا وأين قول خذوا من هاتوا
ألف مولاي مني اسمع مديحي لك ... على رغم آناف العداة
بل لسان العلى والمجد انطق ... بأفعالك المستحسنات

وله قصيدة في تفضيل الشحر على عدن .

عنفوني وقالوا أطلت التغرب ... وأوحشت الوطن
وتبدلت عن صبيرة صنعت ... واعتضت الاشحار من عدن
ويسمعون الصرخة ناسيت ... حقات واخوان الحسن
والقصور التي تبدر منها ... الخنود التي صيغت فتن
قلت قد غاب عنكم أمر ما ... يفطنه غير أرباب الفطن
ورضيت ابن راشد عبد الر ... حمن عن كل من هو في السنن
من حباني وأدناني وقرب ... مكاني ولي ما ظن ظن
اصطفاني وأطلعني على ... مضمون سره والعلن
ان تولت بعد الله في الخلق ... غيره أكن عابد وثن

وشعر من هذا القبيل في مدح السلطان ابن راشد .

الجحدري

علوان بن عبد الله بن سعيد الجحدري كان قتلا من أقيال اليمن وكان كريما شجاعا ملك ناحية عظيمة من شرق اليمن وهي حجر ونواحيها واستولى على حصن العروسين وحارب ملوك الدولة الايوبيه عند وصولهم الى اليمن وكان السلطان نور الدين عمر بن علي الرسولي في مدته قد حط عليه عدة محاط ومن قصيدة له في التأليب على السلطان نور الدين :

من تاب عن حرب نور الدين من جزع ... فانني عنه ما عمرت لم أتب

وراسل السلطان الكامل ملك مصر وسأل منه الاعانه في حرب المنصور فأعانه بأموال جمة ولم يزل المنصور يتلطف اليه ويبذل له الاموال حتى اتى به أسيرا فحبسه في حصن حب فلما صار في السجن تضرع الى الله حتى فك من سجنه واشتهر بين قومه بالكرم والشهامة . توفي سنة ٦٦٠ والشيخ علوان أحد فرسان الشعراء وفحولهم وله عدة قصائد جيدة أوردها الجندي والخزرجي في تاريخهما منها قصيدة يقول فيها :

والله لا استوطنت أرضا تربها ... مسك إذا حظي بها مهضوم
وعلام أوطنها وعرضي وافر ... والرزق من أفق السما مقسوم
لا آمن الايام وهي معاره ... وكذا الليالي السود وهي هموم
واذا الليالي أخلفتني بالذي ... فوق التراب فحسبي القوم

ومن شعره قوله :

إذا كان قول الحق والحق قوله ... بمحكمه والملك في آية الملك
معز لمن شا والمذل لمن يشا ... فكيف اعتراضي قوله الحق بالشرك
ونفسك فاتركها عن الهم والاذى ... فراحتك العظمى لك الله في الترك
فما الامر الا للذي صير الورى ... وتسييرهم في لجة البحر والفلك
وموجدهم من غير وجدان سابق ... ومفنيهمو بعد التكاثر بالهلك
ولا تشك ما لاقيت من غير منصف ... الى مثله لكن الى منصف تشكي

ومن شعره قصيدة بعثها الى الامير أسد الدين :

سلام على الدار التي في عراصها　　معاهد قوم لا يذم لهم عهد

أناخوا علينا نازلين وفيهم　　طوال القنا والمشرفيه والجرد

ليوث شرى خاضوا الرمال فذللوا　　مفاوزها فارتاع من خوفهم نجد

رموا مطلع الشمس احتسابا لأنفس　　أمانيها موت على العسر أو حمد

الى أن ترى البرق اليماني لامعا　　يدملوه العز التي ما لها ند

فزموا له بزل الركاب على الوجى　　وقادوا اليه الخيل من فوقها السرد

يقودهم الملك الذي في يمينه　　عوارب منهن المنية والرفد

تحف به القسوم الذين سيوفهم　　عقائق حمر لا يلائمها الغمد

رأوا موردا عذبا فلما دنوا له　　وقد أسرعوا فلن المقادر لا ورد

وجاش عليهم للمظفر عارض　　له البيض برق والطبول به رعد

همام أبى أن يسلم الملك فانبرى　　وحوليه أرباب الزعامه والجند

يسوقهم سوق السحاب يحثها　　نسيم الصبا حتى ألمّ بنا الوفد

أكارم كانوا لي عدوّاً فأصبحوا　　ينادون يا علوان هل ذهب الحقد

فقلت لهم في فرع تيما فأنزلوا　　لأمر حبا هذا السموءل والفرد

مددت بهم ظل «العروسين» دانيا　　بسطت به أيدي الرجاء التي مدوا

فشكراً لمن أدنى ركاب محمد　　اليّ وأهدى لي الملك السعد

وأصبح أرباب الممالك حولنا　　وما راعني منها الوعيد ولا الوعد

ملوك دنا بعض لبعض فأصبحت　　كتائب عزمي وهي سهم مسد

وأسد إلى أسد تدانت قصدها　　على حنق ما سنها الاسد الورد

فمن لفخار العرب مثلي ومن لها　　كمثل مقامي في المكارم ان عدوا

فحسبي أني الحر من آل يعرب　　وأني لمن نأوي الى كهفي عبد

ومن شعره في آخر عمره يعاتب نفسه :

وقد كان ظني ألغي اللهو انما　　يكونان في عصر الشباب الغرانق

فلما أدنى الشيب وانقرض الصبا نظـرت وداك الغـي غير مفارق
فقال بسى لكس رأيتك ربمـا تكون بإحـدى الحالتين موافقى
فقلـت له لا مرحبـا بك بعدها وإنـك مسي طالق وابن طـالق
فقال سمعنا ما حلفت به لنـا وكم مثلـه قد قلتـه غير صادق
فقلت : أمن بعد الطلاق تعدل لي وأي طـلاق للنسـاء الطـوالق
فقلت له لي منك جار يجيرنـي فقال ومن دا قلت دو العرش خالقي
فولى له منـي صجيـج فقلت لا تصيح وبادر نحـو كل منافـق

ابن دعاس

الفقيه سراج الدين أبو بكر بن عمر بن دعّاس من العلماء الشعراء برع في فقه المذهب الحنفي ونال مكانة عالية عند الملك المظفر وبنى مدرسة في مدينة زبيد لأتباع مذهب أبي حنيفة وكان من جلساء المظفر ومستشاريه وكان يفضله على الشاعر ابن حمير ومن الادباء في زبيد من ينسبه الى سرقة الشعر ولما دخل المظفر الى زبيد بعد رجوعه من الحج مدحه الشاعر ابن دعاس بقصيدة قال فيها :

هاك دراً منظما لم أغر فيه على مصحف ولا ديوان

فقال المظفر نهياك عن الدواوين فتعديت الى المصحف .. وفي آخر عمره حدث منه ادلال على السلطان المظفر فأقصاه عن مجلسه وتوفي مهجورا في زبيد سنة ٦٦٧ .

وله شعر كثير . وقد قصده الادباء بالمدائح الكثيرة فقال الشاعر ابن هيمل في قصيدة يمدحه :

يا أبا بكر بن دعاس أنت البـدر ضـوءاً فلـم كتبـت السـراجا
فعسـاهم يعنـون ما ذكـر الله تعـالى سـراجه الوهاجا
أنت عـذب حلو المـذاق فإن قوسيـت كنـت ملحاً أجاجا
قـد وردناك خضـرما فنبذنا الدلو والعقو والرشا والعاجا

ومن شعر ابن دعاس قصيدة يمدح بها الملك المظفر ويهنئه بالملك وانتصاره على ابن عمه الامير فخر الدين :

ان غاب نور الملك عن أفق العلا … فانظر ضياء الشمس قد ملأ الملا
أو كان جفن الدهر أمسى أرمدا … فاليوم أصبح بالمظفر أكحلا
لا تجزع الدنيا لفقد مليكها … رزئت برضوى واستعاضت يذبلا
ماكان رزء الملك إلا غيهبا … عم الورى وافاه صبح منجلي
بالملك عاد الكسر جبرا وانثنى … جيد العلا حالٍ وكان معطلا
هي دولة غرا وهذا مالك … أضحى الزمان به أغر محجلا
لم ترض غيرك يا أبا عمر لها … فاستجلها ان العرائس تجتلى
ما زلت معترفا بنعمة ربها … متضرعا لقدومها متبتلا
أو ماتراها في زبيد تزدهي … وتميس في حلل المفاخر والحلا
أمهرتها وافي الصداق فما بها … كفؤ سواك ولا تريد تبدلا
جاءتك طائعة ولم تهزز لها … رمحاً ولم تشهر عليها منصلا
قل للذي رام التملك جاهلا … وسعى فضل عن الطريق مضللا
ما أنت والملك الذي لا سره … باد عليك ولست فيه مؤهلا
ارجع الى كأس الطلا ودع العلا … للممدين السيف في هام الطلا
ولصاحب الجيش الذي سد الفضا … وعلا بحد العزم ناصية الفلا
وأعاد ريحك حين هبت آزيبا … نكبا بريح منه هبت شمالا
أولى الورى بالملك والده الذي … ما انفك في سبب المفاخر أولا
هي دولتي وأنا الذي أملتها … والله يعطي سؤله من أملا

العنسي :

هذا الأديب يسميه الخزرجي شائق الدين يوسف بن محمد العنسي ولم يترجم له في كتابه وانما أورد له قصائد جيدة في مناسبات تاريخية ولا شك أنه

من فحول الشعراء ويبدو لي أنه كان أحد رجال الدولة في عصر الأشرف والمؤيد ومن غرر قصائده مديحه في الملك المؤيد يهنئه بتولي العرش :

القوس موترة في كف باريها ... فليعلم الناس قاصيها ودانيها
وليلبس الكل منهم درع مسكنة ... كي يصبحوا في أمان من مراميها
وكل نعمة قوم من ندى ملك ... البغي سالبها والبذل كاسيها
يهنى المؤيد بل يهنى خلافته ... اني أهنيه منها ما أهنيها
خليفة الله من بعد الخليفة يا ... ملك الملوك جميعا لا أحاشيها
ان الخلافة ما قرت ولا هدأت ... حتى رمت نفسها في كف حاميها
أضحت محجبة الايام مذ ومضت ... في كف داوودها غر لياليها

وله قصيدة يهنىء الملك المؤيد بالعيد ويذكره بانتصاره على بعض أعدائه:

الملك ليس ينام منه عيون ... حتى يسيل من الدماء عيون
لولا أذانك المصون من العدى ... ما بات وجه الدهر وهو مصون
ضمنت لك الملك السيوف وكل ما ... ضمن السيوف فانه مضمون
وافته بكتائب أعلامها ... النصر والتأييد والتمكين
من كل أرعن مكفهر اصبحت ... منه سهول الارض وهي حزون
لو شئت تورد بعضه جيحون ما ... أرواه جيحون ولا سيحون
كم نقع ليل قد دحا من ركضه ... مجلاه سرد دلاصه الموضون
ضاقت لكثرته البسيطة كلها ... فمقامها في الشرق أين يكون
فدع الحصون بلاقعاً من أهلها ... فلقد أصلتهم عليك حصون
ملوا السكون بها وظني أنهم ... قد ملهم أيضا هناك سكون
فاطحنهم طحن الردى بكتائب ... هي للطغاة جميعهم طاحون
فالارض ارثك كلها من تبع ... فاعقل حديثي فالحديث شجون
عمدان قصركم القديم وقصركم ... صرواح كان وقصركم بينون
أظهرت بالجبس المرمر كلما ... أخفت ظهور منكم وبطون

الاحـــوم

هو الشاعر الكبير أبو عبد الله محمد بن مصعب عرف بالاحوم ، كان شاعرا فصيحا حسن الشعر جيد السبك وهو من شعراء الدولة الرسولية في عهد المظفر وربما أدرك زمن المؤيد ، ولم أقف على تاريخ وفاته ، ومن شعره الجيد :

أراك تعـرض عـن ذي الاراك ⠀⠀ وسـم سجـــون لقلبـــي أراك
وعـن طلـل كـان قلبـي بـه ⠀⠀ أسـير هـوى ما له من فكاك
أما شـاقك اليـوم ما شـاقني ⠀⠀ سلـى ولا ما عنـاني عنـاك
ولا ما شـجاني غـــداة اللوى ⠀⠀ بيلـى وأسـراب ليلـى شجاك

ومنها في المدح :

أبا أحمـد أنت أعلـى الـورى ⠀⠀ وأنى سنـا فرعهـم من سناك
فـلا نصـــر الله الا ذويـك ⠀⠀ ولا خـذل الله إلا عــداك
لك المأثـرات صنعـا إلـيّ ⠀⠀ نعم ربمـا زاد عـن ذا عطـاك
دنانـير حـدت بهـا من يديك ⠀⠀ وما ثم الا القـوافي جـزاك
وانت امرؤ لم تخيـب رجائـي ⠀⠀ فـلا خيـب الله يومـا رجـاك

ومن قصيدة له أخرى في مدح أمراء حلي :

سل البرق اليماني الـذي لمعـا ⠀⠀ عن صوب ذاك السحاب الجون ما صنعا
هل جاد أخدار ليلى باللوى وسمى ⠀⠀ للعامريه مصـطافا ومرتبعـــا
وهل سحبن ذيولا من سـحائبه ⠀⠀ بجدبه وسفـى الواديين معـــا
أمسى على البعد يطويني وينشرني ⠀⠀ حتى تقطعـن احشائي به قطعـا
وبات يقدح في قلبـي وفي كبدي ⠀⠀ نارا فما هجعت عيني ولا هجعـا
لي بالحمـى شجن شطت منازله ⠀⠀ عن ناظري فسقى الله الحمى ورعا
يعطي الوصال قليـلا ثم يمنعـه ⠀⠀ ألا رعـى الله من أعطى ومن منع
لقد ولعـت به والدار دانيـــة ⠀⠀ فعندما شط عنـي زادني ولعـا

أشكو الى الله أن الرجع مارجعت   أيامه و الصبى العذرى ما رجعــا
وان نفســي لم تمسح وقد سمعت   ما تستهيه وبعض الناس قد قنعا
مروعي بنـــو الاحباب معتمـــدا   مهلا فقد صنع البين الذي صنعا

ومن شعره أيضا هذه القصيدة :

حنين القلاص الهيــم دون حنيني   وفوق جنـــون العامرى جنـــوني
ولما سدت فوق الغصـــون حمايم   بعثـــن من الاشواق كل دفـــين
وذكرتني أيـام صـــفـ ومربـــع   بحزوى ودار الحـــي غير شطون
فبت كأني فوق أنيــاب صـــيعم   أقلب والدمع المعـــين معينـــي
وناديت خلف الرائحـــين بزينب   نشـــدتكم يا رائحـــي خــذوني
ولما رأيـــت الارجبيـــة واللـــوى   شـــمالي وبانات العقيق يميـنـــي
تبادرن في تلــك الطلول مدامعي   على ذكـــر أيـام مضـــت وسنين
وقفت على الوادي الشآمي وقفة   وقوف قريـــح الناظريـــن حزين
وأبـــدت بالوادي اليمانـــي دمنة   واذكر أحبـــابي كمـــا ذكـــروني
وأمدح من علك فتى لايضيق بي   فنـــاه ولا يلـــوي لديه ديونـــي
وما أنا الا كلمـــا زرت يوســـفاً   منيـــب بحبل للسماح متـــين
أغـــر عميســـي كـــأن جبينـــه   تفتح من شمـس الضحـــى بجبين
أمين عـــلى أحســـانه وجـــواره   وليـــس على أمـــواله بأمـــين

وشعر الاحوم كله جيد وفيه من الصور والتشبيه ما لايجاريه شعر آخر .

ابن سحبان

أبو محمد منصور بن عيسى بن سحبان شاعر بليغ وقــد اشتهر بين أدباء عصره ومدح المؤيد الرسولي وسائر أمراء عصره ويصفه الخزرجي بأنه كان مداحا هجاء وعرف بقبح لسانه فكان أكثر الذين مدحهم عاد فهجاهم ومن جمعه مـــن مدحهم وهجاهم الملك المؤيد والامام محمد بن المطهر وموسى بن عيسى الحرامي

أحد أمراء علي بن يعقوب ومن قصيدته في هجاء المذكور قوله :

اليك تحدى المطايا يا أبا عيسى | عجبا ووسحا وتهجيرا وتغليسا
حواملا لك مني كل مخزيه | تزيد وجهك تقتيرا وتعبيسا
يا أسمر القرن نامن دون نائله | نوال كميه ما يمك محبوسا
أوصحت لي طرق الهجو التي درست | وكان منهاجها من قبل مطموسا
كم سار فيك الجواري المنشآت بما | يغادر الشرف العلوي مطموسا
وكم غشتك بنات النعش من كلمي | لما يصم حداه العيش والعيسا
من كل شاردة المعنى اذا رويت | كانت على وجهك الملعون تحريسا
تنسي خروج المواضي وهي مرهفة | وجرحها قط لا تنسى ولا بوسي
والله لا طاب لي حلي ومسكنها | مادام ربعك مأهولا ومأنوسا
ولا صفى يا أبا داود مشربها | حتى أراك على الحدباء معروسا
والجل في رأس سود وهي باكية | ثكلى تلطم خديها على موسى
فما على أخت ابليس منقصة | اذا بكت بغزير الدمع ابليسا
وانما أنتما من حيث طبعكما | جعلتما لكما نفس الحراميسا
جفوتني لا وقاك الله كاينة | وما جفوت المجانيث المحاريسا
وقمت تحبس حظي منك مجتهدا | لا زال حظك عند الله محبوسا
وجاءني حظك المنحوس في حرض | بالكف لاكف عنك الضر والبوسا
أما علمت بأن الله خولني | جاها ومالا ومركوبا وملبوسا
أفنيت في هجوك الاقلام لا ظفرت | يمنى يديك وأفنيت القراطيسا

والقصيدة كلها من هذا النوع هجو مقذع • ثم عاد فمدح هذا الامير واعتذر اليه في قصيدة طويلة يقول فيها :

الصفح منك ومني الجهل والزلل | والحلم منك ومني الطيش والخلل
فان أسأت فمثلي من أسا وهفا | وان عفوت فمنك العفو مبتذل
فلست أول من زلت به قدم | ولست أول من يعصى فيحتمل

لا تستبيح بكلام الباغضين دمي	فقد أذاب فؤادي الخوف والوجل
والله نشهد يا ابن الشم من مصر	ما قلت أكثر ما قالوا وما نقلوا
واما ناقص المقدار أولع بي	وناقص القدر بالاضرار مشتغل
هب انني يا أبا داود جئت التي	عظيمة ضاق منها السهل والجبل
وجئت معتذرا منها ومبتهلا	أليس تقبل جاني جاء يبتهل
جد بالتغطي الى من لا شفيع له	الى تعطفك الا الصمت والخجل
واعطف علي بمن سواك من علق	ومن أليه الورى تحفى وتنتعل

والقصيدة طويلة أوردها الخزرجي في طبقاته .

ثم تطرق شعره الى هجو الامام محمد بن المطهر وتسفيه مذهبه وانتشرت قصائده في ذلك حتى أدى به الامر أن يصبح صريع لسانه مقتول سنة ٧٢٥ . وهذه القصائد التي قتلته يمكن الرجوع اليها في كتاب طراز أعلام الزمن للخزرجي فلا حاجة الى التطويل بنقلها هنا .

ابن زنقل

والآن الى شاعر فحل آخر من شعراء العصر الرسولي هو الشاعر أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن زنقل الذي يتميز شعره بسهولة الالفاظ وخفة الاوزان وقد اتصل بالملك المجاهد ونال منه حظوة كبيرة حتى إن المجاهد كان يغار اذا مدح أحدا غيره ويغضب عليه بسبب ذلك . وكان شاعرا فصيحا له معرفة بفنون الادب وأيام العرب وقد برع خصوصا في شعر الموشحات والمكسرات مع اجادة تامة في نظم الشعر الفصيح ومن قصائده الجيدة قوله في مدح المجاهد:

أعد من لعوب وتلك الملاعب	وعن عروب المنحنى والاعارب
حديثا وصرح بذكر القطين	وعرض بهنداته والزيانب
فتلك الجآذر بيض المحاجر	سود الغدائر زج الحواجب
ثقال الروادف لدن المعاطف	خضر المطارف خمص المضارب

وأحلى الحديث أحاديثهن   فزد لا قضى الله منها مآرب
فهن الصوادق ان أوعدنك   وان وعدنك فهن الكواذب
وهن الندامى اذا ما الدنان   لها حبب مثل نار الحباحب
سلاف اذا ماج فيها المزاج   يحبط بها المزج من كل جانب
وازعاج ركب أباريقهما   بأيدي السقاة رأيت العجائب
بظل الزمرد من كرمها   ساقط في الكاس والبر دايب
اذا الشمس صاغت جمان الحباب   على راسها هاله من كواكب
فيا ربع ما لنشاط الربيع   شقائقه الحمر خضر الذوائب
وما بال نواره ضاحك   وعهدي به أمس باكي السحايب
وقد نسج الجو في جنبه   مطارفه الدكن نسج السبايب
وبه خجل الورد من شبهه   بأيدي الجساه خدود الكواعب
ويا صاحب اللهو هات الهزار   أؤمه على مسر اللهو خاطب
وهات ابنة الكرم في مذهبي   نرى العقل ما مر بالعقل ذاهب
وساق يسل ظبا مقلتيه   كسل المجاهد بيض القواضب

ثم يدخل في مديح مليكه ، ويكثر في شعر ابن زنقل وصف الربيع والازهار والبساتين فهو شاعر الربيع والحضرة بحق في العصر الرسولي .

وقبل أن نغادر شاعرنا الى شاعر آخر نقف قليلا عند قصيدته العجيبة هذه :

شاقتك بكاظمة عرب   برماحهم تحمى عرب
أم عين مهما صدع قتل   ضربت لهم بقبا قبب
غنج دعج سزج دمج   نفح مرتج بها حقب ؟
أنس شمس مس نعس   لعس سحمها لعب
ردح صبح سمح وضح   صدح بمعارفها خطب
بانوا فالقلب بهم اسر   أسف شغف كلف كئب
سكر تحدى بهم ابل   دمل ذلل نزل صهب

فعليك بها أن عصتك أو ... ان نابك من دهرك نوب
واقصد ملكاً يهمي سدراً ... كفاه كما تهمي السحب
ما قول الشعر وقائل ذلك ... مترعون ولا عجب
(فطويل) الشعر و (كامله) ... و (مديد) له (والمقتضب)
وكمثل (بسيط) و (منسرح) ... معه (رمل) (رجز) (خبب)
وشوارد تلك إذاه دعا ... رقصن وأتته لها طرب
ما فارسها إلاه أذا ... لفوارسها خففت عذب
(فمرقشه) و (مهلهله) ... وفرزدقه فهو أدب

الى آخر هذه القصيدة العجيبة الفريدة .

ابن العفيف

وهو غير الاول السابق ذكره وهذا ترجم له السخاوي وابن أبي الرجال والخزرجي ويقول الاخير في ترجمته أبو عبد الله محمد بن الحسن بن العفيف أوحد شعراء العصر وفصحاء الدهر وكان شاعرا فصيحا بليغا حسن السبك . ويقول أيضا : الا أن فيه عجهية ويدعي أنه أفصح من المتنبي وكم بين الثرى والثريا ولكنه أشعر أهل عصره وكان شيعيا كبيرا ومن شعره :

فلست رضيت بالاسلام دينا ... وتوحيدي لرب العالمينا
وتصديقي على زيد وعمرو ... وتفضيلي أمير المؤمنينا
أقول لمن يقدمهم عليه ... خطيبا قائما في المسلمينا
صددت الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا

وله قصيدة جيدة عارض بها قصيدة المتنبي في سيف الدولة التي أولها :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ... ان قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

فقال ابن العفيف :

الله لي عوض عن مصر مافطموا ... ورفي عليه فلا فقد لما معوا
وان هموا وضعوا قدري ومنزلتي ... رجوت ان يرفع الله الذي وضعوا

وهي قصيدة طويلة جيدة .

مطهر بن محمد

من الشعراء وهو ابن الإمام محمد بن المطهر بن يحيى وقد برع في نظم الشعر وقصد الملك الافضل ومدحه بعدة قصائد وكان أكثر شعره في نظم المكسرات والموشحات ومن نظمه قصيدة في مدح الوزير عمر بن أبي القاسم بن معيبد يقول فيها :

خزام وورد وسوفر ... برقصه زمر أطياره
اذا ما الحمام شدا بينه ... أجاب الهزار بمزماره
وزهر الاقاح يحاكي الشميق ... حداد انحرق في تساره
وزهر البهار[1] له صفرة ... كلون الطار نظاره
ونرجسه شاخص كالعيون ... أعالي الغصون بأشجاره
تضاحك زهرا بأفنانه ... لباكي الغمام بأمطاره

ومن شعره قصيدة في مدح الملك الافضل يقول في أولها :

غزال أزال لام ليس يدري ... بأن محبه سوداء صدري
غزال دونه غزوات (أحد) ... وبدر دونه وقعات (بدر)
تسلك مهجتي بفتور طرف ... وحمره وجنة وباض ثغري
يهز على الكثيب قضيب بان ... ويستر شمسه بدجوح شعر
وأفسي من نسيم اصخر قلما ... فقلبي للنجا (خنسا) و (صخر)
يلومني الحسود عليه جهلا ... وعذري أنني في الحب (عذري)
وحبني الغرام عليه لما ... سباني من ملامحه بسحر
كأن على بواطره السواحي ... جراز (الافضل) الملك الهزبر

(١) البهار نبت طيب الرائحة ويقال له عين البقر .

ثم يتناول أوصاف ممدوحيه وهي قصيدة طويلة .. ومن غزلياته في مفتتح قصيدة له قوله :

ما غنت الورق على ساق ساق الا سقاني كأس الاشواق ساق
والبرق ما شق قميص الدجى الا وشق القلب مني وشاق
والريح ان هبت (يمانية) أو حب روحي قد يرى في العراق
كذا اخترق البرق مهما بدا لاقيته في مهجتي باحتراق
حملني ظامي مناط النطاق من الاسى والوجد ما لايطاق
بأمر هف الخصر دقيق الحشى مهفهف المتنين راوي التطاق
يا ماذي الرشف يا منتهى سؤلي ويا حالي مذاق العناق
عسى النوى شدت بأكوارها وأزمع القوم على الانطلاق
هل لي الى مغناك من عودة أو لا تلاقي غير يوم التلاق
هب لي اذا جاذ وداعيك لي رشف ثناياك العذاب المذاق

توفي الشاعر مطهر بن محمد سنة ٧٩١ .

شعراء آخرون :

وفي أواخر العصر الرسولي نبغ جماعة من الشعراء غير من ذكرناهم سابقا وهم الشاعر محمد بن أبي بكر السراج الشهير بالحكاك وقفت له على ديوان ضخم أغلبه في شعر الموشحات والمكسرات والشاعر عبد الرحمن بن عمر المطاب المتوفى سنة ٨٦٤ هـ . والاديب رضى الدين أبو بكر بن ابراهيم الحكاك من أهل حيس وغيرهم كثير من الادباء الذين لايكاد يحصرهم البحث .

النثر الأدبي

من الصعب معرفة الاسلوب الفني لكتابة النثر في عصر بني رسول اذ لم تصلنا نصوصه ، وكل مافي الامر كتابات عدمنة تبحث في الدين والاخلاق لاترقى الى جانب الادب بأي حال من الاحوال وقد مر بنا في فصول سابقة أن العصر كان عصر انتاج تأليفي كبير حيث ترك لنا عدة مجلدات نثرية وهي ذات طابع تعليمي علمي واذا كان لابد من البحث عن تلك الكتب الادبية التي لاتتصل بالادب النثري فسنجد هناك بضعة كتب يغلب عليها طابع الجمع والتبويب ، فقد كتب في هذا العصر الاديب عمر بن علي العلوي المتوفى سنة ٧٠٢ موسوعته الادبية المسماة (منتخب الفنون) في سبعة مجلدات ومن المؤسف أنه لم يصلنا من هذه الموسوعة سوى مجلد واحد . ولا أعرف غير هذا الكتاب . وأغلب الظن انه من نوع السفن التي تعنى بجمع لطائفة من عدة كتب .

وظهرت كتابة الرسائل الادبية لتتصل اتصالا وثيقا بالجانب السياسي فعرف مايسمى بديوان الانشاء يخصص له جماعة من الكتاب همهم الاول الاجابة على الرسائل الواردة الى السلطان بأسلوب انشائي بديع . ولم يصلنا من هذه الرسائل التي كان يدونها كتاب الانشاء في ذلك الوقت سوى نص رسالة واحدة أوردها القلقشندي في كتابه (صبح الاعشى) وهي على لسان الملك الاشرف بعثها الى السلطان (الظاهر برقوق) صاحب مصر في سنه ٧٩٨ . وهي هذه :

أعز الله تعالى المقام الشريف السلطاني الظاهري وزاده في البسطة والقدرة وضاعف له مواد الاستظهار والنظر وجعل الظفر مقرونا براياته أينما يممت مابينهما تميز ومحبوبا الى عساكره المنصورة حيث توجهت وفتح ببركة أيامه

كل مفض ممتنع بأمر وجير ولا زال ممثل الاوامر والمراسم رافلا في أردان العز والمكارم ممدوداً على الأمة منه ظل المراسم بمنه وكرمه •

أصدرها انه من زبدة (زبيد) المحروسة معربة عن صدق ولائه متمسكا بوثيق أسباب آلائه ناشرة طيب ثنائه مترجمة ناظمة لمنثور الكتاب الكريم (الظاهري) . الوارد على المجلس العالي (البرهاني) بتاريخ ذي الحجه عظم الله بركاتها سنة سبع وتسعين وسبعمائه أحسن الله خاتمتها فتلقيناه باليدين ووضعناه على الرأس والعين ، واستدللنا به على شريف همه وصفا مودته وتأكد أخوته، وسألنا الله تعالى أن يمتعنا ببقاء دولته القاهره ، ونشر في المشارق والمغارب أقلامه الزاهره . ففضضنا ختامه فوجدنا فيه من نشر السلم لأريج أذكاه،ومن أنوار ما مجه القلم الشريف مايخجل نوار الربيع وبهاه فانشرحت به الصدور وتزايد به السرور وقرت الاعين وكثر التهجد به لما استعذبته الالسن وامتثلنا المرسوم الشريف في تعظيم المجلس العالي ذي الجلالتين (برهان الدين ابراهيم بن عمر المحلى) ومراعاته في جميع أموره وسرعه تجهيزه على أنا نجله ونوجب حقه ولانجهله فهو عندنا كما كان في عهد الوالد المرحوم الملك (الافضل) بل أمكن وأفضل فهو لدينا المكين الامين . وجهزنا له المتجر السعيد (الظاهري) ، وبرزت مراسيمنا الى النواب بثغر (عدن) المحروس ان لايتعرض في عشور ونول) •

ثم تشرح الرسالة للملك الظاهر برقوق حالة (اليمن) السياسية فتقول :

ويوضح لعلمه الكريم ما أفاء الله علينا من النصر الذي خفقت بنوده وأسفرت سعوده وبرقت سيوفه في رقاب المارقين . واطردت في راياته المآرب فتأولها بالمبين (نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) وفتح القلاع والمصانع والاستيلاء على المرابع والمزارع واستئصالنا شأفة المارقين واسترجاع حصن (قاهر) المحروس بعد طول مكثه تحت يد العرب فكم من كمي مقتول وأسير مكبول وحصان ترك سليبا ورب حصان كثر عيه عويلها فحرسنا المعاقل وأطلقنا العقائل وأوصناهم الحسيم (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم وما النصر الا من عند الله

العزيز الحكيم) ثم تشرح الرسائل بعض المسائل السياسية الدائرة بين اليمن ومصر فلا نطول على القارىء بايرادها هنا .

وهذه الرسالة نموذج من الكتابة الانشائية التي كان يتفنن في كتابتها كتاب الانشاء في ذلك الوقت وقد وصلت الى درجة كبيرة من القدره ويقول (القلقشندي) : إن كتاب الإنشاء في اليمن يحندون طريقة كتاب مصر في رسائلهم فتبتدىء رسائلهم بلفظ أعز الله المقام العالي المولوي السلطاني الفلاني بلقب السلطنة ثم يقول أصدرها من مكان كذا ويذكر المقصد ويختم بالدعاء ونحوه ويكتبون في قطع الشامي الكامل بقلم الثلث .

وكان الاديب العبدي أحد من طور هذه الصنعة في اليمن وكانت قبله ضعيفة المستوى من الناحية الادبية . وهو واحد من فرسان هذا الشأن . وتسلم الكتابه في عهد الدولة الرسولية جماعة من أعيان الكتاب أغلبهم من الوافدين الى اليمن وهم بعض ممن ذكرناهم في أول البحث .

وكتابة الرسائل هي الاثر الوحيد الذي بقي لنا من نثر العصر الرسولي الادبي وهذا لا يعني أن الاسلوب الادبي قد تلاشى من كتابات الكتاب في ذلك العصر فأنت مثلا تقف على ما يشبه الاسلوب الفني في تلك المقدمات الرائعة التي كتبها علماء الكلام والتصوف لكتبهم ، ولعلنا سنعرض الى شيء منها عند كلامنا على الادب الصوفي في ذلك الوقت .

ابن عبد المجيد اليماني

والكاتب المبرز في صناعة النثر الادبي خلال العصر الرسولي هو الكاتب عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني . ولد في عدن على أصح الروايات سنة ٦٨٠ ونشأ بمكه فتلقى العلوم بها ثم عاد الى عدن سنه ٧٠٤ ليتسلم كتابة الانشاء للملك المؤيد وحضر الاحتفال الكبير الذي أقامه المؤيد بساحل (حفات) وبقي ابن عبد المجيد في اليمن حتى وفاة المؤيد سنه ٧٢١ واتهم ابن عبد المجيد بميله مع الثائر الملك الظاهر فصادره المجاهد ونفاه من اليمن فرحل الى مصر سنة ٧٣٠

ومنها الى الشام حيث درس في المسجد (الاموي) فن المقامات وفي الشام توفي سنة ٧٤٣ ٠

وابن عبد المجيد هو كاتب اليمن الوحيد في عصر بني رسول وقد اشتهر بين معاصريه بكتابة الرسائل الديوانية حتى استخدمه الخليفة العباسي المستكفي بالله في الكتابة الى صاحب اليمن ٠ وقد أثنى عليه كل من ترجم له فقال البرزالي في وصفه : (كان من أعيان الادباء نظما ونثرا) ٠ ويقول ابن شاكر الكتبي : (كان قادرا على النظم والنثر) ٠ ويقول ابن حجر العسقلاني (كانت له قدرة على النظم والنثر وكان يحط على القاضي الفاضل في استعماله البديع ويرجح ابن الاثير عليه) ٠ أما الوزيري فقد أطنب في الثناء عليه ووصفه بأنه (أتقن صناعة الادب في غرة شبابه وسما الى سماء البلاغة فكان نجمها الزاهر وارتقى الى أفلاك البراعة فكان نيرها الباهر) ٠

ومن نماذج نثره الادبي قوله في رسالة بعثها الى ملك اليمن على لسان الخليفة المستكفي يقول في أولها :

(أما بعد حمد لله مانح القلوب السليمة هداها ومرشد العقول الى معادها ومبتداها وموفق من اختاره الى محجة صواب لايضل سالكها ولاتظلم عند اختلاف الامور العظام مسالكها ومنهم من اصطفاه اقتفا آثار السنن النبويه والعمل بموجب القواعد الشرعية والاستظام في سلك من طوقته الخلافه عقودها وأفاض على سدته الجليلة برودها وملكته أقصى البلاد وناطت بأحكامه السديده أمور العباد وسارت تحت خوافق أعلامه الملوك الاكاسرة وسرت بأحكامه النيرة مناجح الدنيا ومصالح الآخرة وتبختر كل منبر من ذكره في ثوب من السيادة معلم وتهللت من ألقابه الشريفه أسارير كل دينار ودرهم ٠ الخ٠٠

وله رسالة أدبية طريفة جعلها على لسان طفيلي يوصي ابنه ويلقنه أسرار المهنة ونحن نثبتها هنا لطرافتها :

(هذا عهد عهده زارد بن لاقم ، لبالع بن هاجم استفتحه بأن قال : الحمد

لله مسهل أوقات اللذات وميسرها وناظم أسباب الخيرات ومكثرها ، وجاعل أسواق الأفراح قائمة على ساق ، جابرة لمن ورد اليها بأنواع الإرفاد وأجناس الارفاق ، أحمده على أن أحلنا في منازل السادات أرفع الدرجات وأحل لنا من الاطعمة الفائقة الطيبات ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة تهدينا الى المقام الرفيع ، وتخصنا بالمحل الجسيم المنيع ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رب المكارم الجسام ، ومعدن الجسارة والإقدام الجامع بين فضيلتي الطعان والطعام ، صلى الله عليه وعلى آله أهل السماحة والكرم والاكرام ،صلاة تحل قائلها في غرفات الجنان في دار السلام ، وبعد ،

فانّ صناعة التطفيل صناعة موهوبة ، وحرفة هي عند الظرفاء محبوبة لايلبس شعارها الا مقدام ، ولا يرفع خافق علمها إلا من عد في حرفته من الاعلام،ولايتلو أساطير شهامتها الا من ارتضع أفاويق الصفاقة ، ولايهتدي لمنار علائها إلا من نزع من منكبيه رداء الرقاعة والحماقة وكنت والعود غداني الاهاب ، والغصن ريان من ماء الشباب والقد يميس في حلة النشاط والقدم تدرع الارض درع الاختباط لايقام سوق وليمة الا وأنا الساعي اليها ولا ترفع أعلام نار مأدبة إلا وكنت الواقف لديها أتخذ الدروب شباكا للاصطياد وحبائل أبلغ بها لذيذ الازدراد قد جعلت المعطس حلف الهواء والقلب نزيل الاهواء فحيث عبقت روائح الأبازير من أعالي تلك القصور وتمددلت تلك الشوارع برعمران البرم والقدور ألقيت عصا المسير على الباب ، وخليت بحسن أدبي قلب البواب ، وأوسعت في وصولي ألف حيلة وجعلتها على ماعندي من حسن فنونها مخيلة فلا دعوة إلا وكنت عليهم دعوه ولا وليمة ختان الا وقد طلعت على أرجائها مثل الجان ولا سماط تأنيب إلا وكنت اليه الساعي المبيب ولا مجمع ضيافة إلا وكنت عليه أشد آفة ، ولااملاك عرس مشهود الا وانتظمت في سلك الشهود،يحسن فيّ قول القائل:

لو طبخت قدر بمطمورة	موقدها الشام وأعلى الثغور
وأنت في الصين لوافيتها	يا عالم الغيب بما في القدور

والبوم قد مال القويم الى الاعوجاج وعز بازى الشيب غراب الشعر الداج وقيد الزمن أقداما ومست الشيخوخة أقداما وصرت لحما على وضم ، بعدأن كنت نارا على علم وقد أفادتني من هذه الصناعة فنونا وتلت علي من محاسنها متون وقد أبقيت لكل مجمع بابا وفذلكت لكل مشهد حسابا وقد اقتضى حسن الرأي أن أفوض اليك أمرها ، وأودع تأمور قلبك وحسك سرها ، علمي بأنك الكيس الفطن بل الالمعي الذرب المرن لو عقدت آكلة الولائم بعُاب ولجة لأحسن بتأتيه الجميل مدخله ومخرجه . وقد شاهدت من أعمالك الصالحة ما يقال (فيــه) عند ذهابي : ما أشبه الليلة بالبارحة وقد عهدت اليك واستخرت الله في التعويل عليك فمثلك من يخطب للمناصب ويتسنم ذروة المراتب ودونك ما أنطق بـه من الوصايا وأحفظ ما يسرده لسان القلم من جميل المزايا واياك وموائد اللئـام وانزل بساحات الكرام واتخذ الشروع في الشوارع حرفة وأظهر على مشـيك صلافة وعمه وميز بعينك حسن المساطب ونقش الستور وجمال الخدم وقعود الصدور واقصد الابواب العالية والاكله المنقوشة الجالية فان ذلك على مأدبة نصبها بعض الاعيان وجمع اليها أصحابه الاخوان فالبس من ثيابك الجمبسة قشيبها وضوع بالمندل الرطب طيبها وتفن خبر صاحب الدار وأخباره وقف في صدر الشارع من الحارة ، واذا رأيت الجمع ، وقد تهادوا بالهوادي والاقدام، تهادوا فيما بينهم لذيذ الكلام ، تقدم اليهم بقلب قلـب الامور وعم بحسـن تطلعه وتضلعه داء الجمهور وقل لهم رب الدار قد استبطأكم فما الذي أبطأكم حتى اذا قاربوا صعود العتبة ولم تبق هنالك معبة تقدم رافعا لهم الستور ومعرفا بمقدار أولئك الصدور فالاضياف يعتقدون أنك غلام المضياف ورب الحلة يعتقد أنك رفيق السادة الجلة وان ولجت مجتمع ختان وقد نصبت فيه موائد الالوان وذرفنت الابواب واكفهرت وجوه الحجاب فاجعل تحت ضبيك المجمع واخـدع قلوبهم فمثلك من يخدع وقل : رفيق الاستاذ ومعينه ورجله التي يسعى بها بل يمينه فحينئذ ترفع الستور وتقدم لك أطايب القدور وان رمالك القدر على باب غفل عنــه صاحبه وسها عن غلقه حاجبـه وقد مدوا في إوانه سـماطا وجعلوا

لأوائل من يقدمه فراطا وقد تقاربت الزبادي وامتدت الايادي ورأيت السماط روضة تخالفت ألوانها وامتدت أفنانها والموائد فيما بينها أفلاك تدور بصحونها بل بروح ثابتة تشعر بسكونها فلج على عمله من الرقيب وابسط بنان الاكل وكف لسان المجيب فان قيل لك : أما أغلق الباب دونك ؟ فقل : (ما على الكرماء من حجاب) واياك والاطالة على الموائد فانها مصايد الشوارد واياك والقذرة عليها فانها امارة الحرمان لديها وان وقعت على ولمة كثيرة الطعام قليلة الازدحام فكبر اللقمه ولا تطل علكها ، ومر الفك في سرعه أن يمكها ، فانك لا تدري ما تحدث الليالي والايام خشية أن يعثر عليك بعض الاقوام فتكتسي حلة الخجل وتظهر على وجهك صفرة الوجل واجعل من آدابك تطلعك الى أثوابك ولا ترفع لمستجل وجها وجيها وقل لمن يحادثك : ايه ، ولا تمل ايها وجاوب بنعم فانها معينة على اللقم واجعل لكل ما يناسبه من الصلة ومل على أهل الولائم والمآدب ميلفواسأل عمن ورث من آبائه مالا وقد جمعه بوعثاء السفر وعنائه مورثة حراما وحلالا أيعقد مقاما ؟ أم يبلغ من دنياه بالقصف مراما ؟ فان قيل : فلان الفلاني رب هذه المثابة وصاحب الدعوة المجابة فكن ثالثة الاثافي في لبابه وانتظم في سلك عشرائه وأترابه،وتفقد الاسواق خصوصا اللحامين ومواطن الطبيخ ومساطب المطربين ومجمع القراء ومعاهد محافل الوعاظ وكل بقعة هي مظنة فرح يعود عليك نفعه وكن أول داخل وآخر خارج ومل الى الزوايا فهي أجمل مالهذه الحرفة من المزايا وتقل ركابك في كل يوم فتارة في سوق اللحم وتارة في سوق الثوم وعبر الحنية وقصر اللحية وابرز كل يوم في لباس فهو أكثر للالتباس وجدد البهت حتى تتخذه عصاك وتجعله ذريعة لمن عصاك واتقن الفنون التي تحتاج اليها من غناء ونجامة وطب وشهامة وتاريخ وأدب وكرم أصل وحسب وحالتي التوقيت والتنزيل فاجعلهما دأبك فاذا عرفوك وحضر الجمع وكشفوك فطرز كل محفل بمحاسن أقوالك وكل جيد كل مأدبة بجواهر أعمالك واعلم أنها صنعة دثرت معالمها وقل عالمها ولو لم أر على وجهك مخائل بشرها وعلى أعطاف أردانك روائح نشرها لما ألقيت اليك كتاب عهدها ولا حملت لبابك راية مجدها فتنق راية هذا العهد بساعد

مساعد وعضد في الولوج على الاسمطه معاضد ووصت الك أمر من يحلى بجواهرها المنظومة ولبس حللها الفشيبه المرقومه وبسطت لسان قلمك في رقم عهودها وأذنت لك أن تجريهم على سنن معهودها وإياك آن تعهد الا لمن متمسك خصالها وجاس واستجلى هلالها وانق أحوالها ولاية عامة وكلمة مبـرمة تامة حرس الله بك الادب واللطافة ومحابك معالم الثقافة والكثافة .

أدب الصوفيـة

كان نشوء الطرق الصوفية في اليمن محاكاة لطرق صوفية كبيرة نشأت في مصر والشام والعراق • وكان صوفية اليمن يعترفون تبعيتهم لصوفيه العراق كالصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني والشادلي وغيرهما وقد بينا مدى الصـلة الكبيرة بينهما في كتابنا (الصوفية والفقهاء) والذي يهمنا هنا هو الاشارة الى الجانب الفني من التصوف اليمني وما له صله وثيقة بالادب فقد عرف الصوفية الادب بشكل واسع وطبقوه عمليا في السماع والرقص حيث كان السماع هو الميدان العملي لتلحين الشعر والقصائد المطولة وقد أقامه صوفية اليمن مـنذ القرن السادس وما بعده وشجعت الدولة الرسولية هذا الفن بمشاركة ملوكها فيه ومنهم من وقف ضد منتقديه من الفقهاء وقد ذكر ابن المجـاور في أواخـر القرن السادس انه يخرج كل ليلة من أبواب مدينه زبيد نحو سبعمائة راقص من الصوفية يحيون الليالي بالاناشيد والاغاني في ذكر الله وتبجيله وربما شاركت النساء في احدى هذه الحفلات بالرقص والغناء حتى أنكر عليهن هذه الناحيـة جماعة من العلماء ومع ذلك فالصوفية نادرا ما يلتفتون الى منتقديهم وكانـوا يعلنون السماع أمام الناس ومنهم من أقامه في المسجد حتى قال الشاعر ابـن المقري في الرد عليهم :

برغم سنة خـير العجم والعـرب   أضحت مساجدها للهو واللعب
ماكان صـلى عليـه الله يأمرنـا   بضرب دف ولا زمـر ولا قصب
بل سد عن مزمر الراعي مسامعه   صونا لهـا ولنا عن هذه اللعب

وهي قصيدة شهيرة في نقد الصوفيه •

وكان الصوفية يركزون على فهم المعاني الواردة في السماع ويقول أحد كبارهم : (من لم يعرف المعاني فالسماع عليه حرام) ومنهم من يتواجد حال السماع ويغيب عن حواسه وكان الشيخ عمر المس يتواجد حتى أنه قذف بنفسه مرة من سطح البيت لشدة الوجد ولم يصبه أذى الى غير ذلك من أخبار تدل على تذوق صوفية اليمن للسماع .

وليست بأيدينا نصوص شعرية لما كان يغنى أثناء السماع وكل ما ظفرت به بيتين أوردهما الشرجي في طبقاته وهما قول القائل :

قدمتـــم عصـــال البــــان والصـــال والاثــــل
حلتـــم ربـــا نعمــــان واجتمـــع الشــــمل

ولاشك أن كثيرا من قصائد ابن علوان وابن أبي الغيث كانت تنشد أثناء السماع مع قصائد ابن الفارض والتلمساني وابن عربي وغيرهم من صوفية العالم الإسلامي ، إلا أن هذا لا يعززه مصدر تاريخي ، ومن يتامل مؤلف المزجاجي المتوفى سنة ٨٢٩ في سماع الصوفية يجد أن الصوفية قد أقاموا السماع بشكل واسع . وكان الصوفي محمد بن عيسى الزيلعي المتوفى سنة ٧٨٧ هـ يقيم السماع في كل قرية من قرى وادي سردد ومور وكذلك الفقيه محمد بن أبي بكر الحكمي صاحب عواجه المتوفى سنة ٦١٧ هـ وصاحبه محمد بن الحسين البجلي المتوفى سنة ٦٢١ هـ والشيخ علي الاهدل المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وأحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٥٥ هـ . يقول المزجاجي : (وكلهم كانوا يعملون السماع في نواحي اليمن وذراريهم وتابعوهم على طريقتهم الى الآن) . وقد شهد مسجد ابن عبد الملك في (زبيد) أغلب تلك الحفلات السماعية التي كانت تقام في هذه المدينة وكان الشيخ يحيى القاهري يحضر السماع على الرغم من كبر سنه ويتواجد ويرقص وكان عارفا بقواعد العربية فاذا حصل من المنشد مايخالف قواعد الاعراب يقوم من موضعه ويأتي الى الحادي ويصلح له ذلك .

وكان الشيخ اسماعيل بن أبي بكر الجبرتي المتوفى سنة ٨٠٦ من أكثر

القائمين على أمر السماع واحيائه ، وقد بلغ الامر بأحد تلامذته أن تدركه الوفاة أثناء السماع نتيجه تأثره البالغ ، فقد ذكر المزجاجي أنه لما وصل الحادي الى قول :

يا مؤنسي في وحدتي   يا شاهدي يا ناظري

ادرك الشيخ محمد بن شافع وجد كبير ولم يزل يتحرك والحادي يكرر له القصيدة حتى لوى بديه على رقبة الحادي ونزل الى الارض قليلا وجلس وغطى وجهه بثوبه فحركوه فوجدوه قد مات .

واتفق للشيخ اسماعيل الجبرتي أنه أقام السماع بزبيد شهرين وبضعة أيام متواصلة وربما أقام السماع في بعض البيوت مع فقرائه لمناسبات عائلية ودينية . وهكذا أقبل الصوفية على السماع اقبالا تاما حتى فيهم الذوق الفني والتأثر به .

وقبل شيوع القهوة والقات بين صوفية اليمن كان بعض الصوفية يتعاطون الحشيش بخفيه فاذا علم الشيخ بها أنكرها عليهم[1] وكان الصوفي محمد بن عيسى الهتاري المتوفى سنه ٧٨٨ ينكر على من يدخل الحشيش الى زاويته من الباعه والمتسببين[1] ولما عرف القات في اليمن احتضنه الصوفية وحل محل الحشيشة فلا نكاد يذكر الحشيش بينهم الا نادرا . وقد استعانوا بالقات والقهوه كوسائل مساعدة على النشاط في القيام بعباداتهم ومنهم من أطنب في مدح القهوة والقات فقال شاعرهم يمدح القهوة :

قهوة البن يا أهل الغرام   ساعدتني على طرد المنام
وأعانتني بعون الله على   طاعة الله والناس نيام
(قافها) القوة و (الهاء) الهدى   (واوها) الود و (الهاء) الهيام
لا تلوموني على شربي لها   انها شرب لسادات كرام

ولهم فيها شعر كثير ليس من موضوعنا درسه لانه من أدب ما بعد العصر الرسولي حيث لم يشتهر أمر القهوة والقات الا في القرن العاشر ومابعده .

(١) الاهدل تحفه الزمن ج٢ ص ٧١ .

وللصوفية في اليمن وغيرها علوم ومواجيد وأذواق لايتسع المجال لبحثها هنا وقد كونوا لأنفسهم سلطة روحية وفكرية عظيمة تعتمد أساسا على الانغماس الكلي في عبادة الله ومجاهدة النفوس واشتهرت بينهم كتب خاصة يتداولونها في القراءة والاذكار وكان كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي من أشهر الكتب الصوفية عندهم ولاقى عناية كبيرة منهم . وقد دخل الى اليمن في حياة مصنفه حجة الاسلام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ واختصره في ذلك الوقت الفقيه يحيى ابن أبي الخير العمراني المتوفى سنة ٥٥٨ ثم الفقيه محمد بن سعيد القريضي المتوفى سنة ٥٧٦ وغيرهما ثم أقبل عليه الصوفية اقبالا منقطع النظير .

وترك صوفية اليمن في ذلك الوقت بضعة كتب فنية تعتمد في علومها على فقر من الكلام المسجع في الحكم والوصايا وتناقل الناس كتاب الشيخ ابن أبي الغيث في هذا السبيل واعتمدوا عليه في سلوكهم الصوفي ومن قبله وضع الصوفي الكبير محمد بن الحسين البجلي المتوفى سنة ٦٢١ كتابه اللباب ، وهو في نفس موضوع كتاب ابن أبي الغيث ، ثم تلاهما الفقيه محمد بن عمر بن حشيبر فوضع كتابا في التصوف على نفس الاسلوب . ومع ذلك فان المؤرخ الحسين ابن عبد الرحمن الاهدل ينكر على هذه الكتب بضعة جمل توحي بميل أصحابها الى فكرة الحلاج وابن عربي ، وكان الناس يتداولون هذه الكتب بشكل عام وعندما ظهرت مؤلفات ابن علوان الوعظية مال الناس اليها حتى كادت أن تنسى كتب السابقين ، ثم جاء الصوفي عبد الله بن سعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ ووضع عدة كتب صوفية جيدة عظمت شهرتها على سائر كتب التصوف في اليمن ولاقت عناية كبرى في البلاد وخارجها ، وسنفرد هذين العملين بالبحث فيما بعد . ووضع الصوفي أبو العباس أحمد بن عمر الزيلعي المتوفى سنة ٧٠٤ كتابه في التصوف بعنوان (ثمرة الحقيقة ومرشد السالكين الى أوضح طريقة) وهو من الكتب الهامة في هذا الباب وقد أسس زاوية شهيرة في قرية المحمول . وكان من سلوكه في التصوف أنه لايشتغل بشيء من أمور الدنيا ولا يتكسب ولا يطلب

من أحد سيئا واذا علم بأحـــد من الناس يطلب شيئ طرده وعرف بين أتبـــاعه بكثرة اقامة اســماع •

ومن الكتب الصوفية الشهيره التي وضعها صوفية اليمن في العصر (كتاب اللطايف) للصوفي طلحة بن عيسى الهتار المتوفي سنة ٧٨٠ هـ • وكان من ذوي الوجاهه عند الناس ، وكان السلطان يقدر جانبه حتى ان الخارجين على الدولة اذا احتموا به لايستطيع السلطان أن يصل اليهم بأي حال من الاحوال •

واشتهرت في العصر الرســـولي أسرة علمية جمعت بين جانب التصوف والاخلاق منذ جدهم الاول الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن عمر الحبيشــي المتوفى سنة ٧٨٠ الذي وضع عدة كتب في التصوف منها كتابه (الاعتبار لذوي الابصار) جمع فيه بين النثر والنظم بحيث ضمنه قصيده في مائتي ست في كل بيت ثلاثة أشطر ثم ألحق بكل بيت كلاما مسجوعا موافقا لما في الابيات من المعنى وله كتاب (التوشيح والشاب والذكر والرحمات) وغيره من الكتب • وكان بالرغم من اشتغاله بالتأليف والتدريس وتولي القضاء لايترك قيام الليـــل منذ شبابه الى أن أدركته الوفاه • وكان يصلي بأكثر القرآن قائما وهو في سن كبيره • توفي رحمه الله سنة ٧٨٠ وخلف ولدين كلاهما من العلماء المصنفين وهما الفقيه أحمد ابن عبد الرحمن الحبيشي المتوفى في حياة والده سنة ٧٦٩ وله من الكتب الصوفيه كتاب (رياضة النفوس في فضل الجوع وترك اللذات الشهية) وكتاب (تحفة الطالبين وتذكرة السالكين) والابن الثاني هو الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن عمر الحبيشي المتوفى سنه ٧٨٢ والد صاحب كتاب الاعتبـــار في التاريخ • وقد اشتهر هذا العالم بعدة كتب صوفية لعل أهمها كتاب (البركة في فضل السعي والحركة)وهو من الكتب الجيده في بابها • أما أسرة بني الاهدل فهي على الرغم من كثره متصوفيها ومؤلفاتهم في هذا الباب ، الا أن أفرادها لم يشتهروا الشهرة الواسعة الا بعد العصر الرسولي فلن نشير اليهم هنا[١] •

---

(١) ونحيل القارىء الكريم الى بحثنا المنشور بعنوان جهود بني الاهدل في خدمة العلم •

وعلى العموم فان صوفية السنن في مؤلفاتهم كانوا أصحاب مجاهدة ومواجيد وقد جمعوا في كتاباتهم بين الجانب الشعري والجانب النثري وهو الامر الذي لا تكاد نجده عند غيرهم من الفقهاء والمتكلمين وربما وجدنا من تفرد منهم بالشعر كالاديب عبد الرحيم البرعي والشيخ حاتم بن الاهدل ، الا أن هذا نادر جدا وإلا فانك تقف على كتابات علوان فتجد ديوانه الحافل بالشعر الجيد بجانب كتاباته النثرية التي يمزج فيها أحيانا بين الشعر والكلام المسجوع وكذلك الحال عند اليافعي وهو أقل الصوفية موهبة شعرية .

ابن علوان :

فأما ابن علوان فهو الشيخ أحمد بن علوان إمام الصوفية وفيلسوفهم في العصر الرسولي ، نشأ في أحضان الرئاسة والعلم وكان والده من خدمة السلطان ومن كتابه ، وكاد ابنه أن يصبح مثله ، إلا أنه تحول الى طريق التصوف تحت تأثير خارق[1] ولزم الخلوة والعبادة وألقى الله له القبول والمحبة في قلوب الناس وتبعه خلق كثير وكانت له كرامات ومكاشفات واشتهر بين أتباعه بحسن الوعظ وتصريف القلوب اليه وكان يسلك في وعظه طريقة ابن الجوزي حتى كان يقال له جوزي اليمن وجمع كلامه في مجلدات أطلقوا عليها أسماء منها كتابه (الفتوحات المصونة والاسرار المخزونة) وكتاب (المهرجان) وكتاب (التوحيد الاعظم) ، وغيرها ، عدا ديوانه الشعري . ويقول الشرجي : وعندي من ديوانه وغالبه في التصوف . ومن شعره ماكتبه الى الشيخ أبي الغيث بن جميل :

جزت الصفوف الى الحروف الى الهجاء ... حتى انتهيت مراتب الابداع
لا باسم (ليلى) أستعين على السرى ... كلا ولا (لبنى) تفل شراعي

توفي سنة ٦٦٥ هـ .

واذا نظرنا الى المناحي الصوفي وجدناه يتميز بطريقة فريدة خاصة بابن علوان

(١) يقول صاحب طبقات الخواص انه سمع هاتفا يقول ليس بهذا خلقت .

نصه وفيها من ايجاز العبارة وبلاغة اللفظ . استمع الى قوله في تعريف الصوفي لتتضح لك ذلك :

(الفقير أرق من الماء وأعلى من السماء وأخف من الهواء وألطف من الصبا وأحلى من الجناء وأسمى من الجوهر وأذكى من العنبر وأعذب من الكوثر وألين من العبقر اذا خاطب ألان واذا حوطب أبان واذا استعين أعان واذا قيل له اتق الله دان ينصف من نفسه ولا ينتصف لها وينتصر به ولايفتخر لها عزمه أحد من السيف وهمته أسرع من الطرف وجنانه أخصب من الصيف وأحكامه محاقنة الحيف يألف ويؤلف ويعرف ولا يعرف ويعطف ولا يستعطف ويتكلف مما يكلف ومثله كالبحر ظاهره يحمل الركبان وبطنه الدر والمرجان يأكل من سمكه الآكل ويتطهر بمائه الغاسل يقرب براكبه المسافة ويأمن فيه من المخافة ذلك هو الفقير الكامل الخلق والشمايل)...

ونثره كله من هذا النوع مع بلاغه وتصويب للمعاني . أما شعره فهو البحر المحكم والمعاني الجليلة وربما أوهم شعره ميله الى فكره الحلاج الا أن هذا بعيد جدا لمن يتأمل معانيها على حقيقتها . ومن شعره في تلك المعاني البديعة قوله :

نفس جرى نسيمكم   فأطار نوم سليكم
وأفاده بهبوبه   كلفا بدار نعيمكم
شرب الهوى بكؤوسكم   وأدارها بعلومكم
لما ملين بحبكم   ومزجن من تسنيمكم
أضحى سفيها بعدها   فارنوا لما بسقيمكم
متحركا لسماعكم   سكران من تكليمكم
ويلومه من لم ينل   ما نال من تكريمكم

ومن شعره في المعاني الصوفية :

معاني الحب سقاها   لمن يعطي عطايها

أتتك الخـود خـود الحـب تـشـلوها هـدايا ها
مـعانيـهـا مـغـابها وريـاهـا حـشـيـاها
فكـن تبتـأ لمـرآها اذا أبـدت محيـاها
بـسـلطان كـسـلطان بـه فافـت بريـاها

ومن شعره :

نبـوية رفعـت لهـا الاعناق علويـة علمـت بهـا العشـاق
محجوبة كشـفت لها عن وجهها فـلالأت بشـموسـها الآفاق
تدعو الفروع الى الاصول بلهجة عربيـة فتميـدها الاسـواق
روحيـة من أجلها خلق الثـرى والماء والافـلاك والاطباق
تصفو بجوهرها جواهر سحـرها فلهـا عـلى ظلمـاتها إشـراق
فاذا صفت وصص عرائب حسنها وجمالها وبـدت لهـا أخـلاق
لاحت لنـا بدلاله ومـلاله حوراء كمل خلقها الخلاق
تفتر عن معنى عنت لجماله منا الوجـوه وفاصـت الآمـاق
الشمس والبدر المنير جبينها والطوق منها العهد والميثاق
والكوكب الدري عره وجهها وعلى يديها الاسر والاطـلاق
تشتـاق أحبابا لها وحبايبا أفما الى سبحاتها مشـتـاق
تمحو الابوة والامومة والعمى وتميط ما تتضمن الاوراق

اليافعي

عبد الله بن أسعد اليافعي نشأ في ناحية يافع ثم نقله والده الى عدن وهو لايزال في سن الصغر فقرأ القرآن على الفقه البصال وعلي غيره واشتغل بالعلم وحج سنة ٧١٢ وعاد الى بلده وهو متأثر بعلوم الصوفية فآثر العزلة والسياحة في البراري ثم عاد الى مكة واستقر بها حتى أدركته الوفاة سنة ٧٦٨ واشتهـر اليافعي بمصنفاته الصوفية الكثيرة ومن أشهرها كتاب (روض الرياحين فيحكايات الصالحين) ونشر المحاسن الغالية والارشاد والتطريز وغيره من الكتب وقد لقيت

قبولا كبيرا عند صوفيه اليمن ومصر والشام والحجاز وهو على الرغم من كثرة انتاجه الشعري الا أنه شعر لايرقى الى درجه الابداع والاصاله وكمثال على هذا الشعر الكثير نورد هنا هذه النماذج :

قفا حدثاني فالفؤاد عليل عسى منه يشفى بالحديث غليل
أحاديث نجد علّلاني بذكرها فقلبي الى نجد أراه يميل
بتذكار سعدى أسعداني فليس لي الى الصبر عنها والسلو سبيل
ولا تذكرا لي لعامرية إنّها يوله عقلي ذكرها ويزيل

وفيها يقول :

ولما تواعدنا بوادي النقا وقد علانا على بعد اللقاء عويل
بدا برد قد عض عناب سندس وفي الورد در البحر صار يسيل
فان لا أمت منها قتيلا فانني لمن حل في وادي النقاء قتيل
الى كم على ليلى وسعدى وفي النقا ونجد ونعمان هواي أحيل
وليس دمي في بطن نعمان سائلا ولكن له وادي العقيق مسيل
رمت مقلتني غر لها بين رامه وبين المصلى مسمر ومقيل

ومن شعره :

أترجي البقا ما بين سلع وحاجر وبيض المها ترمي بسود المحاجر
حذار حذار يا خليليا عن الهوى تجوز بذياك الحمى غير حاذر
فما جاز ربع العامرية خاطر ولادار مني قط غير محاذر

وله شعر غير هذا كثير :

الرداد

ومن أدباء الصوفية وعلمائهم الفقيه الصوفي أحمد بن أبي بكر الرداد كان من العلماء الافاضل وهو من كبار أصحاب الشيخ اسماعيل بن أبي بكر الجبرتي وخليفته بعد وفاته وكان المناضل مع الصوفيه في حادثة ابن المقري الشهيرة وقد

فصلناها في كتابنا (الصوفية والفقهاء) وأخذ التصوف على الجبرتي السابق وبعد وفاة والده آلت اليه ثروه كبيرة أنفقها على أصحابه من الصوفية وزهد في الدنيا وانقطع الى صحبه الشيخ الجبرتي حتى نسي أهله وأولاده فكان ينفقدهم شيخه الجبرتي وما زال على المجاهدة والسلوك سنين كثيرة ومع ذلك كان يحج كل سنه على قدم التجريد بصحبة الفقراء وفي بعض حجاته أحرم من مدينة زبيد الى مكه ثم انكب على مطالعة الكتب الصوفيه وطالعها وعلى التصنيف فوضع عدة كتب جيدة في علم التصوف من أشهرها كتابه (موجبات الرحمه وعزائم المغفرة) وبلغ فيه درجة كبيرة من العلم ومن مؤلفاته كتاب (السلطان المبين والبرهان المستبين فى ظهور الحجه على من كفر أهل السماع من أولياء الله المقربين) وكتاب (ذي الفقار المامور بيد ذي الفقر المنصور) وكتاب (طوالع الجبروت وطلايع الملكوت) وكتاب (لوامع الانوار المقملة في شرح معاني الروضة المشكلة في الفقه) وكتاب (الشهاب الثاقب) وكتاب (القواعد الوفية في أصل حكم حرقة الصوفية) وغير ذلك من الكتب الجيدة في بابها وقد أسندت اليه الدولة ولاية قضاء الاقضيه فلم يستمر الا بضعة شهور ثم توفي سنة ٨٢١ وللرداد ديوان شعر كبير أسماه (نحلة الطالب ومنحة الراغب) ومن شعره قوله في التصوف :

ليس التصوف مثل ما زعم المدعي الاحمق
شيخ ومسبحة وسجد د ودعوى تحرق
ان التصوف كله خلق لمن يتخلق
وهوى بجود بلا هوى وحشاشة تتحرق
وعزائم من دونهـ نكبو الجواد المطلق
وتدفق وتعفف وترفع وتملق وتخلق وتحقق
ولباس ثوب العري من كل الوجود ممنطق
وشراب كأس الصبر فى الـ ـعمر الصريح مروق
هذا التصوف ليس ما قالوا وقولي أصدق

ومن شعره :

دع الشعراء لا تنظر اليهم   وخلهم لعلام الغيوب
(ألم تر أنهم في كل واد   يهيمون) الحقوب مع الحقوب
وانهم يقولون الذي لا   تقوم به الفعال من الكذوب
ستشهد ألسن منهم عليهم   بما أجروه من قبح الذنوب
فلا تطلب لهم خصما قويا   يخاصمهم سوى الرب الرقيب

وقد توسع صديقه العلامة محمد بن محمد المزجاجي في أخبار الرداد وشعره في كتابه (هداية السالك) .

أعلام الشعراء في عصر بني رسول

ابن حمير :

الشاعر محمد بن حمير من شعراء الجيل الاول في العصر الرسولي واذا ذكر هذا العصر فلا بد أن يذكر شاعره ابن حمير أشهر من نظم القصائد الجيدة ..وكان ابن حمير يسلك في حياته جانب الفروسية والاقدام وربما عد نفسه ندا لجماعة المشائخ على الرغم من مدحه لهم وتقربه للملك المنصور وكان يفتخر بشعره واعتبر نفسه رب قصائد لاتجارى يقول :

شاب ابن حمير وهو رب قصائد عرب كواعب مثلها لا ينظم

ويصفه من ترجم له بقوة البديهة وفظاعة اللسان وقد حدث أن اجتمع هو والشاعر المصري ابن العطار في مجلس الملك المنصور فقال ابن العطار للمنصور يامولاي اني شاعرك من الديار المصرية وأراك تفضل ابن حمير علي وتنعم عليه أكثر مني . فقال المنصور : انه حاضر البديهة ، وأنتم يا أهل مصر وان كنتم أهل فضل وأدب الا أنكم تبطئون . ثم التفت الى ابن حمير وقال له : ما تقول ؟ فالتفت ابن حمير الى العطار وقال ارتجالا :

مستشعر بعمامة معقودة لو عصرت ملت الفضاء خمرا
وأبوك عطار فما بال ابنه يهدي الصنان الى الرجال بخورا

وكان ابن العطار به شيء من ذلك فضحك السلطان المنصور وقال أجبه فافحم .. والامثلة على قبح لسان ابن حمير كثيرة وقد اكتسب ذلك من اقدامه وقوة شخصيته وقد اعترف ابن حمير بهذه الخاصية في شعره فقال مخاطبا أحدهم :

والله ما يثنون عنك بمثل ما أثني ولا يهجون مثل هجائي

وقد لقي أذى كبيرا بسبب لسانه فقد حدث له أن هجا أحد مشائخ الاشاعر أو نسب اليه هجاءه فتخوف وهرب الى الجبال مدة طويلة وعمل قصيدته (المعذرة) يعتذر فيها عن مانسب اليه فيها ويقول :

خليلي ما جئت قومي عن علا ولا عن ملال حسر فكري فسه
ولا لي بالفيصل اليماني عائض وأي أب ىلطفل مثل أبيسه
ولكن مقال من سفيه مذمم وحسبك أن ترمي مقال سفيه

فقبل عنه ذلك الشيخ عذره بعض الشيء ثم أنه اجتمع به ذات يوم فسمعه ابن حمير ينشد أبيات المتنبي حيث يقول .

واحتمال الأذى ورؤية جانيـ ـه غذاء يضوى به الأجسام

فلما سمعه ابن حمير نفر عن البلاد وفارق أولاده واحتمى ببعض مشائخ العرب في الجبال والتهايم واستشفع بهم فساروا معه الى الشيخ ناصح الدين بن معيبد الى مدينة (فشال) واستشفعوا له حتى عفى عنه هذا الشيخ ونظم ابن حمير في هذا المناسبة قصيدة جيدة يقول فيها .

أعاني هوى ليلى وكيف أعاني وأدنو الى من ليس بالمتداني
وأدعى لها وأدام اذ هي جارتي واذ خدرها المضروب قيد عناني
وما خنت ليلى يعلم الله سرها ولا ملت للواشي غداة لحاني
ولا غيرتني سمة البعد بعدها اذا عن الاخوان جور زماني
ولا اعتدت تسهيد الجفون وانما جفتني ليالي والمنام جفاني
دعاها النوى لما دعاني لها الجوى فلبيت كما لبيت لما دعاني
وكم من محب وهو غير محبب وحان على من لا يرق لحاني
خليلي من سعدين بت رقدتما وبت أسيم البرق وهو يماني
فلو كنتما مثلي مشوقين أدمعي لأشجاكما مسراه حين شجاني
أعينا على مابي من الهم واشكرا على ذاك من عافاكما وبلاني

فإن خليلي من يقاسمني الاسى ويشركني في نائب الحدثان
أتثنى من القيل اليماني هذه تشيب رأس الاسود بن قناني
وزأرة ضرغام سبتة لو دعا بنجران لانهدت سقوف عمان
ومن أنا حتى أجحد ابن معيد نداه وكم يسر لذلك أتاني
ومن أنا حتى أجحد الشمس نورها وأعمط حسود الغيث ذي الهملان
وما كان مني في أبي بكر مارووا ولكن شانئي عنه أحقر شان
أأركب أمواج الهلاك تعمدا وأقتح شدقي والرماح دواني
أآكل لحوم الافعوان مسمما ولو مس جلدي جلده لكفاني
وأكفر احسان الذي في زمانه عرفت وأعمى الحاسدين حساني

ثم تمضي القصيدة في الاعتذار لهذا الشيخ وفي آخرها يشير الشاعر الى أولاده وأسرته التي تنتظره بفارغ الصبر فيقول :

وخلفي يا ابن الاشعري صبية كزغب القطا كل يود تراني
وشيخ حنته النائبات وشيخة يعز عليهم أن يشط مكاني
وقد راعهم ما قلت فيك فكلهم على خده عيناه تنهملان
تصدق عليهم أو علي لأجلهم وسكن قلوبا جمة الخفقان
وآمن فكم آمنت روعة نافر وأطلق فكم أطلقت روعة عاني

وقد عرف ابن حمير بمهاجمته مع أقرانه من الادباء ومر بنا هجاؤه لمسلم بن العليف وهو هجاء يدل على طبعه أبن حمير المتحمزة ويقول الخزرجي إن أكثر شعر ابن حمير في المجونيات والخلاعة وكان من الشعراء المحترفين بشعرهم وله خيل هزيل يرحل عليه الى شيوخ رؤساء القبائل ويمدحهم بالقصائد الجيدة بغية الجائزة وقد مدح جماعة من هؤلاء المشايخ منهم الشيخ ناصح الدين أبو بكر بن معيد شيخ الاشاعر بقشال والشيخ راشد بن مظفر السحاني شيخ سنحاف والشيخ عون بن حسن الزميلي وسهيل بن الوليد المزني وأولاده ومفرج بن الجندب ومدح من أعيان الدولة الرسوليه الملك المنصور عمر بن علي والملك المظفر

في أول حكمه ومدح الامام أحمد بن الحسين ومن الصوفية لحكمي والبحلي صاحبي عواجة وفي أواخر أيامه تحسنت حالته المادية وقصده الشعراء من كل صوب حتى قال فيه الشاعر ابن هتيمل :

سيدي ما دمي عنبك حرام ليس في سفكه عليك أثام
أنت أولى مني بروحي فاحكم لك فيها فما الشيء كلام

الى أن يقول :

لا تباعد الغيث عن (سهام) ولازل يسح المياه رب (سهام)
بلد توجد المروءة والثروة فيها ويعدم الاعدام
جمعت في محمد آله الفضل فحارت في وصفه الافهام
الجواد الجواد والسيد السيد والصارم الحسام الحسام
راعفه السيف والبراعة تمضي بيديه السيوف والاقلام
ساحة يشبع الضيوف ويربو الطفل فيها ويرتع الايتام
واذا ما عددت في شرف السعي عصاما فانت منه عصام
انما لابن حمير قدم السبق وحيدا أو تستوي الاقدام
قمت فردا بدولة المنصور بالشعر حين عز القيام
بقوافي نهز من أعجز الجيش الرسولي وهو جيش لهام

وفي هذه القصيدة اعتراف من شاعر لشاعر وقد أبانت عن كثير من حياة ابن حمير على الرغم من ندرة المصادر التي ترجمت له فقد عرفنا أنه صاحب سيفه وقلم لا كما يوحي به شعره من تضرع واستعطاف لشيوخ القبائل وانه صاحب ثروة ورخاء مادي بحيث يقصده الضيوف والاطفال والايتام في كل يوم وانه قام بجانب الشعر في أول الدولة الرسولية مع قلة الشعراء فأيد بهذا ما قلناه في أول حديثنا عن ابن حمير من أنه أقدم شعراء الدولة الرسولية .. واذا عدنا الى اعترافات الشعراء بفضل ابن حمير نجد الشاعر ابن سحبان وفيه شبه كبير من ابن حمير يفضله على الشاعر ابن هتيمل فيقول :

أما قصائد قاسم بن هتيمل   فمذاقتها أحلى من الصهباء
هو شاعر في عصره فطن ولكن ابن حمير أشعر الشعراء

شعره :

لابن حمير شعر كثير لكن أكثره قد ضاع من بين ماضاع من تراث العصر الرسولي والموجود من شعره لايخرج عن دائرة المدح والرثاء ، وبناء هذا النوع من قصائده يتصل أساسا بالأشخاص الذين مدحهم ورثاهم ، ومن المتبقي من شعره نستطيع أن تكون رؤية صادقة لهذا الشعر فهو شعر تميز باشراق الديباجة وقوة المعاني وجزالة الألفاظ وربما حاكى في ذلك أسلوب المتنبي إلا أن أثره ضعيف عنه فيما عدا ذلك .. وابن حمير مقلد معرق في التقليد حتى انه ربما أمعن في تقليد الشعر الجاهلي ، ويبدو أثر المدرسة العباسية جليا عليه . انظر الى قصيدته في مدح المنصور عمر بن علي الرسولي فلا تجد فرقا بينها وبين قصائد العصر العباسي في عصره الزاهر . يقول ابن حمير في قصيدته :

مالي حفظت العهد من أسمائي	وهوى ابنة البكري غير هوائي
ما رمت صاحبة سواها اسما	أسماه حاولت البديل سوائي
أبدا أحوطه الهوى وأصونه	وتخون فانظر غدرها ووفائي
ميالة الاعطاف بل منهالة الا	رداف بل مهضومة الاحشاء
كالظبية الأدماء بل كالبانة الـ	ملداء بل كالرملة الوعساء
خلت الصباح على الاقاح وبردها	فيه هب وثنا من الانضاء
لم يدر عن ليلي الطويل وما بها	ما بي من الاشواق والبرحاء
كبد تحرقه النسيم ببرده	وأظالع طويت على الرمضاء
ولقد سئمت على الزمان تغيبي	ومللت في أرض الهوان ثوائي
وأدرت طرفي في البلاد فلم أجد	حرا اذا أدعو يجيب دعائي
يا ركب بالجند الخصب وبارق	تهمي سحائبه صباح مساء
وبحصن (دملوة) المتبع دماره	ملك تسمى أكرم الكرماء

ميلوا الى المنصور لا تحدثوا ... عن برمك وأبي عدي الطائي
نادوا أبا الفتح الذي فتحت له ... (عدن) الدعاة وبكة البطحاء
والهند والسند البعيد تناءوه ... فهم وأيم الله خير تناء
ذا ثالث العمرين هذا ثالث ... العمرين هذا أعظم العظماء
من حيث سار رأيت وابن عسجد ... أو حيث صال رأيت بحر دماء
الله ملكه وليس بسالب ... منه الذي أعطاه من نعماء
ما بال علوان نبحن كلابه ... وعوى عوي الذئب في البيداء

ثم تمضي القصيدة في تمجيد الملك المنصور ومآثره .. ومديح ابن حمير من هذا النمط حيث يسلك في ديباجته طريقة الشعراء الجاهليين من غزل وتشبيب ثم يعود الى ممدوحه ويذكر مآثره وأعماله وربما أفادت هذه القصائد ناحية تاريخية لم تتحدث عنها كتب التاريخ . وقد رأينا في آخر بيت أوردناه من القصيدة اشارته الى حادثة تاريخية وهي خلاف الملك المنصور مع الشيخ علوان الجحدري السابق الذكر .. ونظرا لقيمة قصائد ابن حمير وندرة وجودها في المصادر سنحاول إيراد كثير من القطع الشعرية التي وصلتنا من شعر ابن حمير .. يقول في قصيدة يمدح بها الشيخ افضل بن مظفر بن مسعود السنحاني :

أغيب بقلب عنك ليس يغيب ... وأهجر منك اربع وهو حبيب
وأبكي اذا غنى الحمام وحاله ... وحالي شيء ثاكل وطروب
يغرد فوق الايك والنوح ديدني ... قلوب بكت لما سررن قلوب
وفارق ليلى وهو ينظر إلفه ... وما يتساوى آهل وغريب
ولا حين لي لاموا على الحب قلتم ... كذا الناس قبلي مخطيء ومصيب
يقولون لي تب هل بعد خمسين صبوة ... فقلت هل الشيخ الظريف يتوب
رأتني ليلى والبياض بعارضي ... فصدت وانكار الشباب عجيبُ
وهل هو الا لونها صبغت به ... ذوائب رأسي والفؤاد يذوب
أظلت مقامي بالعوير فكان لي ... بأشيخ مصر قبل ذا وخضيب

وكنت اذا ناديت يا فصل مره … أجاب صدى للهاتفين مجيب
فقد مر بي عام وعام ولم أزر … جوانب ذاك السوح وهو رحيب
حبست المواقي دون سيدها الذي … لها في يديه مسمع ونصيب
بحيث العطايا البيض مهو مثل … فسيح وطماح اللجام حبيب
وحيث الجلال الضخم والرجل الذي … تنادي العوادي باسمه فيجيب
فلم يمس جار الفصل تحت مدله … ولا فاته منع هناك وطيب
وليس يقول الفصل للضيف اذ غدا … ترحل فان الحي منك قريب
ولكن هبات عن مظفر أسعدت … قديما وفي ابن المجيب نجيب
وبيت سماح كالقناة تتابعت … كعوب على آثارهن كعوب
توارثه آل اليماني هكذا … فأنجب شبان وأنجب شيب
وحل بيمنى الفصل ذاك جميعه … فما لجمال الدين قط ضريب
أتنكر (سنحان) مقامك بعدما … طلعت وقد وارى أخاك غروب
أثرت هناك الثأر يوما خصيصة … تشقق جيوبا عنده وقلوب
أمرت جياد الخيل تمحو ديارهم … ففي كل دار ناعيان ونديب
وقفت مقاما سر (راشد) في الثرا … عطاب لهم نفسا وأنت تطيب
فقد عاد بالشرق السماح كعهده … ولم يبق في وجه (السماح) قطوب
فأشبح ممنوع الذمار كعهده … وبرت (خدار) للسماك نسيب
نعم لاتغب يا فصل عنا ولا تزل … مقيما بخير ما أقام عسيب
فكل مديح في سواك مضيع … وكل رجاء في سواك يخيب

في هذه القصيدة يشير الشاعر كعادته في مدحه الى حادثة تاريخية وقعت للممدوح وتتعلق بالثأر وأخذ الشيخ القصاص من قتلة أخيه الشيخ راشد . ولا أدرري اذا كان الممدوح قد رحل من مدينته سنحان الى بلد آخر كما تشير اليه أبيات ابن حمير أم مجرد تشبيه عادي . ومن مدائحه قصيدة في الشيخ محمد ابن أبي بكر الحكمي المتوفى سنة ٦١٧ هـ أحد شيوخ التصوف في ذلك الوقت:

رأى البرق من نجد عشبية رهوفا … فأمسى عبد القلب حران مدنفا

وهيج له شوقا حمايم هنف … كشمس دفين الوجد حتى تكشفا

لقد كلفوه فوق ما يستطيعه … ولو قنعوا بالبعض مما به كفى

خليلي من سعد عفا الله ما مضى … فلا تحدثا شرا جديدا وقد عفا

أمستحسن عذلي اذ الورق لي شدا … على البان من نجد أو البرق لي هفا

وهل صابر دمعي اذا جاد دمعه … ذكرت بها إلفا قديما و مألفا

فان امرأ القيس بن حجر بعلمكم … دعا صاحبيه يوم سقط اللوى قفا

وقيس بكى الاظعان يوم عبورها … على جبلي نعمان حتى تلهفا

وللناس أشجان فلو هان نازح … على فاقد لم يبك يعقوب يوسفا

وما لمت قلبي يوم سار مسيرهم … ولكن ألوم الجسم حين تخلفا

وقد كنت أخفيت الهوى وشجونه … فأظهر هذا الدمع مني ما خفى

فيا نائة اروحاء نامي بغبطة … فعيني عنها قد نفى النوم ما نفا

ولم تر عيني بعدهم حسنا يرى … ولم تلق نفسي عن هوى القوم مصرفا

أبوها فلم تسأب الحنين اليهم … جفوها فقالت يا فديت على الجفا

وما حيلتي فيهم وفي وكم كذا … أنوح على ربع وفي طلل عفا

ذكرت زمان ابن الحسين وكان لي … بمعرفتيه قبلة ومعرفا

وعصر رفيق الخصر اذ كان مالذي … أخا لأخ دق على حالة الصف (الخ)

ومن مدائحه في الشيخ المذكور :

من مجيري من شبيه القمر … مايس فوق الكثيب النضر

من عذيري من هوى ذي حور … لحظة يفعل فعل القدر

لو رأيتم خده مهما بدا … لرأيتم أسمرا في أعفر

لو شهدتم عطفه في ردفه … لرأيتم زهرا في نهر

عامري أصله من عامر … دارهم بين الغضا والسمر

سكنوا مني السوادين فهم … في فؤادي ان نأوا عن بصري

وأعاضوني بنومي سهرا ... فالى كم آنستني واسهري
يا خليبي ابى كم ذا ودا ... تنقضي في الاماني عمري
كلما لاح بريق بالفضا ... قل عن أهل الغضى مصطبري
كلما عرض ركب بالحمى ... قلت يا ركب عسى من خبر
فسقى الله قبابا بالمصلى ... وسقى الله الغضا من شجر
يدعي الشعر رجال طالما ... أغرقتهم قطرة من مطري
لا زهير فيه يقفوني ولا ... لجرير مركض في أثري
ليس من ينسزفه من زاخر ... مثل من ينحته من حجر
أنا في القوم أخير أول ... وخيار الليل وقت السحر
وإذا ما امدحوا أمثالهم ... فامتداحي في رفيق الخصر
وعلى الطور (المواجي) أرى ... نار موسى في الدجا المنعكسر
لجناب الشيخ حجي جسدا ... هو من حاج ومن معتمر
ذاك سر الله والقلب الذي ... هو ظل الله فوق البشر

ومن شعره في مدح المنصور :

علي تعتب سعدى في تنائيها ... فاسمع شكيتها واسمع تجنيها
قالت رضيت ببعدي عنك لو قبلوا ... مني الفداء بروحي كنت أفديها
لم يبك يعقوب إذ جاء بنوه عشا ... بلا أخ كبكائي يوم فقديها
مني وما بين سعدى شاهدين على ... ما كان سرحة نعمان وواديها
أيام كنا جميعا تحت ظلهما ... أضم تلك وأملي في من فيها
وفوق وجنتها خدي ولبنتها ... زندي وسر قميصي في تراقيها
ثم افترقنا فما من تلك لي خبر ... ه سعد ابن حدى الانضاء حاديها
أسائل البرق عنها في ترفرفه ... والسحب حين غدت ودقا عواديها
حتى الحمائم في الاغصان ان سجعت ... لإلفهن حسبت الورق ينعيها
بالله أقسم اني من تذكرها ... تمضي على صلاتي لا أصليها

ي لست أن النوى يدنى تبعدها ... أوليها سمع الدعي فأدعيها
يا رائح السرق عندي حاجة ومعي ... رسالة فعسى عني تؤديها
بلغ الى عمر شوقي وقص له ... توقي وعنك منهل مآقيها
ما هبت الريح الا قمت أرسلها ... يا ريح ان حزت في صنعا فحييها
وان مررت بقصر حلة عصر ... فقبل الارض تعظيما وتنويها
وشاهدي ثم ملكا حل أو ملكا ... أدنى مواهبه الدنيا وما فيها
مولى التهايم مذ فارقت موحشه ... حتى القصائد قد ضاعت قوافيها
ان القصائد في الدولاب تحلية ... بمن أعزك لا أهملت أهليها

ومن مدائحه في المظفر :

يا معلم الاحباب نعم المعلم ... أترك عما في ضميري تعلم
يا معلم الاحباب خبرني بهم ... أي المواطن من تهامة خيموا
هم شرقوا في سيرهم أم غربوا ... أم أنجدوا في بينهم أم أتهموا
ما أنصفوني يرقدون وساهر ... طرفي وما كالساهرين النوم
وكل حالي إن وفوا أو إن جفوا ... لا أوحش الله المنازل منهم
قالوا بكيت دم ونحن مدامعا ... قولوا لهم ما الدمع يشبهه الدم
قالوا كتمنا الحب حين أذعته ... من سره في خصه هل نكتم
ولو انني أحببت حب رفاقتي ... نسم السقام ونازع لا يسقم
وأهالهم عرب اذا ما بارق ... شموه حشوا للرحيل وأورموا
ما كان لي أسف على ترحالهم ... لولا غزال في الهوادج أحوم
يمشي به غصن ويقعده نقا ... ويبين من تحت القناع ويلثم
لم أنس قولهم بجرعاء الحمى ... والعيس تحدو والقلايص تتهم
شاب ابن حمير وهو رب قصائد ... عرب كواعب مثلها لا ينظم
ماذا يضر الباز شبهة لونه ... وبما ترى افتخر الغراب الاسحم
أنا مادح الملك الرسولي الذي ... يمنى يديه من السحائب أكرم

وخدمت منصور الملوك وبعده ... أنا لابنه الملك المظفر أخدم
سلمان هذا الست لا متأخر ... لي عن محنته ولا متقدم
ولئن بكى عني الغوير وأهله ... وعدمت من قبه يرار فينعم
فتعز بل حب امام ركائبي ... وهناك يوسمه والغناء ومغنم
والخيل تصهل في المرابط حوله ... هاتيك شيظمة وهذا شيظم
ودروع داود اليه مضافة ... والبيض تلمع والرماح تقوم

ومن شعره :

ما ان ذكرت الزمن الأولا ... وعصر ليلى والصبا المقبلا
الا جرى دمعي حتى يرى ... في كل خد واحد جدولا
قد كنت أغليه فأرخصته ... والدهر قد يرخص ما قد غلا
يا ذي التي ترنو بعيني المها ... كمثل ما تعطو بجيد الطلا
حسنك بكفيك حليا فلم ... دملجك الصائغ بل حلحلا ؟
وشعرك الفتان يا تلك لم ... عثكله الماشط بل رجلا
وثغرك السلسال لم حرموا ... على ذاك البرد السلسلا
قالوا هويت العيس من أجلهم ... نعم وقصدي الهودج الأولا
لأن فيه غادة طفلة ... ترمي فتصمي مني المقتلا
ما أتعب العذال بلحونني ... فكم ومن ذا يسمع العذلا
لم تشرعي نهدك الا تني ... سنانه العسالة الذبلا
وسيف ألحاظك لا تنتضي ... إلا وأفني السيف والصيقلا
آه على عيش برمل الحمى ... وهل مفيدي قول آه علا
يا صاحبي رحلي كم ذا الكرى ... ما تسمعان الديك قد جلجلا

ومن شعره وفيه اقتباس لبعض الآيات القرآنية :

نون الرياحين ولين الغصون ... أرخصن مني كل دمع مصون
وعاذلي في لومه عادلي ... قلت لقد هونت ما لا يهون

يمتنسي تصير ألحساطه   وما فسور اللحظ الا فسون
تمسول عينساه لعشاقه   (هيهات هيهات لمسا توعدن)
وردفه يبرىء من حلمه   (لمثل ذا فليعمل العاملون)
ومنه فوق الخد سطر ترى   ما لكم يا قسوم لا تعشقون
قلت وقد تيمني حسنه   وأهلسه عني لا يشعرون
ما ذا جمال هذه فتنة   ما ذا هوى يا قوم هذا جنون
يوسف ان قطع أيدا فقد   قطع ذا أكبادنا بالعيون
هذا يشهد ردفه والحشى   وحاجبيه أقسمتك الشجون؟
تنظر نقا تهتز فيه قنا   ونرجسا حوليه نون ونون
يا رايد الحي بحديث لنا   اين استقل الحي والظاعنون
هم أوحشوني بعد أنس وهم   خانوا وما خنت مليحا يخون

ومن شعره :

نوح الحمايم على الاغصان يشجيني   والبرق يضحك أحيانا فيبكيني
ما كان لي ولخوط البان أعشقه   ما كان لي وسهام اللحظ ترميني
يا دار زينب والدنيا مصرفة   حييت فيك غزلا لا يحييني
يا دار زينب بي داء أكتمه   فليت شعري من منه يداويني
أظهرتمو لي نكرا بعد معرفة   وكان أهون من ذا الشيء يكفيني
وقد أطلت عبوري حول داركم   عطشان لو سمح الساقي فيسقيني
عرضت في قنوات اللحظ عاسلة   هيفاء تسحب عطفاها من اللين
ما ذي العجائب ماهذي الذوائب ما   هذي الترائب في حسن وتحسين
لدن القدود ورمان النهود الى   ورد الخدود وتفاح البساتين
وعاذل فيك لما ان وصفت له   عينيك عاد بعينيه يواسيني
نكيف حتى بكى مثلي وأحزنه   ما بي وعناه مثلي ما يعنيني
لمحته منمسا تيمني بفم   وحاجب مثل قوس الترك مقرون

سبحان خالق هذا الخصر منجدلا حدل العسان وهذي أعين العين
ذا الثغر ذا الشعر هذا النحر هذبني ذا الخصر أخرجني والله من ديني

وشعر ابن حمير كله جيد وهو في الذروة من أدب العصر الرسولي عامة •

ابن هتيمـل :

الشاعر القاسم بن علي بن هتيمل ثاني الشعراء الكبار في العصر الرسولي وخليفة ابن حمير وتلميذه وكان قد تعاصر معه وان كان الاول قد تقدمه بسنوات قليلة • وهو يعترف بفضل شيخه الاول فيقول :

أنا لولاك ما عرفت وما السيل بشيء في الأصل لولا الغمام

ويبدو أن ابن هتيمل كان صاحب ثقافة واسعة بجانب موهبته الشعرية وربما استعمل في شعره بعض المصطلحات العلمية المتداولة عند علماء الكلام والفقه ، كقوله :

يا صفقة الغبن غرتني جويرية فبعت قلبي منها (بيعة الغرر)

وكقوله :

عشقتك أبكار العلا فنكحتها طفلا وليس نكاحها (بشغار)

ولم تحدثنا المصادر عن حياته بأكثر مما حدثنا هو عن نفسه في شعره •• فمن شعره نستطيع التعرف على أهله وأسرته • وكانت له زوجة يحبها حبا جما ماتت أثناء الوضع فرثاها بالعديد من قصائده ، فمن ذلك قوله في احداها :

بنفسي عصر يوم السبت شمس تبلج في جوانبها شهاب
من الخفرات يحفى الليل منها اذا ما جن ما لا يستراب

ومن شعره نعرف أن له ولد اسمه (سلطان) وله اخوة وأخوات الى غير ذلك ولم تشر المصادر الى سنة ميلاده ووفاته إلا أن الباحث العقيلي يخمن أن ميلاده في أوائل القرن السابع ووفاته نحو سنه ٦٩٦ هـ •

شعره :

تأصل شعر ابن هتيمل في التراث اليمني ومنهم من قلده وعارضه ومنهم من غناه في المجالس ولا أدل على ذلك من قصيدته الرائعة التي أولها :

أنا من ناظري عيناك أعار … وار عني ما حال عنه الحسار
يا قضيبا من فضة بعطف النر … جس من وجنته والجلنار
صن محياك بالنقاب والا … نهبته القلوب والابصار
من معيري قلبا صحيحا ولو طـر … فه عني إن كان قلبا تعار
إنما العيس والهوى قبل أن … يجسم ندي أو يبدو عذار

وقد غناها في اليمن أكثر من مطرب وتفنن في تلحينها كبار الملحنين من القدماء ، وكان الشاعر الغنائي عبد الرحمن الآنسي المتوفى سنة ١٢٥٠ يشيد برقة قصائد ابن هتيمل وعذوبتها فيقول :

يضاهي قديما رقة ابن هتيمل … على شرفاء المخلاف منه برود

وقد اشتهر شعر ابن هتيمل شهرة واسعة حتى أن النساء كن في عصره يحفظن ديوانه وكاد أن يغطي على شعر شيخه ابن حمير ولا نجد سببا لذلك سوى هذه الشاعرية القوية التي تميز بها أديبا وكأنه أحس في نفسه هذه الموهبة فقال مخاطبا شيخه ابن حمير :

نحن سيفا غمد وقد علم العا … لم أنا ذو النون والصمصام

فهو قد وضع نفسه في مصاف ابن حمير .

وكما هي عادة الشعراء في ذلك الوقت فقد اتصل بأكابر عصره لمدحهم وكانت مدائحه في أول الامر لأمراء بلده من أشراف المخلاف السليماني ولم يتصل بملوك الدولة الرسولية الا في أواخر أيامه أو في سن الشيخوخة ونحن نستدل على ذلك من شعره حيث يقول متغزلا :

نأى عن لمتي الصبا خضيبا … وعرض اذ رأى شعري خضيبا

وقال أتجسم الأهـواء فيمـا علمت بكونه رشأ وديبا
وأفسد ما طلبت له صلاحا سوى جمع التبيبة والمشيبا

ويكثر ممدوحيه من أمراء المخلاف السليماني وملـوك الدولة الرسوليه وكتابها ووزرائها وعلمائها ومدح الأئمة في الجبال وبعض شيوخ القبائل وربما مدح الخصمين في آن واحد فأتى شعره متناقضا مع نفسه فهو حين يعرض بالملك المظفر في قصيدة مدح بها خصمه الامير قاسم بن علي الذروي ويشير الى قتل المظفر فيقول :

لم يكـن يبلغ المظفـر لـولاك رؤوس صدرن من « خان داره »

نجده يمدح المظفر بقصيدة يهنيه فيها بانتصاره على ممدوحه السابق الامير قاسم بن علي الذروي .

وهو في كل مدائحه صاحب صنعة أدبية وثقافة وسعة وربما استغل كل ثقافة الشاعر ليستعين بها في مدحه فهو مثلا يركز على الناحية التاريخية فيشير الى حوادث مشابهة لتلك التي يتحدث عنها . فيقول في مدح الامير أحمد بن المتوكل صاحب ظفـار :

غير بدع إن أخلدت فرق الكفـ ـر الى زخـرف الحيـاة اغترارا
قوم موسى من بعده تخذوا العجـ ـل إلهـا واستعجلوه حوارا
وأضـاعوا الآداب عـن نهي هارو ن وضلت عن دين عيسى النصارى
ودعا نـوح قوم نوح جهـارا فأصروا واستكبروا استكبارا الخ

وما فتيء يفاخر بشعره ، شعر كبار الادباء في العصور الزاهره مما يدلنا على كثره مطالعته لدواوين الشعراء فهو قد قرأ ديوان البحتري وأبي تمام بدليـل قوله في بيوته الآتيه :

قدولك حـرة الاعـراق تحـلو بقلب حليلهـا نكـرا عـروبا
تبـرج أن تحجـبت القـواقي ولم تخـف الوليـد ولا حبيبـا

ويقــول :

أتاك وان كنت الغني عن الــذي يجيء بتوفيــق الصنــاع المحبّر
من اللاء ما غنى الوليد بن بلبــل بهن ولم يخلع على ابــن مديــر

فدل كل ذلك على شغفه بمطالعة دواوين الشعراء في العصور الزاهره •

وربما استعمل شيئا من الفلسفة وأبان عنها في شعره • فهو من رأيه التغرب عن الاوطان فان سمو العيش لايكون الا في الكد والاجتهاد ، فيقول:

تغرب فسمو العيش في كدر النوى وبعد فلولا البعد ما عشق القرب
ولا تكترث ان دب خطــب فربما أتاك الرضا من حيث أعجزك الخطب

ويفلسف الحياة والشباب فيقول : إن سمو العيش وسعادته لاتكون الا في فورة الشبــاب :

انما العيــش والهــوى قبــل أن ينجــم ثــدي أو يدب عذار

وهذه فلسفة عادية لانجد فيها مايلفت الانتباه وهي غاية ما يأتي من شعر ابن هتيمل وربما أثار المجتمع والناس بعض اهتمامه فهو يصور فقر أهل بلدته وجوعهم فيقول انهم لايعرفون من الجوع والفقر ما هو (القمح) فيقول :

وأغنيتني من معشــر لو سألتهم عن القمح لم يدروا من العي ما القمح

وكان ابن هتيمل واحدا من أولئك الادباء الذين دعوا الى أخذ نصيبهم من الحياة والتمتع بمباهجها وربما وجدنا عنده ما يشبه المجون الذي عرف في أدب العصر العباسي لكن هذا قليل جدا في شعر ابن هتيمل وأنت لاتكاد تظفر بشيء من هذا الا في اعترافاته القصيرة كقوله :

فقل للنفس ان طمعــت جماحا تمادى في الغــواية ثــم توبى
ولا تستشعرى أبــدا قنوطا فان الله غفار الذنــوب

وكقوله :

العمر عارية فاغنم سرورك ما دام السرور له دول الحزن
تمضي الحياة كأن لم يكس لابسها عن بزة المهد الا بزة الكفن

وهذه نغمة نواسية سنجد ابن قليته من بعده يتوسع فيها ويدعو الى الاستهتار جهارا .

ومع ذلك فان ابن هتيمل قد شرب الخمرة في شعره وتغنى في وصفها ودعا الى شربها في قوله :

قم فادر بها صباح الدجج واسقيها صرفا بغير مزاج
وأدرها كأنما القدح الدا نو ملآن من نجيع الشجاج
بنت كرم تسعى بها بنت عشر لم تعالج بالماء أدنى علاج
صبغ زرقة الزجاج الى أن صار لون السلاف لون الزجاج

ويقول إن أحلى ما في الحياة البكور بالكأس :

أحلى الحياة وأحلى العيش ما بكرت فيه الكؤوس على شرب وجلاس

وكما يفتن في وصف الخمر فانه تغزل في الساقي :

من كف أغيد في خديه مفسده من حمرة الورد أو من خضرة الآس
يرتج حقف النقا من تحت مئزره عن قد أملد كالخروب مياس

وهذا الساقي يكون في الغالب فتاة جميلة يفتن الشاعر في وصفها فيقول:

وساقية عقدت الحقف منها بخوط البانة اندمج اندماجا
وان قبلتها لم تلق الا مجاج النحل في فيها مجاجا
تظن الكف منها مشط عاج مقمعة البنان وليس عاجا

ومع ذلك فهو أحيانا يستعيض عن شرب الخمر بمواصلة الحبيب فيقول :

ومالي والمدامة وهي حجر ومقصدة وريقتك المدامة

والغزل مادة كبيرة في شعره ، وفي هذه المقطع خير دليل على مانقول :

تاب عن عذره سواد عذاره ... اذ إزار الشباب تحت إزاره
ورمته العيون فالنوم يخطو ... ه لإدبار ليله من نهاره
عوضته الايام بالمسك كافو ... را وعمت سماءه بوقاره
يا لقومي كم لا يزال من الحب قتيلا ... لا تأخذون بثاره
ما دمي في طلا الرجال ولا عند ... عزيز أطله بمغاره
في خصاص النقاب من فتن الأعـ ... ـين من خصره من زناره
قمر أطلعته في فلك الأز ... رار أطواقه على أزراره
تقطف الورد بالنواظر من خديه ... بين احمراره واصفراره
وقد قلبي من وقد وجنته الغض ومن جلناره حل ناره

ومن شعره في الغزل:

يا ملبسي ثوب الغرام ... وسالبي بالحسن قلبي
خل سلبي
ما قلت قولا لم أطعه ... وهل دعوت فلم ألبي
دون صحبي
ما الفرق انك لم تحل ... نهبهم وتحل نهبي
ايش ذنبي
أنا من وعيدك والوعود ... أحيص في صدق وكذب
فاحتفظ بي
الله حسبك في الذي ... زخرفت من ملق وعتب
وهو حسبي
بالله والشعر الاثيث ... والخصر الاقب
لم شعبي

وأرح علي فما اصطبيت من الايام يكميك كربي
غير حبي
أوصيك يا ريح الجنوب اذا قصت الآن تحبسي
لا تهبي
لا تنفضي عذب البتسام على غدير عير عذب

وله غير ذلك من الشعر الجيد في الغزل ولو أن ديوانه طبع وتداوله الناس لأكثرنا من نقل شعره هنا .

ابن فلنسه :

لم يرج مذهب التهتك والمجون في الشعر اليمني فأنت لا تكاد تقف على قصائد لشعراء اليمن في المجون كالتي عرفت عن أبي نواس وابن سكره الهاشمي وغيرهما من شعراء العصر العباسي والمملوكي في مصر والشام . واذا وجد للشعراء في اليمن شيء من ذلك فهو لايكاد يخرج عن دائرة الغزل البريء ووصف الخمر والتغني بسقاته وندمائه ، وهو أمر لايكاد يذكر بالنسبة لما للشعراء خارج اليمن من تهتك واستهتار :

وعدم انتشار هذا النوع من الادب يعود في رأيي الى أمرين :

أولهما : عدم استساغة أدباء اليمن لأدب مدرسة البديع الرائجة في مصر في ذلك الوقت ، ومن ثم لم يتأثر الادباء بأصحاب تلك المدرسة كالقاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن نباته الحميد والصفدي ومن سار سيرهم بل نجد من أدباء اليمن من لم يكتف بعدم مجاراتهم في طريقهم وانما استهجنها كالاديب ابن عبد المجيد اليماني الذى عاب مدرسة البديع وعلى الاخص مدرسة القاضي الفاضل وفضل عليه صاحب (المثل السائر) .

وثانيهما : طبيعة البلاد العربية التي لاتشجع شيئا من ذلك المجون ، واذا وجد هذا الشعر بينهم فانما يكون تداوله بخفية تامة وسرية ..

ومن هنا اختفى هذا الشعر في الأدب اليمني،فلا تكاد تظفر بشيء منه في أدب كبار الشعراء في العصر الرسولي فهو انعدم أو كاد في شعر ابن حمير وابن المقري وعبد الله بن جعفر وغيرهم ، واذا كنا وجدنا لهم بعض القصائد الغلمانيه فانها في عمومها لاتخرج عن نطاق الغزل البريء .

على أن الفضل يعود في وجود هذا الادب في العصر الرسولي الى الاديب أحمد بن محمد بن فليته الحكمي الذي استفاد كثيرا من نتاج الادباء المعاصرين له في مصر وقلدهم في كثير من طرقهم وربما احتك ببعض الادباء القادمين الى اليمن ومكة فحاول سلوك طرقهم ونجح في ذلك غاية النجاح .

وابن فليته ولد بنواحي زبيد وأحب زبيد حبا جما وله فيها نظم جميل من ذلك قوله :

زبيد كل الجمال فيها وعندك العالم الخبير
والنخل والبحر من زبيد يمديهما الخوخ والصخور

وتولى للملك المجاهد كتابة الانشاء فقام بها خير قيام ورغم فصاحته وبلاغته فقد أتقن اللهجة العامية وقال النظم الحمسني الدارج فنزل بالادب اليمني الى دائرة الشعب والناس وربما كان قد أتى استعماله للعامية لأسباب تتعلق ببعض المماليك الذين قدموا الى اليمن مع الدولة الايوبية والرسولية وهم غالبا من ذوي الثقافات المحدودة فكانوا يجدون مشقة كبيرة في فهم أسرار اللغة العربية الفصحى فأتى نظم ابن فليته عاميا ليفهمه أولئك الامراء ..

وقد أهّله ميله وثقافته الادبية أن يحدث في الادب اليمني بعض التجديدات غير المألوفة عليه ، وكان من نصيبه أن فتح باب المجون والاستهتار بشكل واسع حتى أنه أفرد الاتصال الجنسي بمؤلف مستقل هو كتابه « رشد اللبيب الى معاشرة الحبيب » وهو مقسم على فصول كلها في اثارة الغرائز الجنسيه . وقد ترك هذا الجانب ظله حتى على شعره فلا تكاد تسلم قصيدة من ذكر المعاشرة

العادية والشدة ولولا خشية الخروج عن قواعد الاخلاق لأوردنا الكثير من هذا الشعر الماجن .

وكان ابن فليته أثيراً عند الملك المؤيد لتلك الخاصية التي تميز بها أدبه حتى إنه جعله من جلسائه،وماكان ابن فليته يستطيع التوسع في ذلك الادب المكشوف، لو لا أنه لقي ميلا كبيرا الى نظمه من ذلك الملك ، وقد ساعده على قوله طبيعته الحضارية وثقافته الواسعة وكان قد استفاد من شعراء الموشح في مصر ليحدث هذا الفن في الادب اليمني فاستحق بذلك فضل السبق والريادة ، وكان قد عاصر جماعة من شعراء الموشح في مصر والشام كالاديب شرف الدين بن أسد المتوفي سنة ٧٣٨ والاديب ابراهيم المعمار المتوفي سنة ٧٤٩ وغيرهما .. فما كان من ابن فليته الا أن استفاد من هؤلاء الادباء في ادخال هذا النظم الى الشعر اليمني . وقد وصف الخزرجي ديوان ابن فليته انه اشتمل على ألوان من الشعر لم تكن معهوده بين الادباء وهي غير شعره الفصيح كالدوبيت والحلاوي والموشحات والبال بال والساحليات والحميينات وهذه ألوان من الشعر الشعبي بعضها ينسب الى خارج اليمن كالدوبيت الذي انتشر في العراق والشام والموشح الذي يعود الفضل في ابتكاره الى أهل الاندلس . أما الحلاوي فلم أقف له على أصل .. وأغلب الظن أن هذه الانماط من الشعر لم تستحدث الا لغرض الفن الموسيقي الذي لقي اقبالا كبيرا بعد احتضان الصوفية له وتناولوه على شكل سماع ورقصات تقام داخل المساجد حتى إن بعض الصوفية غنى في سماعه موشحة عبادة القزاز الاندلسي التي أولها :

بدر تم شمس ضحى
غصن نقا مسك شم

فحولوها الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتركت هذه الانماط من الشعر ظلها على سائر الفنون الغنائيه حتى أن نظم (ابال‌بال) نفي يغنى على أغلب الظن فيما يعرف (بالبالية) وهو نوع من أنواع الحداء . ويقول الاستاد

وعلول أن « الموشحات تصنع لتغنى بها وغالبا ما يكون الوشاح معنيا أو عالما بالموسيقا أو عازفا على آلة من الآلات ، ويراعي في بنائها أن يكون صنعة اللحن تقبل ما يدخله عليها الموسيقي من فنون النغم » .. ومن هنا تأتي الصلة بين هذا النوع من الشعر والفن الموسيقي .

ويتضح لنا من هذا أن ابن فليته كان صاحب حس موسيقي ، ولعله احترف الغناء كما هو الحال عند كثير من شعراء اليمن .

توفي سنة ٧٣١ وقيل سنة ٧٣٣ هـ .

شــعره :

أشعاره كثيرة جمع أغلبها في حياته وبقيت مجاميع منه لاتمثل كل ماله من شعر .. فهو شاعر متمكن مكثر في انتاجه . وقد اتسم بالسهولة والرشاقة والرقة شأنه في ذلك شأن شعراء المولدين في العصر العباسي .. ولاشك أنه قرأ نتاجهم بل وربما قرأ لبعض شعراء الاندلس كابن هاني وابن زيدون وابن عباد ووقفت له على قصيدة عارض فيها قصيدة الحصري القيرواني التي أولها :

ياليل الصب متى غـده	أقيــام الساعة موعــده

فقال ابن فليتــه :

رشأ بالهجـــر تهـــدده	يسهرني الليــل ويرقده
كالبدر يلــوح محاسنه	ذهبــي الخـد مورده
أبكاني الحب وأضحكه	فبحكم الحب علت يــده
كنظيم اللؤلؤ مبسمه	حبــو صــافيه مبـدده
يحمــي رشفات مراشفه	سيف في اللحظ يجــرده
تدنيـــه الرأفـة منه إلي	وتــيه الحســن يبعــده
نصب الاشراك بمقلتـه	وقلوب الناس تصيــده
سفكت ظلما عيناه دمي	والحسـن علي يــؤيده

وتضرجت الوجنات به   شهدت عينه وتجحده
أتمنى للنوم لطرفي   طيف والدمع يشرده
ما للحساد وما لشج   جمعت للمحنة جسده
تجرى الاشواق مدامعه   ويذيب القلب تنهده
أمر اللاحي بتجلده   مسكين أين تجلده
يدعو بالصبر فيخذله   وشؤون المقلة تنجده
محزون القلب نحيل الجسم   قريح الجفن مسهده
يمسي والنجم يسايره   حتى الاصباح ونشهده
حنت الزفرات أضالعه   ويبكي ببكاه معنده
أترجي الوعد فيبقى   من دون الوعد توعده
كيف السلوان وفي يده   قلبي يغويه ويرشده

والقصيدة رائعة دلت على تذوق الشاعر ابن قبنه لعيون القصائد الشعرية في الادب العربي ومجاراته للانتاج الادبي في تلك البلاد العربية ..

ويتجلى نفحات الشعر العباسي واضحة في شعره عندما نمس تحسس ذلك النفس النواسي وتقليده لأبي نواس حتى في توبته من المجون والاستهتار كقــوله :

ثم لا أظهر ما كان وقد   نظر الله الينا وستر
ان رأى الناس قبيحا فضحوا   واذا ما استغفروا الله غفر
استقل الله مني عثرة   باعظيم العفو ان عبدا عثر

ويشير جامع ديوانه الى هذه الناحية في شعره فيقول : « ذهب في الشعر كل مذهب فأبدع من نظمه وأعرب وسلك بعض من أشعاره طريق المجون والخلاعه وكان مع ذلك يكثر من استغفاره وصلاته ونصح فيما بينه وبين الله سبحانه وتعالى» .

ويتجلى مجونه في قصائده الغزلية وربما اعترف بذلك ونهى لوامه عن لومه:

يلوموني على طول التصابي ... وفتحي في الخلاعة كل باب
واتباعي اصطحابي واغتباقي ... بصرف الراح كالذهب المذاب

وله في الغزل قصائد جيدة منها قصدته التي أولها :

يا فاتر اللحظ فاتن الشنب ... ما لجفائك المحب من سبب
ان كان كذبا من الوشاة فما ... يحسن هجر المحب بالكذب
او كان منك الصدود من لعب ... فمن أجل النفوس باللعب
الحب مني على الجفا عجب ... والهجر لي منك أعجب العجب
يا نائما عن سهاد عاشقة ... أتعبتني واسترحت من تعبه
يا من له في مساءتي أرب ... مالي سوى ما تريد من أرب

وله في المجون طريقة عجيبه كقوله :

يكن عصباً من قبلة نلتسه بهـا ... فقلت لـه : إقتصّ مني بها عشرا
وأومى الى التقبيل لى وهو مغضب ... يشد على الرأس ليأخذها قهرا
فظلت نهاري كله في التمامه ... فعضب بالاولى وأرضيه بالاخرى

ويصور مجالس لهوه فيقول :

كم ليلة قد وهبت للروض بت بها ... بفرصة اللهو واللذات منهصرا
ثاني الحبيب وكاس الراح ثالثه ... والوعد بعد طويل المطل قد نجزا
والغيم يلبس مني الجو حليته ... والبرق يحكم في أثنائها الطرزا
حتى تلألأ ضوء الصبح مبتسما ... كأنه ملك في التاج قد برزا

ويحدثنا عن غزله وعشقه فيقول :

كفاك ان المنام محتبس ... عن ناظري والفؤاد مختلس
ومهجة لا تزال والهة ... كأنها بالغرام تفترس
لم يبق لي في الحياة من سبب ... الا وميض اللحاظ والنفس
تجاوز الهجر منتهى جلدي ... فهل لديك الوصال يلتمس

ومن أرق غزلياته هذه القصيدة التي مدح بها الملك المجاهد:

وبسر المقلة حلو المراح	أتعبني في حبه واسنراح
طويلـم يظلم عشاقه	ولا يرى في ظلمهم من جناح
والله ما يسلب ألبابنا	الا العيون الفاترات الملاح
أو القدود السمر مثل القنا	أو الثغور البيض مثل الاقاح
قد ملكت قلبي أيدي الهوى	حتى استباحت منه ما لا يباح

وأبدع ابن فليته في جانب آخر من الشعر قلما يجاريه شاعر يمني فيه وهو وصفه للخمر ومجالسه وسقاته وندمائه الى غير ذلك ، حتى أصبح بهذا خليفة

أبي نواس في الشعر اليمني بحق وحقيق .. انظر الى هذه الخمريه ليتضح لك صدق مانقول :

ساقٍ ألم بنا وقد هجم الدجى	فأطار عن عيني لذاده غمضها
يسعى الي بكأسه مستهديا	اذ ظل في جنح الظلام بومضها
وافى بها فغضضت عيني هيبة	من لمعها لا رغبة في عضها
تخفي زجاجتها فما يدري الذكي	مصفرها في اللون من مبيضها
في ليلة لم أدر هل لنجومها	حكم المضيئة أم لأسحم أرضها
بالله لا عبثت يداك بمزجها	فاذا فعلت فبعضها من بعضها

ويعتب على لائمه في شربها وصده عنها فيحاوره حتى يغريه بشربها .

ولابادىء باللوم والكأس في يدي	وقد كاد ضوء الصبح أن يتنفسا
وقد تشرب كأس الشمول مسره	عني ومن الروض زهرا قد اكتسى
فقلت له لا تذمم الراح انها	دواء تخلصنا به من يد الأسى
فأصغى الى قولي وذم ملامه	ولم يمض حتى أن سقيناه أكؤسا

وكما أبدع شعراء العصر العباسي في وصف الرياض نجد ابن فليته يجاريهم في هذا المضمار وهو شاعر يعجب بالطبيعة الثائرة فكثيرا ما يصور تلك الرياض

وقد لبد جوها بالغيوم وهطلت سماؤه بالامطار الغزيرة :

سقه الله وغابات الوطر   مجلس في يوم غيم ومطر
وسماع من قيان جاوبت   نغم الاصوات منهن الوتر
جمع اللهو ولذات الهوى   يستلذ السمع فيها والبصر
وشراب من مدام عتقت   ألفت ما بين أنثى وذكر
أسرجت منها لهود فهي كالـ   غصن في أول إخراج الثمر
حلو الاخلاق والخلق لها   كفل راب وخصر مختصر
قد تجزأ الحسن في أجزائها   فهي (...) وقضيب وقمر
فتن الشيطان في مقلتها   ما رآها ذو التقى الا فجر
أو نقي الخد مهضوم الحشا   فاتر المقلة سحار النظر
سلب الشيطان مني عصمي   بملاهيه فغابت وحضر
ثم أمسيت مطيعا أمره   لست أعصي ان نهاني أو أمر

فهذه المقطوعة التي جمعت بين الغناء والخمر والغزل نجده يستمنحها بأمسية واحدة هي مجلس في يوم غيم ومطر . ويعود الى هذه الامسية في روضية أخرى فيقـــول :

رداء الروض طرزه السحاب   وجاد ضواحك روضه الزهر الرباب
ومالت في غلائلها غصون   عليها من شقائقها ثياب
يميل بها النسيم كأنه من   ترنحها يميل بها الشراب
فخذ من لذة الدنيا نصيب   فآخر لذة الدنيا ذهاب
وداو الاكتئاب بكأس راح   اذا ما خامر القلب اكتئاب
مروقة معتقة شمول   لها في كأس شاربها التهاب
فخذها من يدي قمر منير   كساه ثياب رونقه الشباب
كأن الراح في يده عقيق   جرى في الكأس أو ذهب مذاب
فهذا العيش ليس هوى سليمى   وتفنيد العواذل والعتاب

فهو يقحم دائما في روضياته ذكر الخمر وشرابها وكأنها جزء لايتجزأ من نزهاته المتعددة في الرياض والطبيعة الساحرة • ومع ذلك فان حياة ابن عليته ليست كلها لهو ومجون • وفي شعره يتجلى لنا أنه شخص مارس الناس واختبرهم وربما صور بعضهم في هجاء مقذع فقال :

فكر لنفسك ابى معك منكسر — فما وجدت لعجب فيك من سبب
فلا بأصل ولا فرع ولا كرم — ولا بدين ولا علم ولا أدب
ولا عفاف ولا فضل يزان به — ولا مقام عدا في أرفع الرتب
ولا بحلم ولا رأي ولا رشد — ولا اتكال على عمل ولا نسب
ولا بفخر قديم يستدل به — ولا حديث ولا عم ولا حسب
ولا بنفس الى العلياء سامية — ولا اذا ذكر الآباء قلت أبي
وكل فخرك هز المنكبين وما — ترخيه من طرف العرض على العقب
فأنت كالديك نجس الرأس منتنه — وفيه زهو بريشات على الذنب

ومن فلسفته في الحياة النهي عن الحلم :

ولا يحمدن الحلم في كل حالة — فمسى الحلم أقتاد لمن لايعاقب
اذا كنت في كل الامور معولا — على الحلم من يدري بأنك عايب
ولم تتقى البيض الصوارم والقنا — ولم يتقتنى الخيل العتاق الشوادب
ومن لم يخف رهش الثعابين بطشه — وجرأته دست عليه العقارب
إذا المرء من أعداه لم يشف نفسه — فما نفعه ان قام للثأر طالب

البرعي :

هذا الشاعر انتشر شعره بين أيدي الناس من الادباء وغيرهم حتى أصبح تداوله أقرب الى الابتذال منه الى الشهرة المعروفة عند الادباء ويكثر شعره خاصة بين أيدي العوام والصوفية ذوي المزاج الديني القوي وربما تسوقل بين قوافل الحجيج قبل ظهور السيارات والطائرات • ويقول الزبيدي إن ديوانه صغير الحجم مشهور بين أيدي الناس •

وهذا الشاعر بالرغم من شهرته الواسعة فان ترجمه تكاد تكون مجهوله وقد تخبط في تاريخ حياته كل من أرخ له فزعم صاحب معجم المطبوعات أنه من أهل القرن السادس وسار على هذا الخطأ جرجي زيدان وبروكلمان والنبهاني وخمن الخماجي حياته في القرن الثامن أو العاشر . والخبر اليقين نجده عند المؤرخ البريهي الذي انفرد بترجمه من بين سائر المؤرخين في اليمن .. فقد ذكر أن اسمه عبد الرحمن بن علي المهاجري البرعي وبلده النيابتين وكان يسكنها الى أن توفي وقرأ الفقه والنحو على جماعة من علماء وقته فلما تأهل للتدريس والفتوى أتاه الطلبة من كل جانب فدرس وأفتى واشتهر بالعلم والعمل وبه مدائح في النبي صلى الله عليه وسلم . توفي سنه ٨٠٣ . وهذه الترجمة نقلها عن البريهي المؤرخ زباره في ملحق البدر الطالع . فأفادتنا ترجمة البريهي للبرعي مسائل مهمه عن حياته أهمها تحديد سنة وفاته وما ذكره قريب للواقع ، حسب أن البرعي مدح أشخاصا متأخرين من أهل القرن الثامن كالشيخ أحمد بن أبي بكر الرداد المتوفى سنه ٨٢١ والشيخ عمر بن محمد العرابي المتوفى سنة ٨٢٧ وغيرهما وهو الشاعر الوحيد في العصر الرسولي الذين لم يقصد الملوك والرؤساء لمدحهم ولم يتكسب بشعره في أغلب الاحيان على الرغم من أنه مدح جماعة من أعيان العلماء والصوفية .. وربما احتاج الى المال فمال بشعره الى بعض الاثرياء من غير المتصلين بالدولة، فأنت تجده في شعره يصرح بعائلته الكبيرة وفقره فيقول .

كهل كبير وأصنان وحاشية لا يقدرون على التحويل والنقل

ويقـــول :

أما ترى لي لأطفال صغار أبوهم من من محبهم طريد
يسر العبد بالصبيان لهوا وليس لهم مع الصبيان عيد

ويعلن عن فقره وافلاسه بما هو أكثر صراحة من ذلك فيقول :

فقر وافلاس ودهر جائر وهموم عائلة وضيق مكان

وعظيم دين لا يقوم بحمله   رضوى ولا الصخرات من ثهلان
وسمعت من أم العيال تواعدا   وتهددا ما كان في حسباني
رجب وشعبان قطعت مداهما   صبرا وعز الصبر في رمضان
فبحق حقك برني وأمدني   بعوارف وعواطف وحنان

ويبدو أن البرعي أصيب بكثرة الاولاد في آخر عمره والا فهو الذي يتحسر على فقد أولاده ويبكيهم بمرارة فهو الذي يعول عند وداع طفلبه ·

من لي بطفلين من خلصي كأنهما   زغب القطا إذ عَدِمْنَ الماء والشجرا
فارقت ريحانتي قلبي وما رضيت   نفسي الفراق ولا اخترت النوى بطرا

ويقول عند مرض أحدهم :

أبُنَيَّ دونك عبرتي وتنهدي   كمدا عليك فكم أعيد وابتدي

ولهذا السبب تكسب بشعره عند أعيان عصره من العلماء والتجار ودلت قصائده أنه كان يرحل اليهم من أماكن بعيدة ، وقد أشار في احداها الى غربته مخلف بلده وأولاده فقال :

أيا سيدي شهر كريم وغربة   ودين أقاسيه ولست به جلدا
وعيبة أطفال وبعد منازل   واخوان صدق ذقت من أجلهم فقدا
فغضٌ لبانتي ونجّح مطالبي   وما استطعت من بر فلا تألني جهدا

وقصد الشيخ عثمان بن أحمد الاهدل فقال يعرض عليه مطالبه :

يا سيدي يا عفيف الدين جئتك في   حوائج أغفلت والدهر يقظان
فرش جناحي ببذل المكرمات وصل   حبلي فإني الى نعماك غرثان[1]
فاسمح بعارفة بيضاء تنعشني   فما يسامبك بالاحسان انسان
واكس الاديب من البز النفيس ولا   تردد لبيد القوافي وهو عريان

---

(١) جائع ·

وهو يصرح بعدم نجاحه عند مداحه فيقول إنه تاجر بالشعر فخسر :

يا أيها الوالد البر الشفيق أجب عن كل من زاده استذكير نسيانا
تاجرت بالشعر أبغي الربح فانعكست حالي علي فعاد الربح خسرانا

والمهم أن الشاعر البرعي رجل مارس الحياة فلم يكن من ذوي التزلف والغرور وهو صاحب استقامة خلقية جعلته ينزل الى الفقر والافلاس على عكس من عاصرهم من الادباء الذين جعلوا من مسايرة الملوك والرؤساء وسيلة للتجارة الفكرية ، وفوق ذلك فان البرعي صاحب خصوم وأعداء فهو يشكو منهم كثيرا ويدعو عليهم أحيانا .

شعره :

تميز شعره بجيشان العاطفة وقوة الاسلوب وان كانت معانيه في الشعر قليلة جدا فهو صورة مكررة من صور العصر الرسولي حيث يكثر اغراقهم في التقليد والمحاكاة لشعراء العصر الذهبي في الاسلام ، وأنت تجد أثر المتنبي على البرعي في أغلب قصائده وربما قلده تقليدا سافرا في قوله :

الصالح البدل ابن الصالح البدل بن الصالح البدل ابن الصالح البدل .

ومع ذلك ربما ادعى عدم انتمائه الى مدرسة معينة في الشعر فقال :

أنا في تأليف قافيتي غير منضار الى فئة

ولكن هذا بعيد عن الواقع ، فشعره كله محاكاة لمن تقدمه فهو حتى في تركيب قصائده مقلد مغرق في التقليد ، وربما سار في مقدمات قصائده على طريقة الجاهليين من التشبيب بالنساء ووصفهن بالصور المعتادة في شعرهم . ففي غزله نجد مادة كبيرة من تلك التشبيهات المعتادة المتكررة حتى أنه يستعمل تلك المواضع والاسماء التي استعملوها في شعرهم كقوله مثلا .

وفي غزله نلمس تلك اللوعة والحرقة ، وهذا نابع أساسا من طبيعة في الشاعر

تميل به الى التأثر السريع :

أتأمرني بالصبـر والطبع أغلـب وتعجب من حالي وحالك أعجب
وتطلـب مـني سلوة عن ربائب وراهن أرواح المحبين تطلـب
فما عزّ لي دمع ولا كف مدمـع ولا طاب لي عيش ولا لذّ مشرب

وهو من الداعين الى التصبر في الحب واستعذابه :

لاقت يا نفس حقا ما حكى الحاكي فمضي لشأنك اني لست ألحـاك
واستعذبي غصص التعذيب راضية وحكمي الحب عل الحـب يرعاك
واستنظري فـرص الايام عائدة واستعصمي الصبر وادعي ترك شكواك
عساك ان مت في ذكراك مت على شهادة الحق حيث الحـق يلقاك

وفي هذه القصيدة يبدع في تصوير الايام الخوالي التي مضت مع محبوبته:

أيام ليلى بوادي (السدر) نازلة مقيمه خـدرها المضـروب بمناك
والعيش أخضـر والايـام مشرقة وعين رب الهوى العذري ترعاك
ونظرة جلبت حتمي ميس لهـا شاك لأني أنا المتـشكو والشاكي

ثم يخاطب الحبيبة فيقـول :

ردي بقيـة روح فات من رمـق يا شمس حسن بدت من برج شباك
وارثي لقلبي بما في سحر عينك من حبائل مرصـدات لي وأشـراك
وبين سـفح جياد فالمسـيل الـى دار الامير عروس نورها زاكـي
سحاره الطرف يرمي من لواحظها حب القلـوب بإحيـاء وإهـلاك
خذي بحقك من عينيك لي حذرا حتمـا فما أتقـي عينـك عيناك
وساعديني على التصبر مغتنما فما ألـذك تقبيـلا وأحـلاك
فكم وديعة شوق لي اليك مضت قد كنت يوم النوى أودعتها فاك

وبهذه السلاسه والمتانة يمضي شعر البرعي •

مديحه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم :

ومع ذلك فان شهرة شعر البرعي لم تقم على غزله وتمننه في النظم وانما عرفه الناس كمادح للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وتميز شعره بهذه الناحية حتى كان بحق شاعر المديح في عصر بني رسول ، وان كان هذا العصر قد عرف جماعة من مداح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، كالشاعر عبد الله بن جعفر والشاعر ابن هتيمل وابن المقري إلا أنهم من شعراء القصيدة الواحدة أو الاثنتين، ولم ينظموا أكثر من ذلك بخلاف البرعي الذي حصر شعره في مدح الرسول والتغني بمزاياه سالكا في ذلك نهج من سبقه من شعراء المديح النبوي وكان هذا الشعر قد لقي حظوة كبيرة في العصور التي سبقت زمن البرعي وخاصة في عصر المماليك في مصر والشام وكان أشهر من نبغ في ذلك الوقت البوصيري وعائشة الباعونية وغيرهما .

ويبدو لي أن سر تولع البرعي بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم يعود في ذاته الى حادثة شخصية وقعت للبرعي حيث أنه عزم للحج مع جماعة من أصحابه وأتم مناسك الحج ، ثم لم يتأت له زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة لمشقة الرحلة في ذلك الوقت حيث لاتوجد طائرات أو سيارات وانما رواحل هزيلة فكان لعدم زيارته ضريح الرسول أثراً بالغاً في نفسه ، وهو مافتيء يردد هذا الحدث في أكثر شعره . يقول بعد أن يصف حجه وقضاءه المناسك :

حجوا فراحوا يزورون ابن آمنة — وعدت في الفرقة الجافين منتظرا

عسى لطائف ربي أن تبلغني — قبرا يقر بعيني زائره نظرا

ويقول .

يا سيدي أنا من علمت اذا بسى — حمل الذنوب وجور دهر تأبسي

لو لم يكن لي اذ حججت ولم أزر — إلا فناءك وحده تكفى بي

ويقول في موضع ثالث :

وجمالك اذ زار الرفاق ولم يزر — من يستطيع يرد أمرا مبرما

وفي موضع رابع :

حججت ولم أزرك لسوء حظي   وعبد السوء يعتاد الإباقا

فأثار عدم تمكنه من زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم شوقه الشديد اليه صلى الله عليه وسلم وأثار مكامن العاطفة الدينية فيه وخاصة وأن شاعرنا صاحب مزاج عاطفي شديد فكان أن قال الشعر الجيد في مدحه حتى أصبح علما عليه.

وهو يشير الى مدحه للرسول ويعتز بذلك مخالفا نهج شعراء عصره فيقول:

اذا مدح الشعراء أرباب عصرهم   مدحت الذي من نوره الكون أبهج
وان ذكروا ليلى ولبنى فانني   بذكر الحبيب الطيب الذكر ألهج

ويقول أنه لم يستفزه في مدح أحد من الناس مال أو منصب.

لا يعب شعرا نفيسا بالخسيس ولو   هلكت جوعا فللاشعار أسعار
ولا تعاظمني في مدح منصبهم   مال ودار ودينار ومنطار

فهو شاعر صاحب رسالة ومنهج . وقد أولع بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وكان أكثر استمداده في مدحه له صلى الله عليه وسلم من سيرته العاطرة فبجانب ما يصاحب قصائده في المديح من تغزل بجماله وتغنى بعظمته وأخلاقه نجده يشير الى وقائعه مع المشركين ومعجزاته ونبوته الى غير ذلك . فهو يشير الى معاندة قريش له صلى الله عليه وسلم فيقول :

كم عاندته قريش وهي عالمة   بأنه خير من فوق الثرى بشرا
وكم رعى بالتعمي حق حرمتهم   مابعثا فيهم التحذير والنذرا
يلقى المسيئين بالحسنى كعادته   ويوسع المذنبين العفو مقتدرا
لما دعا واعظا صموا فخالطهم   بالسيف بأساً فلبوا السيف إذ شهرا

ثم يشير الى جهاد الكفار :

وشن غارته في كل ناحية   وقام لله والاسلام منتصرا

نمتـــه من قريش الابطحين ومن   أبناء فيلة أهل الدار أسد شـرى

ونشير الى معجزاته :

لئن كان ابراهيم خـص بخلـه   فهذا نبـي أوتي القـرب والحبا
وان كان فوق الطور موسى مكلما   فأحمد جاز السبع واخترق الشهبا
وان فجر الينبوع موسى من الصفا   فأحمد أروى مس أنامله الركبا
وان كلم الاموات عيسى بن مريم   فأحمد في يمناه سبحت الحصبـا

ويشير الى معراجه صلى الله عليه وسلم :

كفته كـرامة المعـراج فضـلا   بها في القـرب سـاد الانبيـاء
سرى مـن مكة ببـراق عـبر   لأقصى مسـجد وعـلا السـماء
مفتحـة لـه الابـواب منهـا   يجاوزها الى العرش ارتقـاء
فسـر بـه الملائكـة ابتهـاجا   وصلى خلفـه الرسـل اقتـداء
وكلم ربـه مـن قـاب قـوس   وألهم فى تحيتـه الثنـاء

وشعره فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم كله جيد فلا غرابه اذا اشتهر تلك الشهره الواسعة ليس في اليمن وحسب بل في سائر أنحاء العالم الاسلامي.

ابن المقـري :

خاتمة الشعراء في عصر بني رسول هو الشاعر اسماعيل بن أبي بكر بن المقري شاعر الفقهاء وفقيه الشعراء بل وشاعر الشعراء قاطبة .

ولد الشاعر اسماعيل بن أبي بكر بن المقري بأبيات حسين سنة ٧٥٥ وتفقه بها على يد الفقيه حسين بن علي الهاملي ثم دخل زبيد فأكمل علومه على يد الفقيه جمال الدين الريمي وهو الذي رثاه عند موته بقصيده أوردناها فيما سبق . ثم اتصل بالملك الاشرف ومدحه بقصائد جيدة فأثابه ووهب له بيتا بكافة مرافقه والى ذلك يشير ابن المقري في قصيدة مخاطبا فيها حفيده الملك الظاهر يحيى :

بيت بناه لي المهـد معمـرا   وأطال فيـه بتبرتي وسروري

وعندما آل هذا البيت الى السقوط في عهد الظاهر شكى اليه ابن المقري حالته فقال :

وتزلت من أعلى لأسفل روعة يا وحشتاه لمنزلي المعمور

فقام بتجديده وعمارته فما كان من ابن المقري الا أن شكره بقصيدة يقول فيها :

لقد نال داري منك يا ملك الورى من الفضل شيئا لم أكن منه منتك
لأنك يا يحيى أعدت شبابه وقد دكت الايام أركانه دكا
وأما شبابي لم يعد بل أعدت لي شبيبة تمسي فهي كالعهد بل أذكى

وفي عهد الاشراف تولى ابن المقري أمر بعض البلاد الشماليه «الشامية» وتولى أعمال مور ، وولي في عهد الناصر التدريس بالمدرسة الاشرفية بتعز وكان ابن المقري يطمح في تولي قضاء اليمن العام، فلم يتأت له ذلك ، بل إنه أخر سفارته الى مصر بعد ترشيحه لها بغية الحصول على هذا المنصب بعد وفاة متوليه مجد الدين الفيروزابادي •

ويبدو أن ابن المقري اشتغل بالتجارة قبل اتصاله بملوك الدولة الرسولية بدليل شعره الذي يقول فيه مخاطبا الملك الاشرف ويسرح قصته مع التجارة وخسارته فيها :

كلما رمت شرح حالي اليكم حرت بين الوقوفه والاقدام
فرجاء يحثني من ورائي وجلال يقوم من قدامي
فاستمع شرح قصتي وأغثني يا غياث الورى وغيوث الأنام
كنت بالربح والتجاره مغرى ترتمي بي الى بعيد المرام
فمشيت البلاد برا وبحرا أطلب الربح قد شددت حزامي
ثم لما جمعت ما يسر الله من المال بعد طول هيامي
ساقني الله نحو أرض زبيد ودعتني كواذب الاوهام

فأقامــت تجارتي في كســاد　　واستمرت عرامني في العــرام
ما انقضــى لي هنـــاك حولين الا　　وقد احتــرت في ارتـــاد الطعام
وقد ادّنّتْ فوق المــين نقــدا　　واذا بالخصــوم تبغــي خصامي
جئتكم هاربا ففرجتم الكرب ودوتـم حــــوادث الأيـــام
واستقامت حالتي وزادت تسـوا　　فلك الشــكر يا شريف المقـام

تلك قصته مع التجارة وفشله فيها ولم يعود ابن المقري اشتغاله بها واكتفى بالاتصال بملوك الدولة الرسولية ونشر العلم والتدريس ، وكان له بالاتصال مع الرسوليين تجاره وأي تجاره ، فقد أغنوه بعد فقر مدقع ورفعوا اسمه بعد خمول مزر فكان الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل يهب له على كل بيت قاله في قصيده له في مدحه ألف دينار حتى إنه عجز عن تسديدها دفعه واحدة فتعهد في الباقي.

وابن المقري يعترف بفضل ملوك الدولة الرسولية عليه فيقـول مخاطبـا الاشرف ومتحدثا بفضله عليه :

خدمتـه فتولانـي برحمته　　فكنــت في بابه ابنا وكان أبـا
وصير العلم لي شـغلا وكلفنـي　　حــلا لرمز وتســهيلا لما صــعبا
وكان يحثي على مقــدار همتـه　　حتى ملكت صــفايا العلم والنخبا
وازددت فخرا على الاقران قاطبة　　اذ كان علمي من جدواه مكتسبا

فهو يعترف للملك الاشرف بفضل تفرغه للعلم وانصرافه عن أسباب التجاره حتى أصبح شهيرا بين أقرانه . وهكذا فان ابن المقري كان صنيع الدولةالرسولية وعالمها . وربما خرج عن سياسه بعض ملوكها كما رأينا ذلك واضحا في حادثته مع الناصر وانكاره عليه تأييد الصوفية إلا أن ذلك كان نادرا في حياة ابن المقري، بل ان ابن المقري أظهر لنا عدم تبعيته المطلقة لسياسة ملوك الدولة الرسولية في بعض الحالات فهو رجل حر الضمير يميل الى صفوف الشــعب في حالة قسره وارغامه كما سنرى فيما بعد .

وقد مرت بابن المقري فترات عصيبة كان يتصارع خلالها مع أعدائه من دعاة التصوف وربما اتصلوا بالسلطان فآذاه بسبب ذلك وهو يشكو منهم في شعره ويعرض بهم • من ذلك قوله :

الى الله من باغ علي كأنه تذكر ضغن فهو بالثأر طالبي
يحاول مني عورة كي يذيعها ودون لقاها ألف ستر وحاجب

ويقـــول :

ان أبصروا لي عورة طاروا بها فرحا وان شهدوا الفضيلة ساتروا

ومما زاد في قسوة الايام عليه شقاوة بولده فهو ما فتىء يدعو عليه في شعره يقول :

قصدت عليا حيث كنت أوده فأوجعني من قبل مولي فقده
لقد مات معناه وان بقي اسمه عسى باعث الموتى الينا يرده

ويقول مخاطبا له :

وكنت ابني وكنت أبا شفيقا فأنساني بنوتك العقوق
وجاهرت المهيمن بالمعاصي وما عاصي المهيمن لي رفيق
غسلت يدي منك وقلت ميت ولكن ما علي له حقوق

ونفهم من شعر ابن المقري أن أكثر سكونه كان بمدينة زبيد ففيها أهله وأهله وأولاده وله بنت يحبها حبا جما توفيت في حياته فرثاها بقصيدة أوردنا بعضا منها فيما مضى وتزوج من أسرة الوزراء آل معيبد • وتوفي بعد أن شارف على التسعين فتوفي يوم الاحد ٢٩ صفر سنة ٨٣٧ •

شعره :

قبل أن يكون ابن المقري شاعرا هو فقيه ، وبالفقه اشتهر بين الناس وله فيه المصنفات الكثيرة المشهورة ، ككتابه الإرشاد الذي شرحه نحو سبعة من العلماء في مصر والشام •

واشتهر كتابه روض الطالب في الفقه وكان يبحث فيه بتحريض مستمر من والده الذي لايسره أن يقول الشعر ويعرف به ، ومع ذلك فان ابن المقري استمر في نظم الشعر ، ولم ينفع فيه تحريض والده وأصبح شاعرا بين الناس يقصد الملوك لالقاء قصائده فيلقى آذاناً صاغية ، وربما ترك الفقه أثره الكبير على شعره ، فأنت تلمس آثار متون الفقه على نظمه في هذه الابيات وغيرها :

الحمد لله حمداً ليس يحصيه　　　هذا الزمان الذي كنا نرجيـــه

وقولـــه :

وان قتلتنـــي أهدر الشرع مهجتـــي　　　لأني قد أقررت أني لها عبد

وقوله :

دماء العاشقين لهـــم (جبـــار)　　　بلا عـــود تطـــل ولا ديـــات

وربما استعمل عبارات الصوفية والمتكلمين فقال :

همم أتت « بخوارق العادات »　　　وبكل معجـــزة من المشكلات

وقولـــه :

لك في كل يوم في المكارم (بدعة)　　　لا تهتـــدي في فعلهـــا الايـــام

الى غير ذلك ، ومن أثر الفقه والتدين في شعره أنه لايذكر في شعره ماهو محرم في الشريعة فهو لايذكـــر الخمر ولا يسرف في المجـــون كالغزل بالغلمان والتشبيب المحرم حتى إنه ترك الغزل العادي في أواخر أيامه فانعدم أو كاد من القصائد التي مدح بها الملك المنصور عبد الله بن أحمد وما بعده بل دخل الفقه الى شعر المقري من زاوية فنية أخرى ، فأنت تحس طابع التقرير في كثير من قصائده التي يصف فيها الاحداث والوقائع والامثلة على ذلك كثيرة منها قوله يصف معركة:

جرد « سنجرا » أمس في أمر عنى　　　والله جـــرده لأمـــر ثـــان
وافى مغيرا ليس يعلـــم ما الذي　　　وافى له حتـــى التقـــى الجمعان

هجم العـــدو موافقــا بقــدومه   لســقائه وســعادة السلطان

ثم تمضي القصيدة تصف المعركة بين أمير السلطنة المسمى « سنجر » وبين أعدائه من رجال القبائل فلا نقف في هذه القصيدة وعبرها على أثر يذكر للابداع الادبي والفني وربما أفادتنا هذه الناحية حصيلة اجتماعية كبيرة قلما نظفر بها في شعر شاعر آخر من شعراء العصر الرسولي وهو قد اهتم بتصوير حياة المجتمع ومشاكل الناس وربما أرسل قصائد الى الملك الناصر أحمد تعلن عن تذمر الرعية من ذلك الوالي أو هذا الحاكم وقد مر بنا شيء من ذلك فيما مضى . وهو يحرص الملك على العدل في الرعية فيقول :

وللعدل وجه يعجب الناس حسنه   ويشفاه الاقصى ويدني المبعــدا
فيا أيها المنصور يا نجل أحمــد   ويا ضيغما تحــت السرادق ملبدا
لقد شاع بين الناس بالامس أنكم   سمعتم وقد شد « المشد » وشددا
فقلتم عليك الرفق فالرفق لم يكن   مع الشيء الا زان منه وسـددا
وكان مشد فيه رفــق وقد أتـى   على ما بكم لا حيف فيه ولا اعتدا
فخفف وامتــد هنالك بالدعــا   أيادي البرايا شــاكرين لها اليدا
يســر الاعادي أن يــدم عدوهم   وأنتم بمدح الخلق قد غظتم العدا
علمتم بأن الرفــق زيــن فرمتــه   وان الجفا شــين فأبعدته مـدى
وهل يستوي في الفصل مال مبارك   تأتى بما يرضى من الرفق والهدى
ومال كثــير جاء من غــير وجهه   بحيف وظلم شــب نارا فأوقـدا

الى آخر قصيدة ابن المقري وبعث قصيدة أخرى على لسان أهل زبيد يشكر فيها الملك الاشرف الثاني بعد قيام عماله بسدة النخل بنزاهة وعدم تكليف الاهالي بالضرائب الباهظة :

لو كنــت تعلم ما بأهل زبيــد   وزبيد من شــوق اليك شــديد
لخصصــتها دون المدائــن كلهـا   وخصصت أهليهــا بكــل مزيــد
بلــد أحبك ســاكنوه ومــا أرى   خــيرا تجــازيهم بــه ببعيــد

حاموا بحسك بعدما أنقذتهم   من كل محذور وكل وعيد
أنقذتهم من محنة النخل التي   كادت تشيب رأس كل وليد
ومغارم أكلت على ملاكه   ثمراته وأتت على الموجود
من بعدما انتشر البلاء وأشرفوا   فيه على التعريف والتطريد
لو دام عاما واحدا لتبددوا   في كل أرض أيما تبديد
فكشفت عنهم ما كشفت عن البلا   وعددت هذا النخل خير عديد
ومحوت عنه حوادثا قد قربت   كسب النماء بها على المولود
ما كان يعرف رب نخل راحة   في النخل من خوف ومن تشديد

الى آخر هذه القصيدة التي أبانت عن محن شديدة كان يقاسيها أهل زبيد من عمال الدولة الرسولية أثناء حصرهم النخل وأخذ الرسوم عليها ، وهكذا يمضي شعر ابن المقري الاجتماعي مصورا آلام الشعب ومشاكله .

وقد جره حديثه عن المجتمع الى التورط في مشاكل السياسة فعبر عنها شعره خير تعبير فهو ينكر على الدولة تعدد السلطة ويصف المولين بالانتهازية والعنى على حساب الشعب يقول :

وأصبحت سلطان البرية واحدا   وقد كان أمر الملك في خمسة يلوى
وأمسوا بطانا أغنياء وغيرهم   يبيت خميصا قد طواه الطوى طيا
وكل يجر النار منهم لقرصه   فعاشوا وخلوا قرص غيرهم نيا

وتمتد صراحة ابن المقري الى أرباب الحكم فهم يعدون بالعدل في الشعب ولكن كلما وعدوا بذلك زاد ظلمهم :

وقد وعدوا بالعدل لكن بوعدهم   أرادوا ازدياد المال من غير مهنة
فزاد بهذا جورهم وتناقصت   عليهم به الاموال حتى اضمحلت
وكانوا كعمرو رام تكثير ربحه   فباع رؤوس المال بيع الغبينة
وأصبح يبغي الربح من غير ملكه   فسمي ظلوما ظالما في القضية
وحيف فقر الناس عنه بمالهم   وفاته أموال بفوت الرعية

ولو أمهلوا الوعد الذى وعدوا به — لضاعف أموالا بأقرب مدة
ومن لم يدبر ملكه حسن رأيه — ولم يدفع السوءى بحسن الطريقة
رأى صدما يرجوه من حيث يرتجي — وأصبح من أعداه أهل المودة

انظر الى هذه الصراحة في هذا الشعر فهو يصد مزاعم الحكام في دعواهم بالعدل في الرعية ويقول كيف يكون هذا العدل وأنتم تنهبون أموال الناس وتحاولون سبل الاتجار بنهب أموال الناس صراحة .

ويتجه شعر ابن المقري الاجتماعي الى زاويه أخرى لاتتصل بالجانب السياسي يصور لنا فيها أفراح الناس وأعيادهم وقد برز شعر ابن المقري في هذه الناحية ورسم لنا صورة فريدة من احتفالات الدولة بالاعياد ففي عيد النحر يخرج الملك الى مصلى العيدين ويجتمع الناس لمشاهدة الاستعراض الفريد الذي يقوم به العسكر لهذا الصدد :

والخيل تقرع والاسنة تلتظي — في النقع تحسبها نجوم ظلام
والجيش مثل البحر يضرب بعضه — في بعضه ضرب الخصم الطامي
ومراكب وسلاهب وجنائب — وكتائب مثل الاسود حوامى
وخرجت فيه الى المصلى مخرجا — ترضي الإله بهيبة وقوام
تمشي الهوينى قد علتك سكينة — تغشاك من خلف ومن قدام
والناس بين مهلل ومكبر — لله ذي الاجلال والاعظام

الى آخرها . ومن اجتماعياته الفريدة وصفه لولائم الدولة وما يقام فيها من مآكل فخمة تدل على البذخ والتفنن في الطعام . انظر الى هذه المائدة التي أقيمت بها شياه وأبعرة مسلوقة يحسبها الرائي حية :

سماط ما أراه أم مناخ — لأبعرة تقام وتستناخ
تراها وهي مشوية قياما — صحاحا ما بمفصلها انتفاخ
قياما في السماط وحولتيها — طيور ما حواليها فراخ

تحاول أن تطير وأين منها مطار والاكف لها فخاخ
وضان فيه تأكل من كلاها وما ببطونها منه انتفاخ

الى آخرها • ويبدو أن ابن المقري بهذا الشعر وغيره حرر الشعر اليمني من التكرار الممل في طرق المواضيع الادبية والجري وراء الشعر التقليدي في الادب العربي •

مدائحه :

ولست أدري اذا كان ذلك الاتجاه في شعر ابن المقري متعمدا أم أتى عن طريق المصادفة ، اذ لم يكن قصده التجديد بل نم شعره عن حب المضامين عن تقليد مفرط في المتابعة • وكان قد جعل مدائحه لملوك الدولة قنطرة للتوصل الى مايهدف من فنون شعرية أوردنا نماذج منها فيما سبق وقد مدح ابن المقري خمسة من ملوك الدولة الرسولية هم كل من عاصرهم في حياته •

وفي مديحه يسلك الاساليب المعتادة عند الشعراء في المدح من التشبيب والحرص على مكارم الأخلاق ، ثم الدخول في وصف ممدوحه • وهو مدح يميل الى الوصف وتعديد الشمائل كقوله في مدح الاشرف :

الاشرف الملك الذي قاد الورى قود الكماة الخيل بالأرسان
الناهب المهجات في يوم الوغى والضارب الفرسان بالفرسان
المرسل النفحات يتبعها الغنى والمردف الإحسان بالإحسان
الباسط السطوات من لا يتقي الا بغض الطرف والاضعان
ملك يرى في أريحية عمره رأي الكهول وتجده الشجعان
ملك تحادره الملوك وتتقي وتخر عند لقاه للاذقان (الخ)

فهو وصف عادي لايضيف الى شرف الممدوح شيئا آخر ، ويصف ممدوحه بالحلم والصفح والجود والغيرة في حق الله :

مليك قريب حين يهتف باسمه الى الخير والحسنى بعيد من الشر

صفوح عن الجاني بطيء عقابه | عجول الى التقوى سريع الى البر
جواد يفوت الريح سبقا الى العلا | ويزرى على الانواء قاتلة الغمر
يحامي عن الديـن الحنيف وأهله | بهندية بيض وخطية سمر

وربما ارتدت بعض قصائده في المديح الى ذكر حوادث وقعت للممدوح فأفاد بهذا ناحيه تاريخية تهم المؤرخ من ذلك اشارته الى تنكيل الناصر بالعرب الثـــائرة :

وأوهى قوى العربان من أرض سردد | وأرض سهام فهي ممدوده آكل
وصبر قصـرا ثم عنسا وعاقفا | ترابا وطينا لا تشاك بها رجل
وصنعاء في ملك الامام وماله | بذاك يد تحميك عنها ولا رجل
فها هـو ان صالحتموه أخذتم | مكانا وقلتم ما تضمنه السجل
فيحسبه نقصا عليكم بجهله | فيعقد صلحا ثانيا ولك الفضل

والامثلة من هذا كثيرة .

غـــزله :

لابن المقري قصائد جملة في الغزل وهو يسلك فيه عدة طرق وأساليب فهو يشكو من الهجر والبين كما يصف لقاءه بالحبيب ويبدع في ذكر محاسنه ويلحي على اللاحين ويجيد في تصوير زورة الحبيب المختلسة الى غير ذلك من طرق يستعملها الشعراء فمن شكواه لفقد الحبيب :

تأنتم فأغليتم رخيص تجلدي | وصبري وأرخصتم من الدمع ما يغلو
الى الله أشكو فهو لو شاء جمعنا | بعدنا الى العهد الذي كان من قبل
تغربت كي أنسى هواكم بغيركم | وعند الفم الصادي سوى الماء لا يحلو
أأسلو حبيبا نصب عيني خياله | ومن أين لي من بعده كبد تسلو
ولي أسوة قبلي بمن مات في الهوى | ومن مات لا عار عليه ولا ذل
مساكين أهل العشق حتى دماؤهم | تطل فما فيها قصاص ولا فضل

وهذا قاضي الحب قاض ظالم لايحكم بالحق ..

عصيت الناصحين عليك جهدي وأنت أطعت أقوال الوشاه
قضى لك في الهوى قضيه ظلما على سمعي هويل للقضاه
بأن تمسي عيونك نائمات وأن تمسي عيوني ساهرات

وتهيج الذكرى بالشاعر على أثر تألق البرق :

ويا برقا تألق من زرود لقد أطلقت دمعي كالفرات
لقد ذكرتني عهد التصابي وأياماً بلعلع ماضيات
وليلات تقضت في زرود بها كان الحبيب لنا مواتي
فليت زماننا هذا تولى ويرجع لي ليلاتي اللواتي

ويبدع في وصف النظرة من الحبيب فيقول :

غزال عليها قلبي الصب طائر ألست تراها في علائقها عصا
وما شك من هزت عليه قوامها بأن القنا منها تعلمت الطعنا
رمته الحشا باللحظ فاعجب اذا رنت لسيف له قطع وما فارق الجفنا
فهذا دمي آثاره في بنانها وقد أوهمتكم أنه أثر الحنا

ويقول في نفس الموضوع :

رمتني بعينيها فلم تخط مقلتي ولا لذ لي شيء كما لذ لي قتلي
فلا ذقت ما قد ذقت ساعةَ فوقت سهام الهوى تلك اللواحظ من أجلي

ثم يصف لقاء الحبيب فيأتي بأسباط جديدة من التعبير :

أتتنا كلطف الله جل جلاله بلا موعد منها ولا حيلة منا
فلا تسألوا عن ليله طفر الهوى بجيش النوى فيها فأفنى الذي أفنى
عكفنا على اللذات فيها بمعزل عن الناس لا عين تخاف ولا أذنا
تنازعني كأس العتاب وتجتني بدي من سر الوصل أحسن ما يجني
وتودعني سرا وتخفي انتشاره فأفهم معناها وأحلف ما يعني

ويصور لنا الحبيب فيرسمه فنه جملة يبدع في تصورها :

مورّدة الوجنات ساحرة الرنا ... تدانى وبعد الشمس من قربها أدنى
ترى ورد خديها وصارم لحظها ... طليقين ذا يجنى وذلك لا يجنى
اذا سام من بالغور برق ابتسامها ... نجد جرى دمعي فصدق ما ظنا
ويا مطبقا جفنيه يحسب أنه ... تغشاه لمع البرق والليل قد جنا
ألا انها فافسح عيونك « زينب » ... تخلت عن الجلباب ضاحكة سنا

فهذه صورة بديعة يرسم فيها الشاعر ملامح حبيبته بالصورة والحركة وأخيرا هاهم أهل الهوى فقدوا عقولهم وأصبحوا بين هجر وعتاب :

مساكين أهل الحب حتى عقولهم ... يخاف عليها ضيعة وذهاب
محبتهم في كل يوم جديدة ... وأحبابهم طول الزمان عضاب

وقبل أن نبارح ابن المقري ونفارق غزله بل شعره كله نقف عند قصائد له في الغزل :

ان له فرط غرام وأسى ... حتى صبا وهو مشيب قد أسن
والتفت الألمى إلي لفتة ... لو صادفته وهو ميت لافتتن
بطلعة زادت على الشمس سنا ... تجري بكل في الهوى على سنن
ظبي ملا قلبي هموما وشجا ... وما قضى لي أربا ولا شجن
عن مثل عقد الدر يفتر فما ... ان لم يهم في حبه مثلي فمن
أبدله وجدا وبدي وجرا ... وكلما استرضي تأبى وحرن
هاجرته فازداد هجري ولعا ... راسلته فسب رسلي ولعن
فكم أقاسي في هواه لغبا ... وهو مسريح ان هذا لغبن
لم يبق لي ولا لصب ورعا ... ملاقة فيه ولين ووعن
قبله فهل اخاف ما ثمت ... وهل لذاك الظلم وهو ما ثمن
لولا فتور في مفاه وسجى ... ما اوثق القلب هواه وسجن

الى آخر هذه القصيدة البديعه .

وله قصيدة أخرى يجيد فيها غاية الاجادة .

شهود الهوى عني عليك عـدول ... سهد ودمـع سـافح و نحـو ل
وجسم محـاه السقم لولا همصه ... بـدا شـبح كالظل كـاد يزول
كساني الهوى بعـد العزر ذلـة ... وكـل عـزيز للغـرام ذليـل
لقد كان لي قلب عزوف عن الهوى ... وعن كلمـا همـه عليـه دليـل
فعنت له من جانب السجف نظرة ... شمس ضحاها في القلوب افول
يصول الهوى منها ببيض صقيله ... يجـردها ظبـي أغـن كحيـل
فراح بها سكران من خمرة الهوى ... تقومـه العـذال وهـو بمسل
ومن ذاق طعـم العيش الا متيـم ... ببيض ظبـا تلك الظبـاء قتيـل
احسنا طال الفـراق فهـل لنـا ... الى الوصل من بعد الفراق وصول

* * *

المحتوى

للمؤلف

أ ـ كتب :

(١) مراجع تاريخ اليمن ـ دمشق سنة ١٩٧٢

(٢) فهرس المخطوطات اليمنية ـ عدن سنة ١٩٧٤

(٣) الصوفية والفقهاء في اليمن ـ مصر سنة ١٩٧٦

(٤) دراسات في التراث اليمني ـ بيروت سنة ١٩٧٧

(٥) مصادر الفكر الاسلامي في اليمن ـ بيروت سنة ١٩٧٧

(٦) حكام اليمن ـ المؤلفون المجتهدون ـ بيروت سنة ١٩٧٩

ب ـ تحقيقات :

١ ـ أقراط الذهب في المفاخرة بين الروضة وبير العزب ـ سنة ١٩٧٩

٢ ـ تاريخ وصاب ـ سنة ١٩٧٩

٣ ـ بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ـ سنة ١٩٧٩

٤ ـ أدب الطلب للشوكاني ـ سنة ١٩٧٩

٥ ـ النفس اليماني للاهدل ـ سنة ١٩٨٠

٦ ـ حوليات يمانية ـ دمشق سنة ١٩٨٠

٧ ـ كشف القناع عن أحكام الزراع ـ دمشق سنة ١٩٨٠

ج ـ تحت الطبع :

١ ـ المقامة في الادب اليمني « دراسة ونصوص »

٢ ـ معجم المرأة اليمنية

٣ ـ ثوار ما قبل الثورة

٤ ـ مدرسة التاريخ اليمني

٥ ـ تاريخ الفكر الاسلامي في اليمن

٦ ـ المطرفية مذهب مجهول في اليمن ـ نشرت منه حلقات في مجلة اليمن الجديد سنة ١٩٧٦

٧ ـ محمد بن ابراهيم الوزير رائد التحرر في الفكر اليمني

٨ ـ بيوت العلم في تهامة ـ نشرت منه فصول في مجلة العرب واليمن الجديد

٩ ـ عبقرية المهدي

١٠ ـ ابن عبد الوهاب ودعوته في التراث اليمني

١١ ـ المدينة في الشعر اليمني

١٢ ـ الحيمي ومدرسة البديع في اليمن

١٣ ـ من حديث المكتبة اليمنية ـ دراسة لامهات الكتب اليمنية ـ نشرت منه بعض الفصول في مجلتي العرب واليمن الجديد

١٤ ـ بحوث يمانية ـ مجموعة مقالاته ودراساته الثابتة . وله ابحاث أخرى لا تزال قيد الاستكمال .

* * *